عَادِل أسعَد المِيري

كُل أحذِيَتِي ضَيِّقة

رواية

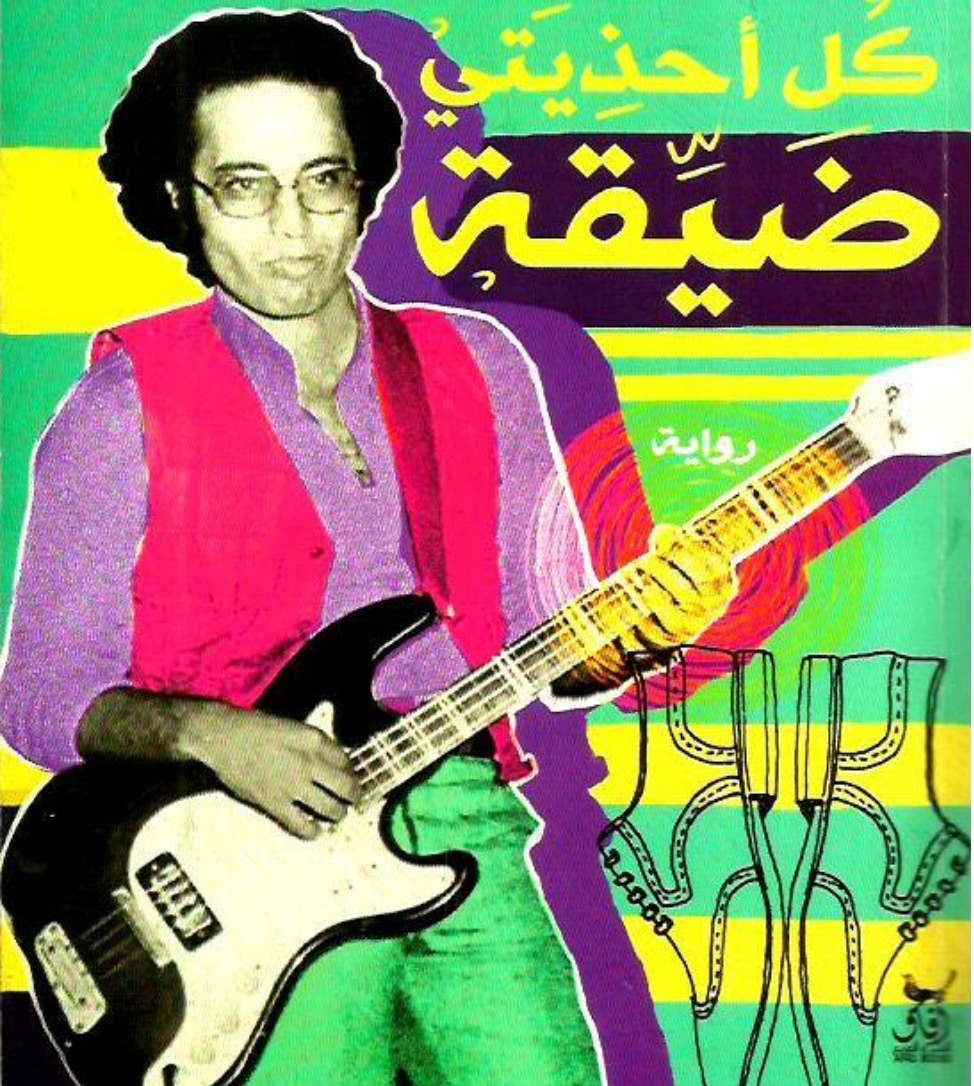

كلّ أحذيتي ضيّقة

عادل أسعد الميري

- **Author** Adel Asaad El Mairy
- **Title**: All my shoes are tight
- **First Edition**: 2015
- **Cover Design by**: Afaq

- **المؤلف:** عادل أسعد الميري
- **العنوان:** كل أحذيتي ضيقة
- **الطبعة:** الأولى 2015
- **تصميم الغلاف:** آفاق

رقم الإيداع:
٢٠٢٥٨ / ٢٠١٤
ISBN **الترقيم الدولي:**
978 - 977-765-010-6

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

4 Mohamed Mazloum st. - intersected with Houda Shaarawy - CAIRO - EGYPT
Tel: +202-2392-6114 Fax: 00202-2392-5917
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com
٤ ش محمد مظلوم - تقاطع هدى شعراوي - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٣٩٢٦١١٤ فاكس: ٢٣٩٢٥٩١٧

عادل أسعد الميري

كلّ أحذيتي ضيّقة

رواية

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

الميري، عادل أسعد.

كل أحذيتي ضيقة: رواية

عادل أسعد الميري - ط1 القاهرة -دار آفاق للنشر والتوزيع - 2015

224 ص، 20 سم.

رقم الإيداع 20258 / 2014

الترقيم الدولي 6 - 010 - 765 - 977 - 978

1 - القصص العربية القصيرة

أ - العنوان

(أحب ذاك الذي ترك سلطان أبيه وصولته، واستبدل الحرير بالأطمار، وسار منفردا الى غاية الوحي والتشويق، وبينما المعتدلون يسخرون به ويستغربونه، كانت أصابعه الدقيقة، تجمع بين ما ظهر من الوجود، وما خفي منه)

جبران خليل جبران/ مجلة الهلال المصرية/ عدد اكتوبر ١٩٢٥

اسمي ناجي نجيب مسيحة المنياوي، وأتجنب دائما كتابة اسمي الرباعي، لتجنب ذكر مسيحة. صحيح ان اسمي الثلاثي قد يدل على ملّتي، الا ان بعض الناس قد يعتقد ان اسمي هو ناجي محمد نجيب المنياوي، أو ناجي نجيب عبد الحميد المنياوي. وعندما عملت مع شركة سياحة كان كل العاملين فيها تقريبا مسيحيين، لأن صاحبها كان مسيحيا، اشتهرت في الوسط السياحي باسم، ناجي مسيحة، فهم قد ألغوا تماما نجيب المنياوي. لكم كرهتهم بسبب ذلك. على فكرة ان الغاء بند الديانة من البطاقات الشخصية، لن يكون له أي معنى، طالما اقتصرت أسماء محمد وعبدالحميد على المسلمين، وأسماء مسيحة وفلتاؤوس على المسيحيين.

(١)

أنا في ثالثة ابتدائي، عمري تسع سنوات، تلميذا في مدرسة القديس (الشيخ المحترم) لويس، وعلى فكرة هو لا شيخ ولا محترم، فانه هو نفسه لويس التاسع الذي أسرناه في دار ابن لقمان بالمنصورة، ولا أعرف ملابسات تحويله الى قدّيس في بلاد الفرنجة، ولكن هذه قصة أخرى. المهم كنت الأول على الفصل في أغلب الأحوال، مشهورا بالأدب والالتزام، وبالتالي فان المدرسين المضطرين الى مغادرة الفصل لسبب أو لآخر لبضع دقائق، كانوا يتركونني (واقفا على) الفصل، أي واقفا أمام السبورة لتسجيل أسماء التلاميذ المشاغبين، الذين تصدر عنهم أي ضوضاء أو أي هرج ومرج، وحدث أن تحدّث زميلي بسطويسي الى جاره، فكتبت اسميهما على السبورة، هو وجاره.

كل ما كنت أعرفه عن بسطويسي، هو انني عندما سألته عن مهنة والده انه قال (صاحب محل مانيفاتورة في القيسارية)، فوقعت على الفور في أحاسيس مضطربة غامضة، بسبب الغموض الهائل المحيط بهذه العبارة. كأنه لا يكفي البسطويسي اسمه وحده كمصدر للسحر والغموض. سيستلزم مني الأمر سنوات عديدة لأدرك، أن (ماني) تعني يدويا، وأن فاتورة تعني صناعة (فاكتورة)، أي ان الأب يمتلك محلا لبيع المنسوجات المصنّعة يدويا.

هل كان اهتمامي بمعرفة مهن آباء زملائي في الفصل، هو بسبب وجود نظرة طبقية بين التلاميذ على أساس مهنة الوالد؟ أتذكر ان أبي كان دائما يذكر أمامنا أنا وأخي، انه طبيب متخصص وحاصل على الدكتوراه، وبالتالي كان السؤال عن مهنة الوالد هو للرغبة في معرفة، ان كانت الماني فاتورة أهم وأرفع مقاما من التخصص في الطب؟ أما القيسارية فلن أعرف انها تعني السوق المغطى الا عندما أبدأ في دراسة الآثار. الا ان ما حدث ذلك اليوم جعل شخصية البسطويسي تزداد غموضا وابهاما.

قام بسطويسي من مكانه، وتحرك في اتجاه السبورة حيث أقف، واقترب مني جدا، ليتمكن من مدّ يده الى جيبي واضعا فيه شيئا ما. كنا نرتدي فوق ملابسنا مرايل (لحماية الملابس من اللعاب الذي يمكن للطفل أن يلوّث به ملابسه)، وكانت هذه المرايل بجيوب واسعة، يمكن للتلميذ أن يضع فيها سندوتش الفسحة بسهولة، وهو ما مكّن بسطويسي من وضع الشيء الغامض بسهولة. ثم قال هذه العبارة المحيرة (والمصحف تمسحني). وعاد الى مكانه دون أي اضافة أو شرح. فهمت النصف الثاني من العبارة بسهولة (يريدني أن أمسح اسمه من على السبورة)، ولكنني تساءلت أمسح اسمه هو فقط؟ أم أمسح كذلك اسم جاره؟ لماذا لم يوضح؟ ثم لا شك ان النصف الأول من العبارة مرتبط بالشيء الغامض الذي وضعه في جيبي.

مددت يدي الى جيبي لأخرج منه كتيبا صغيرا جدا، صفحاته لا تزيد عن أربعة سنتيمتر طولا، وثلاثة سنتيمتر عرضا، وبه مئات الصفحات من الورق الخفيف جدا، التي تمتلىء بآلاف الكلمات الصغيرة جدا. أردت فورا الاحتفاظ به، فمددت يدي فورا الى السبورة لمسح اسم بسطويسي.

وأدرت وجهي من جديد باتجاه التلاميذ، بريئا تماما، غير مدرك على الاطلاق لجريمة الرشوة التي ارتكبتها أمام عشرات الأعين الصامتة، وقف الجار على الفور محتجّا (وأنا كمان)، وصدرت همهمة من بعض التلاميذ، فمسحت اسم الجار.

عندما عدت الى المنزل أريته لأمي بالكثير من الفخر، فقالت (ده مش بتاعنا)، قلت (ازاي يعني؟)، قالت (احنا لينا الكتاب المقدس والانجيل)، قلت (اشمعنى؟)، قالت (من غير اشمعنى، كدة وخلاص)، قلت (ماكنتش أعرف، وايه الحل؟)، قالت (رجّعه له بكرة). الذي حدث بعد ذلك هو انني لم أعده الى بسطويسي، بل احتفظت به في ركن من درج في حجرة نومي حيث ظل سنوات عديدة، ومن المؤكد ان أمي، دائمة التفتيش في الأدراج عن ممنوعات، قد رأته، ولكنها تركته.

لم يكن بسطويسي يعرف انني مسيحي، ولم أكن أنا أعرف انه مسلم. وبالاضافة الى هذا التسامح الأخلاقي عالي المقام، فان الرشوة التي رشاني بها كانت نبيلة جدا، بصرف النظر عن عدم أخلاقية الرشوة في حد ذاتها.

(٢)

كنا نذهب الى عيادة أبي في عمارة الأوقاف القديمة بميدان المحطة، خلال الأسبوع الثاني من أكتوبر كل عام، لمشاهدة موكب الخليفة في ختام مولد السيد البدوي، (هل كنا نأكل حبّ العزيز الربعة بقرش؟). وفي رمضان كنا نأكل الكنافة باللبن، ونحصل على فوانيس رمضان. ورغم ان

أمي لم تكن تسمح اطلاقا بالعبث بهذه الفوانيس خارج النطاق الأمني المضروب حول المنزل، للذهاب مثلا الى الشوارع لمشاركة الأطفال اللاهين العابثين لهوهم وعبثهم (وحوي يا وحوي اياحا.....وما اليه)، كانت تعتبر هذا من قبيل قلة الأدب والصياعة المبكرة.

الا ان هذا لم يكن يضايقني. ولكن الذي كان قد بدأ يضايقني فعلا، هو ملاحظة ان أغلب الزملاء، لسبب مجهول، كانوا يمتنعون عن تناول السندوتشات في الفسحة، خلال هذا الشهر، فامتنعت أنا كذلك عن أكل سندوتشاتي خلال الفسحة، وكنت آكلها متخفيا في دورة المياه، أو آكلها عند العودة مباشرة الى المنزل، رغبة مني في مشاركة الأغلبية ممارساتها، وحتى أقلل قدر الامكان من الاحساس بالاستبعاد أو الاقصاء أو التهميش الذي اعتقدت ان هذه الأغلبية تمارسه ضدّي. وحيث انني كنت صموتا جدا، خجولا جدا، منعزلا جدا عن كلّ الآخرين بشكل مرَضي، فأنا لم أجرؤ على سؤال أي شخص عن أي تفسير.

طبعا أنا كنت أعرف معنى الصيام، ولكن بالمفهوم المسيحي، عندما تمتنع أمي عن أكل الجبن والبيض واللحوم، طوال مدة أربعين يوما في الشتاء، ثم مدة خمسين يوما في الربيع، ولكنها مع ذلك كانت تأكل أطباقا شهية، مثل العدس والبصارة والفول بالتحبيشة اللذيذة، ولديها الحق في استهلاك كل أصناف الخضروات المطبوخة بشرط عدم استعمال السمن الحيواني، بالاضافة الى كل أصناف الفواكه، طوال النهار، وبدون أي فترات امتناع أو حرمان للذات من شرب الماء مثلا، ولذلك كنت أتعجّب من السبب الذي يمنع زملائي المسلمين من استهلاك سندوتشات الفول

بدلا من سندوتشات الجبنة. في ذلك الوقت المبكر من الحياة لم أكن متدينا، أو لم أكن مهتما بالدين، أو كنت أستفيد من الخلافات الفلسفية بين أمي الأرثوذكسية التي تصوم، وأبي البروتستانتي الذي لا يصوم، فكنت لا أصوم.

في حصة الرسم، وكان اسم المدرس (استينو)، وكنت أتساءل (اذا كان مصريا فلماذا هذا الاسم الغريب؟)، كنت أعرف أن اسماء بعض التلاميذ أكثر غرابة من أسماء الأغلبية، فهناك بطرس وميخائيل ويوحنا، لم نكن قد بدأنا بعد في اطلاق اسماء بيتر ومايكل وجون، الا ان اسم استينو كان جديدا تماما. كان الاستاذ استينو قد طلب منا رسم فانوس رمضان، فرسمته ثم وضعت أسفل الصفحة آيات قرآنية من فاتحة الكتاب، عندما وقف خلف كتفي ورأى الرسم سألني (كيف تعلمت ما كتبته أسفل الرسم؟)، أشرت الى زميلي الجالس الى جواري، فسأل (وهل تعلّم هو أبانا الذي.....؟)، فقلت (لأ ليه؟). لم يردّ عليّ وانما ابتسم.

استمرت مشاعري بريئة تماما خلال فترة طويلة، لم يكن هناك أي الحاح اعلامي على الاطلاق، ولم تكن هناك أية منقبات أو محجبات في أي مكان على الاطلاق، وكان الملتحي الوحيد الذي أعرفه هو السبّاك الذي كانوا يطلقون عليه اسما مثيرا (السُنّي). كان التلفزيون مثلا لايذيع تلاوة من القرآن الا في بداية الارسال وفى نهايته، وكنا نحرص على انتظار نهاية التلاوة القرآنية قبل اغلاق الجهاز.

(٣)

أنا الآن في أولى اعدادي، عمري ثلاثة عشر عاما، تركت مدرسة القديس لويس بعد حصولي العام السابق على الابتدائية بمجموع ٩٥ في المئة، وكنت العاشر على المنطقة، تركت المدرسة لأنها أصبحت تجمع عددا كبيرا من التلاميذ الذين لم يحصلوا على مجاميع كافية لدخول مدارس الحكومة! هل يمكن تخيّل هذا الوضع؟ كان أهل التلميذ يفضلون، حتى ذلك العام، أن يذهب أبنهم الى مدرسة حكومية بدلا من الاستمرار في مدرسة خاصة، لأن التعليم الحكومي كان أفضل، وبدون دروس خصوصية.

أعلنت الاذاعة المدرسية في طابور الصباح، عن مسابقة في حفظ القرآن الكريم، تنظمها مديرية التربية والتعليم، وأنا في ذلك الوقت كنت مغرما جدا بكل أنواع المسابقات، الثقافية والفنية والرياضية، وكنت معجبا أشد الاعجاب بتلميذ زميل يحفظ القرآن كله، ويختبره أحيانا مدرس اللغة العربية أمام الفصل، في حصة المحفوظات التي كانت تشتمل أحيانا على آيات من القرآن الكريم، فيتثبت الجميع من صحة ما يدعيه هذا التلميذ من الحفظ التام للكتاب.

عندما ذهبت الى المدرس، لأعلنه برغبتي في الاشتراك في المسابقة، قال (لكونك مسيحيا سيكون لاشتراكك وقع جميل) ثم أضاف (ولكن

ينبغي أولا أن تحضر لي غدا موافقة مكتوبة من السيد الوالد). عدت الى المنزل متفائلا كعادتي، لأعلن لوالدي عن رغبتي، فقال (انت عايز تفضحني؟ احفظ لك آيات من الانجيل الأول، ويمكنك أن تقرأ القرآن في حصص اللغة العربية في الفصل).

كنت في ذلك الوقت أعتقد جازما، ان الانسان يستطيع أن يكون مسيحيا ومسلما في نفس الوقت. حياتي كلها يمكن أن تكون دليلا على صدقي. فأنا مثلا حتى الثانوية العامة كنت أعتقد جازما بامكانية أن أحصل في نفس العام على ثانوية عامة من القسمين العلمي والأدبي، لأكون بعد ذلك طالبا في نفس الوقت في كليتيّ الطب والآداب. وقد حصلت من فراش مخزن المدرسة، في بداية الصف الثاني الثانوي، على الكتب الدراسية الخاصة بالقسم الأدبي، مقابل اكرامية معقولة. وكنت أقرأ في التاريخ والجغرافية والكيمياء والأحياء، بنفس الاهتمام، وبدون أن يشعر أي من أفراد المنزل بذلك. الا اني قبيل امتحان نهاية العام ركزت كل مجهودي في مواد القسم العلمي، ولم أجرؤ على الاطلاق على الافصاح عن ميولي الأدبية.

وسأعطيكم هنا مثلا آخر للهلع الثقافي (المصطلح لسلامة موسى)، الذي كنت أعاني منه في ذلك السن المبكر. قرأت في مجلة المختار، وهي النسخة العربية من المجلة الأمريكية الشهرية Reader s Digest ، مقالا بعنوان (الاسبرانتو لغة الأمل)، والكلمة esperanto في كل اللغات اللاتينية الأصل تعني الأمل، والمقال عن اللغة العالمية التي كانوا قد حاولوا جمع كلمة العالم حولها، في نهاية الخمسينات، ثم قرأت في جريدة الأهرام، اعلانا مبوّبا عن مدارس فاروق الجوهري للتعليم

بالمراسلة، وكانت تقع في حيّ السكاكيني بالقاهرة، يقول انهم يقومون بتدريس هذه اللغة الجديدة! صدّقتهم، وأرسلت اليهم خطابا أطلب فيه النشرة الخاصة بالمعلومات عن نظام الدراسة، فطلبوا منّي ارسال حوالة بريدية بمبلغ ستين قرشا، طلبتها من أبي فرفض ساخرا مني.

(٤)

حتى العام الماضي كنت أجادل دائما، أولئك المنتمين الى ملتي، الذين يدّعون ان مصر عنصرية، كنت أقول ان العنصرية هي في الهند مثلا بين السيخ والهندوس، أو في العراق مثلا بين السنة والشيعة، أو في أيرلندا مثلا بين الكاثوليك والبروتستانت، أما مصر فلا وألف لا المهم وقع في يدي العام الماضي الدليل الأكيد على ان مصر تمارس عنصرية دينية ضد الأقباط.

أنا أحب خرائط المدن، فأينما ذهبت أحصل على خريطة المدينة، فأنت عندما تكون في أوروبا يمكنك أن تحصل على خريطة أي مدينة، مهما كانت صغيرة، من مكتب استعلامات في محطة قطاراتها أوفي ميدانها الرئيسي. كانت مصلحة السياحة (قبل أن تصبح وزارة) قد أصدرت منذ الستينات، الخرائط الخاصة بالمدن السياحية، أما مصلحة المساحة فهي تصدر حاليا الخرائط الخاصة بكل المدن المصرية، حتى تلك التي ليست لها أي علاقة بالسياحة.

لم تصدر خريطة مدينة مسقط رأسي طنطا، الا في سنة ٠٨ ٢، وهي لا تباع في محطة قطارات طنطا ولا في ميدانها الرئيسي، وانما تباع في مصلحة المساحة بالدقي، أمام مديرية أمن الجيزة، وللحصول عليها يجب أن تقدم صورة لبطاقة الرقم القومي، ويجب أن تملأ استمارة بيانات تشرح فيها سبب رغبتك في الحصول على هذه الوثيقة السرية الهامة، ويجب أن تجري مقابلة شخصية (انترفيو) مع مدير المكتب، للتأكد من صدق نواياك (جايز تكون جاسوس)!!

وقد حدث معي نفس الشيء من قبل، عند شراء خرائط للمدن المصرية المختلفة. يا سلام هكذا (وللا بلاش) تشجيع المصريين على اكتشاف بلادهم، والتجوّل فيها لابتكار الأفكار الخاصة باستثمار كل امكانياتها. في أوروبا بخيمة على ظهرك يمكنك أن تخترق الوديان والغابات والشواطىء، ولن يتدخل البوليس الا لحمايتك. مرة أخرى أذكر بالخير يوسف ادريس وكتابه (أهمية أن نثقف يا ناس)، ولكن الثقافة من نوع تلك التي كانت لحسين فوزي وتوفيق الحكيم ويحيى حقي. المهم حصلت على خريطة طنطا، وعدت سعيدا بها الى شقتي لأبدأ في دراستها، لأفاجأ بواحدة من أسوأ المفاجآت في حياتي.

فالخريطة رغم انها متر مربع، وتحتوي مئات الأسماء للشوارع والحواري، والمصالح الحكومية والأندية والمدارس والكليات الجامعية، بالاضافة الى عشرات المساجد، لا تحتوي أي معلومات عن ست كنائس قبطية. من المؤكد أن من صمّم هذه الخريطة كان قد قال في نفسه (لن يجرؤ أي كلب من الأقباط على فتح فمه بالشكوى). حزنت حزنا مريعا،

اذن فمصر ليست بلدي. ياله من اكتشاف مريع، جاء متأخرا جدا في السن، جاء وأنا أقترب من الستين، يالضيعة عمري.

وبمناسبة الحديث عن الخرائط، قابلت في الساعة السابعة من صباح يوم جمعة منذ شهور قليلة (٢٠٠٨)، شابة أمريكية، عند تقاطع شارعيّ ٢٦ يوليو وحسن صبري بالزمالك، ممسكة بخريطة كبيرة للقاهرة،

سألتني (أين هي محطة مترو الزمالك؟)،

قلت (محطة المترو الوحيدة القريبة هي محطة الأوبرا)،

قالت (لا، الخريطة تقول انها هنا، عند هذا التقاطع، توجد محطة مترو)،

قلت (انه الخط الثالث وهو تحت الانشاء، وسيصل الى الزمالك، بعد بضعة أعوام)،

قالت (عيب المصريين أنهم يفتون في كل شيء، رغم انك كبير في السن grown up وتبدو مثقفا)،

ثم أشارت لي على المكان في الخريطة، حيث تظهر بوضوح المحطة التي تقصدها. لم أردّ عليها، وانما بحثت عن المصدر الذي طبع هذه الخريطة، فوجدت انه جهة حكومية مصرية، ولم أشرح لها كيف اننا في مصر يمكن أن نجد الكثير من المعلومات المضللة، في مطبوعات حكومية. لاحظت بعد ذلك ان الخط الثالث مرسوم في الخرائط، الموجودة في أماكنها، عند أغلب محطات مترو القاهرة، منذ عشر سنوات أو عشرين سنة.

(٥)

وأنا صغير كان قد تولّد لديّ بعض الشك، في ان المسيحيين ليسوا مصريين تماما، وذلك لأن مجلة سمير للأطفال، التي كانت تصدر يوم الأحد من كل أسبوع، كانت تتجاهل تماما احتفال الأطفال المسيحيين بعيد القيامة، في حين تخصص العديد من الصفحات للاحتفال بعيد شم النسيم، وهذان العيدان يأتيان في يومين متتاليين. فكرت يوما في أن أكتب لهم لأنبههم الى أن اليوم السابق على شم النسيم، هو يوم عيد لدى (الاخوة المسيحيين)، معتقدا انهم يجهلون هذه الحقيقة. لم أكن أعرف ان مسألة الاعتراف بالقيامة، تستلزم أولا الاعتراف بالصلب، وهو ما ينكره الدين الاسلامي. ومع ذلك كان يمكن حل المسألة، بذكر ان المجلة تهنىء الأطفال المسيحيين بالعيد السعيد، دون أي تحديد.

وبمناسبة الاحتفال بالأعياد، فان هناك مسألة كانت، ومازالت، تحيرّني بعض الشيء، وهي مسألة الأغاني التي يردّدها الأطفال على عربات الكارو، التي تجرّها البغال، وتدور بهم في الأحياء الشعبية، للاحتفال بأعياد الفطر والأضحى،

اذ يردّدون (الكنيسة خربت/ والقسيس مات/ اخص عليك يا قبطي/ يابتاع البنات)، كنت أتساءل اذا كنت قبطيا حقيقيا، كمال يدّعي أبي، فلماذا أنا (يا خسارة) لست بتاع بنات، كما تدّعي الأغنية. للحقيقة والتاريخ، لم

تكن تهمني على الاطلاق تلك المسألة المتعلقة بموت القسيس.

ثم عندما كنت في الثانوية العامة، كان لدي زميل مسيحي اسمه فلتاؤوس، طبعا اسم (يودّي) في داهية، كنا نتبادل دائما المركزين الأول والثاني في فصل المتفوقين، بفارق درجة أو اثنتين، فاذا بي أفاجأ في الثانوية العامة، بأنه قد سبقني بسبع درجات، كنت حاصلا على ٣٤٠ درجة، وهو على ٣٤٧ درجة، وقد سبقني بعشر درجات كاملة في مادة اللغة العربية، التي حصلت فيها على ٣٥ درجة، وحصل هو فيها على ٤٥ درجة. سألته كيف حقق هذا الانجاز؟ قال (كنت أكتب بسم الله الرحمن الرحيم على رأس كل صفحة اجابة). هو الآن طبيب في أمريكا، وكان قبل السفر قد قال لي (احنا مالناش عيش في البلد دي).

قبل أزمة انفلونزا الخنازير الأخيرة، عند تقاطع محور ٢٦ يوليو مع الطريق الدائري، قال سائق التاكسي ان هذه الرائحة القذرة التي نشمّها هنا، هي رائحة المسيحيين الذين يسكنون وسط القمامة، لم يقل انها رائحة الخنازير التي يربّونها، ولم يقل انها رائحة القمامة التي قد تتغذى عليها الخنازير، وانما هي رائحة المسيحيين أنفسهم. لم أعرف كيف أرد عليه، من أين جاءه اليقين أنني مسلم؟ قد يكون السبب هو انني قبل لحظات من تصريحه الخطير، كنت قد أبديت له اعجابي بصوت المقرىء الذي كان يستمع اليه في كاسيت السيارة، مشاري بن راشد العفاسي، ذكرت له اسمه هكذا كاملا، فتأكد بما لا يدع مجالا لأي شك أنني مسلم.

في رواية (أمريكانلي) لصنع الله ابراهيم، قرأت ان المستعمرين الأمريكيين الأوائل، حوالي سنة ١٧٠٤، كانوا يمارسون طقس سلخ فروة

الرأس، أي قطع جلد الرأس وترك الجمجمة عارية بدون جلد، حيث ان السلطات الاستعمارية كانت قد رصدت مكافآت مجزية، لمن يقتل هنديا أحمر، ويأتي للسلطات برأسه، ثم تسهيلا على هواة صيد الهنود الحمر الحصول على المكافآت، رأت تلك السلطات أن حمل الرأس مرهق للهواة، فهو قد يزن من ثلاثة الى أربعة كيلوجرامات، فقررت الاكتفاء، بتقديم فروة الرأس مقابل المكافأة.

أتمنى أن أكون قد فارقت الحياة، في اليوم الذي يصل فيه الاسلاميون المتشدّدون الى السلطة، فيذهبون بقوائم الأسماء الى أبواب الشقق يحطمّونها، ويذبحون الناس على عتباتها، أو يقودونهم الى المحرقة الكبرى في قلب ميدان التحرير، سواء بسيارات النقل العام أو الشرطة، اذ ان مسألة فروة الرأس المذكورة أعلاه، لا يمكن تطبيقها في مصر، للتشابه التام بين عنصري الأمة. أم ان المارينز والأباتشي ستتدخل لتنقذ الموقف؟ يوم ٦ أكتوبر ١٩٨١، وهو يوم اغتيال أنور السادات، وجدت أمي علامة صليب أسود، مرسومة على باب شقتنا في طنطا.

(٦)

وافقوا على أبي مبدئيا، رغم ان أمي كانت قد قالت لي فيما بعد انه كان قد بدا لها قصيرا وسمينا. ذهبوا سويا الى الاسكندرية، هو وهي وحماته، في سيارته الفوكسهول الانجليزية، لشراء خاتم خطوبة ماسي من قيراطين، في استعراض للثراء الذي كان أبي حديث عهد به، بفضل العمل

المتواصل ليل نهار، في عيادته الجديدة بعمارة الأوقاف القديمة بميدان المحطة، حيث كانت قيمة الكشف جنيها مصريا واحدا، وعملية حصوة المثانة بعشرين جنيها. كان ثمن الخاتم الماسي هو ٥٢٠ جنيها، ولمعرفة قيمته الحالية يمكن اضافة صفرين على الأقل الى يمين هذا الرقم. بعد شراء الخاتم تمت الموافقة النهائية وتحديد يوم الأربعاء ٢٣ يوليو ١٩٥٢ لاتمام الزفاف! فيلم (موعد مع القدر).

كانت كنائس الاسكندرية مزدحمة لأن شهور الصيف هي الموسم المفضل لعقد الزيجات، وقد تمّ الزفاف طبقا لطقوس الكنيسة البروتستانتية التي تنتمي اليها أسرة أبي، وقد ظل أحد أقارب أمي حتى وفاة أبي، يعيد على مسامعي كلما رآني في حفل زفاف عائلي، أو في شعائر جنائزية عائلية، أن أمي وأبي يعيشان في الحرام! هذا القريب كان أرثوذكسيا لا يعترف بالكنيسة البروتستانتية!!

احتفل والدي بشهر عسله كما ينبغي لأي ثري أن يفعل، فقضى هو وعروسه أسبوعا في فندق البوريفاج، الذي كان على البحر بين جليم وسان استفانو في الاسكندرية، وظهر في أفلام عديدة، مثلا (الزوجة ١٣) لشادية ورشدي أباظة، وذلك قبل أن يهدم ويحل محله برج سكني في أواخر الثمانينات. ثم سافرا الى لبنان، لقضاء أسبوع بين بيروت والجبل، حيث لم يتمكنا من ممارسة الحب خلال ليلتهما الأولى هناك، لأن أبي كان قد اشترى كيلوجرام أجاصا (كمثرى)، والتهمه كله فأصابه الاسهال، أتمنى لهما لو ان أن ليلتهما التالية كانت أكثر توفيقا، ثم بالطائرة الى روما لقضاء أسبوع بين الأطلال الرومانية، ثم بالطائرة الى جنيف لقضاء أسبوع

على ضفاف بحيراتها، وقد تكلف شهر العسل ذاك، ٥٠٠ جنيها مصريا، بما في ذلك الطائرات والفنادق والمطاعم والفسح والهدايا.

بعد العودة الى مصر في أواخر أغسطس، نشر أبي اعلانا في جريدة الأهرام، وقد أصبحت الآن كل أوراق أبي في حوزتي (عاد النطاسي البارع الدكتور نجيب المنياوي، هو وعروسته الشابة، من رحلة زواجهما، بين ربوع لبنان وايطاليا وسويسرا، ويستأنف العمل كالمعتاد، في عيادته بعمارة ....الى آخره). لاحظوا انه هو الذي يطلق على نفسه اسم النطاسي البارع.

(٧)

ذهبت الى دار الكتب في رملة بولاق، واطلعت في قسم الميكروفيلم الخاص بالدوريات على أعداد جريدة الأهرام لشهر ديسمبر سنة ١٩٥٣، فقرأت:

- بمناسبة فصل الشتاء تعلن المحلات عن وصول تشكيلة كبيرة من البطاطين المستوردة بسعر يبدأ من ٥٠ قرشا للبطانية.
- يعلن محل نظارات عن تكاليف عمل النظارة الطبية بشنبر مستورد: ١٥٠ قرشا مشتملة على تكاليف كشف النظر بواسطة طبيب.
- يعلن معهد خاص للغات عن دورة تعليم الانجليزية والفرنسية للمبتدئين. ٧٥ قرشا في الشهر، مع ضمان تحدث اللغة بعد ستة أشهر.

- تقسيم أراضي مصر الجديدة يعلن عن بيع قطع أراضي بمساحات تبدأ من ٥٠٠ متر، بمبلغ قدره ٤٥ قرشا للمتر

- شركة سياحة تعلن عن رحلات عيد الميلاد الى جبل لبنان بسعر ٢٦ جنيها، شاملة الطيران والتنقلات، والاقامة الكاملة في الفندق، لمدة عشرة أيام.

- كازينو تريومف بالاس بمصر الجديدة يعلن عن حفل رأس السنة، ١٥٠ قرشا شاملة العشاء والبرنامج.

- للبيع سيارة روفر موديل ١٩٤٠ بمبلغ ١٢٥ جنيها.

- قسم الخدمة العامة بالجامعة الأمريكية بالقاهرة يعلن عن برنامج حفلاته السينمائية لهذا الشهر، بقاعة ايوارث، بتذكرة موحدة ٢٥ مليما.

وهناك طائفة أخرى من الأخبار المتنوعة

- الغاء تكيتي مكة والمدينة، وانشاء معهدين صناعيين بدلا منهما.

- توقيع عقد اقامة فندق عالمي، مع شركة هيلتون الأمريكية، لبناء فندق على الأرض التي كانت تشغلها ثكنات قصر النيل.

- سيصل العدد الاجمالي للسياح الوافدين الى مصر، خلال أعياد الميلاد ورأس السنة هذا العام، الى أكثر من ٢٥٠٠ سائحا، أغلبهم من أمريكا ومن ايطاليا.

- ضرورة التفكير في تكوين جماعات من أساتذة الجامعات وطلابها، وشباب الأندية الرياضية والاجتماعية، لتكون في استقبال السياح

ومرافقتهم، وذلك لاعطاء أفضل انطباع ممكن عن مصر الآن.

- اتخاذ قرار بشأن عمل مسابقة قومية لاختيار أفضل العناصر، بين السيدات والشابات، بشرط اجادة اللغات الأجنبية، وتدريبهن على الموضوعات المتعلقة بتاريخ مصر وآثارها، وكذلك الشؤون الدينية والاجتماعية.

- اختيار أفضل العناصر وتعيينهن مرشدات، تتحمل شركات السياحة مرتباتهن التي قد تصل الى ٢٥٠ قرشا عن النصف يوم، في زيارة المتاحف والآثار.

- برنامج حلبتي سباق الخيل في الجزيرة ومصر الجديدة.

- قوة التيار أسفل كوبري الجلاء تمنع السباح عبد اللطيف أبوهيف من اتمام سباق النيل الدولي.

- افتتاح فرع محلات باتا للأحذية بالجيزة.

- قضية اتصال المخرج حلمي رفلة بالسجينة تحية كاريوكا.

- الملحن الأستاذ (صفر علي)، صاحب نشيد (اسلمي يا مصر انني الفدا)، ووكيل معهد الموسيقى، يكتب مقالا عن كيفية النهوض بموسيقانا الشرقية.

- في ركن المرأة مسابقة تنظمها احدى شركات الأزياء العالمية، والسؤال المطروح هذا الشهر هو (ما هي حيوانات مصر التي تصلح جلودها لعمل الفراء؟)

- أجزخانة دالمار تعلن عن وصول مندوبة الشركة العالمية المنتجة

لمسحوق الغسيل (أومو)، وهي موجودة بالأجزخانة لتشرح للعملاء مزايا هذا الاختراع العجيب.

(٨)

انّ الانطباع الأوّل الّذى تتركه فىّ طفولتي، هو أننى كنت معقمّا ومجفّفا ومعدّا للعرض، كأي لعبة بزمبلك أو دمية مسلية، فدائما ما كنت استدعى بشهادات امتحاناتي، لأعرض على ضيوف أبى وأمّى كيف أننى قد حصلت على أعلى الدرجات فى كل المواد، أو لأظهر أمامهم بآلة الكمان منذ سن العاشرة، أو بآلة الجيتار منذ سن الرابعة عشرة، لأعزف لهم مقطوعات موسيقيّة، كما أنّه كان ينبغى دائما أن أكون أفضل الأطفال من حيث نوعيّة الملابس، وتصفيف الشعر، وقصّ أظافر اليدين، الخ

وبالمناسبة فأنا أتذكّر أن أمّى، كانت قد استمرّت فى الاصرار على أن تتولى هى بنفسها مسؤولية تصفيف شعرى، حتّى دخولى كليّة الطب! أمّى كانت تصفف لى شعرى بالمشط والفازلين، ثم تربطه لى بمنديل الرأس، حتّى بلوغى سن الثامنة عشرة، ولولا أننى كنت قد بدأت فى التمرّد عليها قليلا لكانت قد استمرّت فى ذلك حتّى النهاية!

كما أنّها كانت كذلك تتولى دائما عمليّة تصفية بثور وجهى، عملية تبدو لى الآن، بعد مرور حوالى نصف قرن، قريبة الشبه جدّا بما يعرف الآن فى علم النفس بالعلاقات الساديّة المازوخيّة (أى العلاقة بين سائد ومسود)، وذلك حيث إن بشرتى أثناء طفولتى كانت دهنيّة، وكانت غدد

الدهن كثيرا ما تمتلىء بالافرازات وتبرز، فكانت أمّى تجعلنى أجلس على كرسى، ثم تضع ركبتها على فخذي حتّى لا أتحرك من مكانى، ثم تتولّى هى عمليّة تصفية الغدد وذلك بحصر الغدّة بين أصابع يديها والضغط عليها، رغم ما كان يقوله لها دائما أبى الطبيب، من أنّ هذه الطريقة غير سليمة، وأنّها مؤلمة، لأنّ الوجه غنىّ بالأعصاب والشرايين الدقيقة، وأنّ البشرة الدهنيّة شىء طبيعىّ فى الطفولة والمراهقة.

ولكن كانت أمّى تستمر دائما فى ابتكار المزيد من وسائل التعذيب الخاصة بى أنا وحدى، ولا أحد غيرى، بسبب موقف أبى السلبىّ تماما من مسألة تربيتى، فهما، أى والدتى ووالدى، كانا على ما يبدو قد اتفّقا فيما بينهما على أننى أخصّ والدتى (بتاع أمّه أو ابن أمّه)، وأنّ أبى لا دخل له بى، وهكذا فانّه كان يكتفى بمجرّد التعليق على ما لا يعجبه، وقصر جهوده التربويّة على أخى الوحيد، الأصغر منّى بعامين، والّذى كان يخصّه (بتاع أبيه).

كان أخى قد بدأ تمرّده على أمّه فى وقت مبكر، قبل سن المراهقة، وكان منذ سن الثانية عشرة قد بدأ يعتاد على الهروب من المدرسة الاعداديّة الحكوميّة، والتسكّع فى شوارع مدينتا الصغيرة، وتدخين السجائر مع زملائه والعودة الى المنزل قبل عودة أبى من عمله، فيبدأ أخى فى محادثته بطريقة ودّيّة لبقة فى المسائل الّتى تشغله، تشغل أبى، فينسى أبى أن يلعب دور الأب، وهكذا أصبح أخى ومنذ سن مبكّر فى حماية رسميّة من أبي، مما جعل دور أمّى فى تربيّة أخى يتضاءل، وذلك مقابل تضاؤل الدور الّذى يلعبه أبى فى تربيتى.

و عندما شاهدت فيلم السراب، وكنت بالكاد في العشرين من عمري، وهو المأخوذ عن رواية بنفس الاسم لنجيب محفوظ، أدركت حجم التشابه بيني وبين البطل (كامل رؤبة لاظ)، الذي كان يعاني معاناة شديدة من تحكم أمه في حياته، ومن حمايتها الزائدة له، ومن رغبتها في أن يظل معتمدا عليها أطول فترة ممكنة من حياته، لتستمر معاملتها له كطفل تجد ما يبررها.

ومع ذلك فأنا لم أشاهد في الفيلم، ولم أقرأ في الرواية، ما يمكن أن يفهم منه أن أمه كانت تربط له شعر رأسه بمنديل، حتى يجفّ، كما كانت أمي تفعل معي، مما يجعلني أعتقد ان حالتي كانت أكثر خطورة من حالة (كامل رؤبة). في الحوار السينمائي عندما يطلب الجد من ابنته (أم الشاب)، ضرورة مساعدة ابنها في مشروع زواجه، ردت قائلة (الولد مش بتاع المسخرة دي)! هي اذن تمارس معه نفس الدور، الذي كانت أمي تحاول ممارسته معي، في عملية اخصاء نفسي متصل، فدقّ ناقوس الخطر بوضوح.

(٩)

فيما بعد وعندما أدخل كلّيّة الطب وأتعدّى سن العشرين، أعتاد على سماع عبارات السخرية من صديقات أمى اللائى كنّ يقلن لى (ان أمّك لن تتركك تتزوّج أبدا بل سترغب فى الاحتفاظ بك الى النهاية ، فاحذر)، كنت فى البداية أتقبّل هذه السخرية متضررا، ثم بدأت أدرك خطورة

اللعبة، فكانت هذه السخرية أحد أهم الأسباب الّتي أدّت بي فيما بعد الى الرغبة في مغادرة منزل العائلة، عندما كنت قد أدركت حقيقة الخطر المحدق بي.

واقع الحال هو انه مع التقدم في السن، ثبت لي بما لايدع مجالا لأي شك، ان صديقات والدتي كنّ محقات في مزاعمهنّ. فان والدتي لم تبذل طوال حياتي، حتى سن زواجي في السابعة والثلاثين، أي مجهود على الاطلاق لمحاولة مساعدتي في الزواج، بل على العكس كانت دائما ما تضع العراقيل من كل نوع أمام أي مشروع زواج.

تعود الى ذاكرتي الآن في سن السادسة والخمسين، وكأنني نسيتها، مناظر مؤلمة لي في الفترة الزمنية بين العشرين والثالثة والعشرين، عندما كنت ما زلت أسيرا في منزل أسرتي (لاحظوا كيف ان كلمتي أسرة وأسر هما من نفس المصدر)، وكيف انني لم أكن أعرف ماذا أفعل بطاقة جسدي، اذ لم أكن قد اكتشفت بعد العادة السرية، بالاضافة الى شعور حاد بكراهية ذاتي، تلك الذات مسلوبة الارادة، التي لم تكن ملكا لي بل ملكا لوالدي ووالدتي، يتصرفان فيها كيفما شاءا، كيف انني كنت أحاول اهانة هذه الذات وهذا الجسد. ماذا كنت أفعل؟

كانت أمي تقترب من الخمسين، وأصبح نومها ثقيلا، وبهذا تخلصتُ الى حد ما من ملاحقة الجستابو، فكنت أقوم من فراشي في الثالثة صباحا، وأنزل الى حديقة منزلنا، في الظلام الدامس الذي كانت تتمتع به شوارع ذلك الحيّ، في تلك المدينة التي كانت في ذلك الوقت صغيرة المساحة، ثم خلف شجرة الجوافة، أخلع البيجاما والملابس الداخلية، لأتمرغ عاريا

تماما في طين الحديقة، حتى ألطخ جسمي كله، وأشعر بسعادة غامرة! بعد ذلك كنت أستحم بخرطوم مياه الحديقة، وأعود الى فراشي.

على السادة أطباء الأمراض النفسية أن يقولوا لي ما هو تحليلهم النفسي؟ هل هذا هو ما يسمونه المازوخية؟ تعذيب الذات واهانة الجسد؟ أم انها كانت محاولة مني للاختلاط بطين الواقع، الشيء الوحيد غير المزيف في تلك الفترة من حياتي؟ أم ان المسألة ذات صلة بممارسة الاستعراء بحثا عن متعة ما كانت لا تزال مجهولة؟ أم ان المسألة كانت أخطر من ذلك؟ توقفت عن ممارسة هذا الفعل عندما تمكنت من الحصول على استقلالي، والمجيء الى القاهرة.

يبدو لي أحيانا أن السبب في حب التملك المرضي الذي عانت منه أمي، وتسبب لي في كل هذا العذاب، حتى أعلنت استقلالي، لم تكن هي وحدها المسؤولة عنه، بل هناك كذلك اهمال والدي التام لها، نفسيا وعاطفيا وجسمانيا، الذي عاينته بنفسي منذ الوعي المبكر، فلم تكن أمي تجد أي تعويض عن كبتها واحباطها، الا ان تتمسك بتلك اللعبة التي أعطتها لها الأقدار، تلك الدمية المطيعة المهذبة، حتى لو تحطمت تلك الدمية فيما بعد، فيا روح ما بعدك روح، واذا جاء الطوفان وضع الأب ابنه تحت قدميه ووقف فوقه لينقذ نفسه.

يقول علماء النفس إن الطفل الدمية هو أسرع الرجال في التحول الى الشذوذ الجنسي، وذلك لأنه تعوّد منذ صغره على الانكسار أمام المرأة، بداية من أول امرأة في حياته، أمه. أتعجّب أحيانا من عدم تحوّلي الى الجنسية المثلية؟

(١٠)

أمّا الانطباع الثانى الذّى تتركه فىّ طفولتى فهو الاحساس بالغربة، فأنا كنت دائم الاحساس بأنّى غريب، شكل رأسي غريب، مشيتي غريبة، طريقة كلامي غريبة، وهكذا..... ولأني غريب فاني كذلك كنت أشعر باني مراقب، فكل العيون تراقبني، تراقب خطاي وتصرفاتي، تراقب حتى ملامح وجهي، أينما ذهبت، في الشارع أو في النادي أو في المدرسة.....انها حالة من البارانويا الحادة، الشعور بالاضطهاد. وقد بدأ هذا الاحساس ينتابنى منذ اللحظة الأولى من العام الأوّل فى المدرسة الابتدائيّة.

أتذكّر جيّدا لحظة دخولى فصل (أولى ابتدائى)، وكيف أنّها كانت لحظة من أقسى لحظات حياتى. عندما دخلت الفصل أدار الأطفال كلهم رؤوسهم نحوي، في اتجاه هذا الشخص الجديد الغريب، اكتشفت ان كلّ الأطفال كان يعرف بعضهم بعضا، إذ إنّهم كانوا قد تعارفوا خلال العام السابق، وطوال عام دراسي كامل تسمّيه المدارس جنة الأطفال، أو حديقة الأطفال (كيندر جاردن)، أو (السنة التمهيدية)، أما أنا، فلم يكن يعرفني أحد، إذ إنني لم يكن مسموحا لى بجنّة الأطفال تلك، كنت قد حرمت من الجنّة، يا لها من عبارة قاسية، ولكن الواقع كان أكثر قسوة.

لم تكن أمّى تريد التخلّى عنّى بسهولة، فقررت أنّه لا يحق لى أن أستمتع بجنّة الأطفال بينما تحرم هى منى، وهكذا فبينما كان أقرانى زملاء

المستقبل، يلعبون ويلهون ويعبثون سويا في جنة الأطفال، اللعب واللهو والعبث المقبول منهم، كنت أنا قد بدأت الدخول في مرحلة الحبس الانفرادى الطويلة، في زنازين خلف قضبان المنازل.

هناك فقرة جميلة فى كتاب الفنانة منى قطان عن زوجها صلاح جاهين، الذى ظهر سنة ١٩٨٧ بعد وفاة صلاح جاهين بعام واحد، هذه الفقرة هى (كنا نحتج معاً أنا وصلاح احتجاجاً رمزياً على الماضى، ذلك الماضى الذى قضيناه وراء قضبان المنازل، أنا فى بيت والدتى، وهو فى بيت والديه، دون أصدقاء نلعب معهم فى الشارع، وقد تمثل هذا الاحتجاج فى رغبتنا فى أن نظل فى الشوارع طول الوقت).

هذه الفقرة تعبّر بالضبط عن إحساسى الشخصى، فأنا كذلك قضيت جزءاً كبيراً من طفولتى ومراهقتى وراء قضبان المنازل! حيث كان والداي يحرصان جداً على أن أبقى فى المنزل للمذاكرة، وكانا يصرّان على عدم اختلاطى لا بأصدقاء ولا بجيران! ولا أستطيع أبداً طوال حياتى أن أنسى مشاعر الحيرة التى كانت تنتابنى، عندما بدأت أنزل وحدى إلى الشارع فى نهاية فترة المراهقة، بداية من سن السابعة عشرة، ثم بعد ذلك حينما جئت إلى القاهرة، أعيش فيها مع جدتى فى حي العباسية وكنت فى الثالثة والعشرين من عمرى. وذلك لأنى وحتى ذلك السن كنت أسير من البيت إلى المدرسة فى خطوط مستقيمة، لا أتوقف أمام المحلات، لا يخطر على بالى ذلك، ولا أنحرف فى شوارع جانبية أبداً إلا إنحرافات محسوبة.

كانت سيارة أبى البونتياك، ثم سيارته الأوبل، ثم البوّاب الذى كان يرافقنى إلى المدرسة فى الذهاب والإياب حتى الثانوية العامة، ثم وجود

عدد من الخادمات فى المنزل (وعدم احتياجى بالتالى إلى النزول إلى الشارع لشراء البقالة مثلاً)، ثم وجود حديقة خلفية ملحقة بالمنزل، ثم القيود التى فرضتها أمى بفرمانات سلطانية (عدم مخالطة الجيران- عدم النزول إلى الشارع).

كانت هذه هى الأسباب التى أدت إلى الانتقام الوحيد الذى أسعد به جداً، لتصفية حساباتى القديمة مع الطفولة والمراهقة خلف قضبان المنازل، أن أظلّ، كما تقول منى قطان، طول عمري ألف وأدور فى الشوارع، كصابع أزلي، محاولاً أن أعوض بذلك حرمان الطفولة والمراهقة. سأظل أعانى معاناة شديدة حتى سن الثالثة والعشرين، حين أقرر ذات صباح خريفي، ضرورة الهرب في أسرع وقت ممكن، لكي أنفذ بجلدي من هذا السجن المؤبد.

وكان قد ترسّخ لدى كذلك شعور عميق الجذور، لا فكاك منه على الاطلاق مهما حاولت، بأنّه لا يحقّ لى اللعب، ليس لدى الحقّ فى اللعب مثل باقى الأطفال، وانّما أنا مدّخر فقط للأشياء الجادة، مثل المذاكرة والاجتهاد والتفوّق، وممارسة مهنة الطب التي ينبغي أن أرثها من أبي، بدون أي حق في أي اختيار.

والحكاية هي اني كنت قد عدت ذات يوم من المدرسة باكيا، لأني كنت قد اكتشفت ان تلاميذ (السنة التمهيدية) يقضون وقتهم كله في اللعب، قلت لأمي (ولماذا أنا لا ألعب؟). فأخذني أبي من يدي صباح اليوم التالي، الى فصل تمهيدي، حيث بقيت نهارا واحدا، بين زملاء يلعبون، ثم صباح اليوم التالي عدت من جديد الى فصل (أولى ابتدائي)

حيث الزملاء لا يلعبون، فعرفت انه لا يحق لي اللعب، وانما اللعب دائما سيكون من نصيب الأولاد الآخرين، أمّا أنا فمرصود فقط لكل ما هو جاد. بعد ثلاثين عاما ستقول لى زوجتى (أنت لاتعرف كيف تلعب، أو تستمتع بقضاء وقت لطيف مع أصدقائك، لميلك الدائم الى الحديث فى الأشياء الجادة).

يقول علماء النفس أن ثلاثة أرباع شخصيّة الطفل وطباعه الّتى ستظل معه الى نهاية عمره، تطبع فى أعماق شخصيّته قبل سن السادسة. وهكذا فان الهامش المتروك لأى انسان، للحصول على قدر من حرية الحركة اللازمة لتغيير بعض طباعه، لا يتعدّى ربع ما كان متاحا لهذا الانسان عندما كان طفلا.

أيّها الاباء انتبهوا، وأيّتها الأمّهات انتبهن، ان الجهل بهذه الحقيقة العلميّة لايغفر لكم الأخطاء الفظيعة الّتى تقترفونها فى حق أولادكم. ان الواحد منكم عندما يشترى قطّة أو غسّالة ملابس، فانّه يهتم بقراءة كتاب ليعرف منه، كيف يربّى القطة، أو كيف يدير غسّالة الملابس، أمّا تربية طفل فتظل عملية عشوائيّة.

واذا عدنا الى تلك اللحظة المصيريّة التى دخلت فيها فصل أولى ابتدائى، فقد شعر الأطفال فورا بغربتى، وبدلا من مساعدتى على اجتياز هذه الأزمة زادوا من احساسى بها، إذ إن الأطفال من هذه الناحية هم أقسى الكائنات، فقد تم استبعادى فورا وتهميشى، وحيث اننى كنت خجولا بطبعى فقد زاد انعزالى. ولم أتغلّب على هذه المشكلة الاّ عندما بدأت أتفوّق فى الفصل، وبالتالى بدأ الأطفال يشعرون بوجودى، بل بدأوا

يشعرون بحاجتهم اليّ، وهكذا بدأوا فى التودد اليّ، الاّ أنّ ذلك اليوم الأوّل فى المدرسة، واكتشافى حرمانى من حديقة الأطفال، يظل تقريبا أكبر خدعة تعرّضت لها فى حياتى ودائما ما تعود الى ذاكرتى صور ومناظر ذلك اليوم الأول فى المدرسة، كلّما شاهدت كلبا غريبا يسير وحده، وهو يضع ذيله بين قائمتيه الخلفيّتين اذ يقترب من قطيع كلاب فيطاردونه، ويظل يجرى هربا منهم وهو يعوى.

(١١)

وقد يكون السبب فى استمرار احساسى بالغربة خلال طفولتى ومراهقتى، هو طبع والدى ووالدتى، فلقد كانا كلاهما بعيدين تماما عن أن يكونا اجتماعيين، فمن جهة أمّى لم تكن لديها علاقات حميمة بالجيران، هذا يعود جزئيّا الى خوفها من الناس، والى طبع انعزالي أصيل فيها، وكذلك الى حدّ ما الى قدر من ضيق الأفق والتعصّب الدينى، إذ إن هذا الطبع الانعزالي كان أكثر وضوحا فى حالة الجيران المسلمين، عنه فى حالة الجيران المسيحيين، وحيث إن أولئك الأواخر قلّة فى السكّان، فقد كانت طباع أمّى الانعزاليّة أكثر وضوحا بشكل عام

كذلك كان ثراء والدي النسبي، أحد الأسباب الهامة في شعوري بالاختلاف، أتذكّر أنّه عند انتقالى فى السنة الأولى الاعداديّة، من مدرسة القديّس لويس الى مدرسة سعد زغلول الاعداديّة للبنين، أن جاء صباح أحد الأيّام الى فصلنا، رجل ومعه أوراق استبيان، قال إنها لعمل بحث

خاص بالظروف الاجتماعيّة لتلاميذ فصل المتفوّقين، وكان من بين البنود المطلوبة فى هذا البحث عدد أفراد الأسرة فكتبت (أربعة)، وكذلك عدد حجرات المنزل فكتبت (ثمان حجرات).

وبعد أن جمع الباحث أوراقه وغادر الفصل، عاد من جديد بعد حوالى ساعة ليدخل الفصل ويذكر اسمى فوقفت، سألنى عن المعلومات الواردة فى استمارتى، فأعدت ذكرها له، فسخر منى أمام الفصل كلّه قائلا (يعنى لكل شخص من أفراد الأسرة حجرتان)، فلم أعلّق، فقال (يعنى تقوموا ليلا أثناء نومكم ليغيّر كل منكم فراشه، وليذهب الى فراش جديد فى حجرة أخرى)، فضحك الفصل!

طبعا من الواضح جدّا أن هذا الشخص لم يكن يمت الى العمل الاجتماعى بصلة، وأعتقد الآن جازما أنّه كان يعمل فى المخابرات. كنّا خلال تلك الأعوام من منتصف الستّينات نعيش فى أجواء من الشك والارتياب، وكانت دولة المخابرات فى أوجها، مم دفع (باحثا اجتماعيا) الى السخرية من تلميذ بريء صادق. بعد ذلك لم يغفر لى زملاء الفصل تلك الهفوة، الّتى استمرّت مادة للسخرية منّى خلال سنوات المدرسة الاعداديّة.

(١٢)

كانت احدى شخصيات مجلة سمير للأطفال ذات تأثير هام جدا عليّ في طفولتي، وهي شخصية باسل، وكان الاسم متأثرا في تلك الفترة بالوحدة مع سوريا، مع ملاحظة معاني الشجاعة والاقدام التي يوحي بها الاسم. كان باسل كشافا، ولا أعرف ان كانت الحركة الكشفية لا تزال ذات تأثير قوي في حياة أطفال العولمة، ولكنها في نهاية الخمسينات كان لها وجود قوي.

كان باسل يخرج الى الصحراء مع زملائه، وهو يقود سيارة جيب، ثم يضربون الخيام بالقرب من بدو الصحراء، ويقطعون الطريق على عصابات تهريب المخدرات. لا يمكن تخيّل حجم السحر الذي أوحت به اليّ هذه القصة المصوّرة للأطفال. كنت أرى زملائي أعضاء فريق الكشافة، في ملابسهم الكاكي، في لون ملابس الجيش، والأشرطة الملونة الحمراء والخضراء تتدلى منها، والكاب فوق الرأس، ولكن هيهات أن تقتنع الست الوالدة.

أما شخصية (تم تم) أو بالفرنسية (تان تان)، فهي أكثر شخصيات مجلة ميكي للأطفال تأثيرا في طفولتي. هو فرنسي أو بلجيكي، لأن الرسام الذي ابتكره كان بلجيكيا، ولم نكن نعرف كم هو سنه بالضبط، لأن جسمه الصغير يمكن أن يجعلنا نعتقد انه ما زال في مرحلة المراهقة، خمسة عشر أو ستة عشر عاما، ولكن الغريب انه كان مستقلا في حياته، يسكن شقة

وحده، ويبدو انه كان يعمل صحفيا أو محققا خاصا، وينشغل طول الوقت بالكشف عن المجرمين، بجرأة وشجاعة نادرتين.

كان يعجبني جدا سفره الى كل بلاد العالم، بين قاراته المختلفة، حتى انه كان قد جاء الى مصر، يركب الجمال والأفيال، ويقود المراكب والطائرات. ثم معجزة الحوار الدائر دائما بينه وبين كلبه ميلو. الا ان الشيء المدهش فعلا هو عدم وجود والديه. كم حسدته على ذلك. لم يظهر والداه على الاطلاق في أي حلقة من حلقاته المسلسلة، كان بودّي لو تمكنت من سؤاله، عن الحيلة التي لجأ اليها من أجل تحقيق هذا الانجاز الهائل.

كانت هذه هي الشخصية التي أحلم بان أكون مثلها. الاستقلال التام عن السلطة الأبوية المقيتة، بل الاختفاء التام للوالدين، وعدم ورود أي ذكر لهما، ياه! يا له من حلم جميل. للأسف لم يتحقق لي الا مؤخرا جدا في حياتي، عندما كنت قد بلغت الثالثة والعشرين، الاستقلال التام أو الموت الزؤام. الحمدلله على أي الأحوال انه كان قد تحقق. يقول المثل الانجليزي late is better than never يا ساتر يا رب على العذاب الذي عشته. لا يمكن لأحد أن يتخيل حجم العبء النفسي الذي عانيته، بسبب والدين سيكوباثيين (سيكو بمعنى نفسي، وبات بمعنى مريض، أي ان العبارة بمعنى مريضين نفسيين)، والدان يشكان في نوايا كل البشر المحيطين بهما.

هي سليلة الحسب والنسب، الأرستقراطية المعذبة، وهو الدكتور العلامة نابغة عصره وزمانه، الذي لا يخطىء أبدا، ولا يحتمل أي مناقشة. بالاضافة الى ملاحقتي في كل وقت بالملاحظات والأوامر والنواهي، رغم

تفوقي الدراسي وطاعتي العمياء. كنت مقهورا تماما بدون أي حرية حركة على الاطلاق. يبدو ان هذا هو موضوعي الأثير الذي لا أمل من تكراره رغم اقترابي الحثيث من الستين. يبدو انني قد ورثت عنهما سيكوباثيتهما، أصبحت أنا الآخر سيكوباتي، وأعتقد ان مرضي هو الوسواس القهري، أم انه البارانويا؟ يجوز أنني مصاب بالمرضين معا.

كنت أحكي لأمي عن طفلة أحد أصدقائي البالغة من العمر عاما واحد، التي كادت أن تفقد حياتها بعد أن زحفت على رصيف بقالة في شبرا حيث تعمل الأم، واقتربت من الشارع، دون أن تدري الأم، وتم انقاذها في آخر لحظة قبل أن تدهسها سيارة. كانت هذه الحادثة السبب في طلاق صديقي وزوجته. علقت أمي (عشان تعرف ليه كنت بأخاف عليك). قلت في نفسي (يا له من افتراء وقلب حقائق وخلط أوراق)، لم تدرك أمي انها كانت قد استمرت في خوفها عليّ حتى بلوغي سن الثالثة والعشرين.

لا تعرف أمي انها كانت مثل الدجاجة التي تضع كتكوتها تحت جناحها لتحميه فتخنقه، لأنه عندما آن أوان خروجه من تحت جناحيها، كانت هي ما تزال مصرّة على ابقائه في مكانه. لم تعرف انه في مرحلة ما من حياته، ينبغي له أن يتعلم أن يعتمد على نفسه. كانت تكرر دائما تلك العبارة السخيفة الغبية، من أن الأولاد يظلون طول عمرهم أطفالا في نظر أمهم. ولا مانع لديها من أن يظلوا أطفالا كذلك في نظر الآخرين، حتى يكون ذلك مبررا لها أمام الجميع في استمرار سلطتها وسيطرتها. وبالمناسبة كان أبي هو الآخر يكرر دائما ان لا أحد يعرف مصلحة الابن أكثر من الأب.

(١٣)

يقول علماء الأمراض النفسية، ان الافراط في حماية الطفل، يكون سببا في اعاقة نموه الطبيعي، وان فرض قيود أمنية عليه، بدافع من الخوف على سلامته، قد يحرمه من ممارسة طفولة عادية. يقول (تيم جيل)، أحد خبراء تربية الأطفال، ان عدم السماح للطفل بأخذ زمام المبادرة والمغامرة، من شأنه اعاقة اكتساب مهارات مهمة، قد يحتاج اليها لاحقا في الحياة لحماية نفسه. ان التعرض لبعض الأخطار، وخوض غمار بعض المغامرات، ومواجهة بعض المشكلات العويصة، تتيح له اكتساب مهارة التكيّف، وتطوير روح المبادرة والاعتماد على النفس.

كنت موسيقيا في شارع الهرم، في الثالثة والعشرين من العمر، عندما استلمني أحد زملاء الفرقة، وظل يسخر مني بصورة متواصلة ضايقت الآخرين، أما أنا فقد استمر صمتي التام، مستمتعا باحساس الضحية الذبيحة الذي عانيت منه طوال حياتي، على الأقل حتى تلك المرحلة، لدرجة ان قال لي أحدهم (انت أخضر خالص، زي عود برسيم، أو أي خضّار نيّ، حاجة تقرف، انت ما اتعلمتش أي حاجة في حياتك، ماكانش فيه في حياتك أي تجارب ساعدتك في الحصول على بعض النضج؟ ايه فايدة بكالوريوس الطب؟).

صدمتني العبارة، لكن الواقع هو اني لم أكن أعرف كيف أصدّ هجوم الآخرين، وذلك بسبب استمرار فرط حماية الأم لفترة أطول من اللازم.

وقد علّق زميل آخر ضاحكا، تعليقا لم أفهمه في حينه اذ سألني (هوه كان فيه حد بيستلطفك وانت صغير؟). لم ينقذني منهم الا براءتي الحقيقة وجديتي في العمل، حتى في عزف الموسيقى.

وفي يوم الاثنين مرة كل اسبوعين، في ظلام مسرح مدرسة القديس لويس الابتدائية، كنا نشاهد فيلما عربيا حديثا، وهو حدث استثنائي جدا قبل دخول التلفزيون الى البيوت. حدث أن جاء أحد زملاء الفصل وجلس الى جواري، بعد أن طلب من التلميذ الذي كان الى جواري أن يترك مكانه، ثم بدأ في قرصي في أماكن مختلفة من جسمي، في فخذي وذراعي، وعندما لم أدافع عن نفسي بأي طريقة، شجّعته استكانتي على التمادي، فبدأ يخربشني بأظافر يديه في وجهي، وأنا مستمتع تماما بشعور الذبيحة، لم أفكر حتى في الصراخ للفت نظر المدرسين الى ما يحدث لي! لم أفكر حتى في تغيير مكاني! لم يكن في نيتي حتى أن أشتكي الى أمي وأبي! ولكنهما لاحظا الخرابيش!

على علماء النفس أن يقولوا لي الآن هل هذا شيء طبيعي؟ واذا لم يكن هذا طبيعيا، فلماذا لم يلفت انتباه والدي الحاصل على دكتوراه في الطب؟ لماذا لم يحاول والدي مساعدتي في التغلب على مشكلتي النفسية؟ لماذا كان والدي سلبيا الى هذا الحد في تربيتي؟ ثم يأتي السؤالان الهامان التاليان: هل لهذا التصرف من جهتي، صلة بتلك التعاليم المسيحية البالية الخاصة بمن لطمك على خدك الأيسر فأدر له الآخر أيضا؟ ثم هل تركت تلك الذكريات الأليمة أثرا في بقية حياتي؟ بمعنى آخر هل كان لسلوكي الخاص بتضحياتي المستمرة طوال حياتي تجاه الآخرين، والاستعداد

الدائم لتجاهل حقوقي، صلة مباشرة بطفولتي؟ ثم الأدهى. هل يكون الأمر قد وصل الى حدود المازوخية (الاستمتاع بتعذيب الذات)؟ السؤال مرة أخرى (هل ما زلت أستمتع بتعذيب الأخرين لي؟).

ذهب أبي معي صباح اليوم التالي الى المدرسة، الى مكتب المدير مباشرة، وذهبا هما الاثنان معي بعد ذلك الى الفصل، فأشرت اليهما وكلي قلق، على الزميل الجاني، ففوجىء أبي بأن هذا الزميل أصغر حجما مني بكثير، أقصر مني وأضعف، وحالته الصحية متواضعة جدا، مصابا بفقر دم وبأمراض الفقر الأخرى، وبدلا من أن تلفت هذه الظاهرة انتباهه، سخر مني أمام الجميع!!!! (يا سلام آدي التربية ولا بلاش) (يا فرحتي بالدكتوراه). اكتفى السيد الوالد بتأنيب زميلي، وتهديده بالضرب ان تعرّض لي بعد ذلك، وعلق الناظر هو الآخر بأسلوب غير تربوي بالمرة قائلا ان ملابسي الثمينة، وأقلامي الغالية، وحقيبة كتبي الجلدية، هي السبب في اثارة أحقاد وحسد التلميذ الجاني.

(١٤)

وقد عانيت معاناة حادة، حتى سن الثالثة والعشرين، من سلبيتي التامة في كل ما يتعلق بي، حتى المسائل الجوهرية في الحياة، مثل اختيار لغة أجنبية ثانية في بداية الصف الأول الثانوي، أو الاختيار بين القسمين العلمي والأدبي في نهاية نفس الصف، فرغم الموسوعية كان من الواضح ميلي الى مواد القسم الأدبي، ناهيك عن مسألة اختيار نوع الدراسة الجامعية.

عندما أتذكر مدرستى الثانوية، فان عامى الدراسى الأول بها يعيد إلى ذهنى صورتين اثنتين، الصورة الأولى هى صورتى وأنا أقف أمام مدرس اللغة الألمانية، تلك اللغة التى كانت قد أدخلت فى برامج المدارس الثانوية لأول مرة ذلك العام فقط، وحيث اننى كنت قد درست اللغة الفرنسية فى المدرسة الإبتدائية، ولم يكن هناك أى مبرر بأن أعيد دراسة هذه اللغة من الألف باء، فقد اتخذت قرار دراسة اللغة الألمانية كلغة ثانية خلال سنوات الدراسة الثانوية بدون أى تردد، إلا أن ناظر المدرسة كان قد اتصل بوالدى ليبلغه باختيارى للغة الألمانية، حيث إن موافقة وليّ الأمر كانت ضرورية.

عندما علم والدى بذلك رفض اختيارى، وطلب من ناظر المدرسة إضافة إسمى إلى قائمة اللغة الفرنسية رغم إرادتى، وعندما عدت ظهر ذلك اليوم إلى المنزل قال لى والدى (انت عبيط ؟ أنت لا تعرف أن الوقت الضائع فى تعلم اللغة الألمانية يمكن أن تستثمره فى دراسة العلوم والرياضيات وذلك حتى تضمن الحصول على المجموع الكافى فى الثانوية العامة لدخول كلية الطب). بعد مرور حوالى أربعين عاماً على ذلك الموقف، ما زلت أشعر بالندم والحسرة على رضوخى المطلق لإرادة والدى، وبدون أى محاولة للتمرّد عليه، أو للتعبير عن إرادتى مستعملاً فقط كلمة (لا)

أما الصورة الثانية فهى صورتى حينما أعلن، خلال ذلك العام الدراسى فى أولى ثانوي، عن مسابقة فى الأبحاث التاريخية لطلبة القسم الأدبى، أي لطلبة السنتين الثانية والثالثة أدبي، فذهبت إلى أستاذ التاريخ، لأقول له إننى طالب فى الصف الأول وأريد الاشتراك فى المسابقة، فسمح لى

بذلك. كانت حرية اختيار الموضوع متروكة للتلاميذ، وكنا فى العام الدراسى ٦٨-١٩٦٩، وقد اختار أغلب التلاميذ موضوعات ثورية عن عبد الناصر، وعن حرب السويس ١٩٥٦، وعن حرب اليمن، وتجنبوا تماماً الحديث عن نكسة ١٩٦٧، وقد اختار البعض الآخر موضوعات إسلامية عن عمر بن الخطاب أو عمر بن عبد العزيز

أما أنا فقد اخترت موضوعاً عن وجهة نظر الفيلسوف الإنجليزى (فرنسيس بيكون) فى أهمية دراسة التاريخ، وقدمته إلى المدرس فى عشر صفحات فولسكاب، ورسمت على الغلاف بيدى صورة للفيلسوف، وكنت قد استعنت فى هذا البحث بكتاب عن هذا الفيلسوف من تأليف عباس العقاد. قرأ مدرس التاريخ بحثي وأعجب به، وأعطانى عليه درجة تسعة من عشرة. فى العام التالى قابلنى هذا المدرس فى المدرسة ليسألنى (لماذا دخلت القسم العلمى وأنت أكثر استعداداً للقسم الأدبى؟)

في هذه الظروف النفسية، كيف كان لي أن أختار أي شيء، كان والدي قد قرر مبكرا مسألة دخولي كلية الطب. كان أبي يدخل حجرتي، ويقلب في الأوراق والكراسات والكتب على مكتبي، فاذا وجد مثلا المجلة الموسيقية (رتيبة الحفني/ ١٩٧٠) أو مجلة رسالة اليونسكو، يقول (بدل الركش ده، التفت أحسن لدروسك)، كانت هذه الجملة تشعرني بالاختناق، ولم أكن أعرف كيف أردّ عليه، فأنا الأوّل على الفصل، ثم يقول (وفّر عينيك لكتب الطب).

سأذكر لكم شيئا أخيرا عن أبي لتعرفوا شخصيته، عندما تزوجت من فرنسية، دون علمه، أول شيء فتح به ربنا عليه هو أن قال (أضعت

علينا النقطة التي أدفعها منذ سنوات. في حفلات زفاف المعارف والأصدقاء).

(١٥)

كانت طفولتي محاطة بالغموض الشديد، فمثلا (من هو كوكع هذا الذي مات أبوه؟ ولماذا لا يتركه الأطفال في حاله؟ ألا يكفيهم همّ موت أبيه؟)، وكنا في نادي طنطا الرياضي نجد القواقع عند برك المياه التي يخلفها ريّ الحدائق، ولا أعرف من أين كانت تأتي؟ ثم هناك لعبة (كلوا بامية/ مساعدة) فيقلب الأطفال أياديهم، ويخرج من اللعبة الأطفال الذين تكون أياديهم في وضع مخالف لوضع الأغلبية، وأعتقد اننا كنا نستعملها في لعبة الاستغماية. لم أكن أفهم جيدا صلة البامية بوضع الأيدي.

ثمّ (مافاتش عليكو الديب الديب الزحلاوي/ فات فات/ وفي ديله سبع لفات)، لماذا زحلة؟ وهي مدينة لبنانية؟ هل هذه اللعبة لبنانية الأصل؟ ومن هو ذلك الديب الذي يحمل لقبه مشتقا من اسم المدينة؟ كان تأثير شوام طنطا واضحا في بعض غناء أطفال نادي طنطا، قبل الهروب الكبير لكل شوام المدينة بعد تأميمات الستينات. (خواجه جبور الو (له) بستان/ والبستان دا فيه جزرة/ حبوا يخلعوا الجزرة/ مانخلعتش/ جت امه/ حبوا يخلعوا الجزرة / مانخلعتش/ جه بيو(أباه)/ حبوا يخلعوا الجزرة مانخلعتش/ جه خيو...../ جت ستو.....) وهكذا جاء كل أفراد العائلة، الا انهم يفشلون جميعا في خلع الجزرة. هل بهذه الأغنية تلميحات جنسية؟

كانت أغنية فايزة أحمد (خاف الله/ في حوالي ١٩٦٢) تذاع في الاذاعة الداخلية للحفل، المقام في منتزة المدينة، لسبب أو لآخر، وقد تضمن الحفل كذلك معرضا لنواة متحف العلوم بطنطا، وبه برطمانات يحتفظ بداخلها بأجزاء من الجسم البشري محنطة، مثل القلب والرئتين والكبد والكليتين. بعد ذلك بعشرة أعوام كنت كلما دخلت مشرحة كلية الطب، استمعت في خيالي، قادمة من مكان مجهول، الى نفس تلك الأغنية! يا لألاعيب الذاكرة. والقائمة طويلة.

ثمّ خلال العام الذي ظهرت فيه أغنية الأطلال لأم كلثوم (١٩٦٦)، كنا نستأجر شقة في ميامي بالأسكندرية، وندفع كل يوم بعد الظهر قرش صاغ واحد في تذكرة أوتوبيس الى شاطىء المعمورة، وثلاثة قروش مقابل استئجار مضرب وكرة للعب الجولف، من نوع الحفرات المتعددة (هل كانت ١٨ حفرة؟)، التي تسبقها عوائق، كأن تكون الحفرة في نهاية مجرى حلزوني أو في قمة جزء مرتفع من الأرض، وكان صاحب المكان يذيع أغنية الأطلال طول الوقت. الآن وكلما استمعت الى (يا فؤادي لا تسل أين الهوى/ كان صرحا من خيال وهوى)، تأتي الى الذهن فورا حفرات ملعب الجولف.

ثمّ الأغاني المصوّرة تلفزيونيا، فلمن هم في مثل سني، كانت تلك الأغنيات هي باكورة انتاج الفيديو كليب، مثل أغنية شادية (مين قال لك تسكن في حارتنا) التي تقول فيها (ييجي أبويا يعوز فنجان قهوة/ أعمل له شاي وأديه لأمي/ وخيالك ييجي على سهوة/ ما فرقش مابين خالتي وعمي)، لم أعرف أبدا سبب اعجابي الشديد بهذه الفقرة، الا اذا كان

السبب متعلقا بالخلط بين الأب والأم؟ ناهيك عن غموض كلمة حارتنا.

(رزق الله عالعربيات / وعايام العربيات/ من بيت جدي لبيت ستي/ يبقوا يضلوا تلات ساعات/ عربية جدي لونين/ وكانوا يجروها حصانين/ يا مشاوير حلوة كتير/ يضلوا عمرن عالساحات) هدى حدّاد/ برنامج ضيعة الأغاني/ من التلفزيون اللبناني/١٩٦٨ كلمات مثل المختار (العمدة)، والست الختيارة (المحببة). مع فيروز ونصر شمس الدين والرحبانية. كانت مفاجأة جميلة لنا من التلفزيون المصري في ذلك الوقت الحزين، بعد ١٩٦٧، أن نشاهد هذا البرنامج كل أسبوع لمدة حوالي عام كامل.

أما نادي الشبيبة في طنطا، فكنا نسميه أيضا نادي الشوام، حيث كان يمكنني أن أجد عددا من زملاء مدرستي الابتدائية، الذين كانوا يحملون أسماء مثل يارد وصايغ وجبور وفركوح. كنت أحبهم، وكنت أعتقد منذ ذلك الوقت، انهم أفضل من المصريين، ودليلي على ذلك، ليس فقط الثقافة الفرنسية التي كانت، وما زالت في عرفي، هي مرادف الثقافة الحقيقية، وانما كذلك بيت جيراننا الشوام، الذي كان دائما هادئا ومنظما ونظيفا، تفوح منه روائح الثقافة والرقي والتحضر، رغم ان منزل عائلتي كان لا يقل ثراء عن منزل الجيران. ما السرّ في هذا التميز؟ هل السبب هو كونهم أقلية أجنبية؟

كان شوام طنطا يعملون في المهن الحرة، فمنهم أصحاب المحلات التجارية، ومنهم أصحاب المدارس الخاصة، وكذلك بعض المحامين والأطباء. وكانت مهنة الجار هي العمل في محلج القطن، حين كان حلج

القطن يتبع القطاع الخاص، وكانت مهنة تجارة القطن الخام، تدرّ أرباحا كبيرة، وكانت كل مدينة من مدن الدلتا بها بورصة قطن، تعرض أسعار الأقطان بأنواعها المختلفة. أممت هذه الصناعة في ١٩٦٢ فغادر جيراننا الشوام طنطا، وذهبوا للاقامة في الاسكندرية، لم تكن أحوالهم سيئة، اذ كانت لهم عمارة سكنية في كليوباترة على البحر

الا ان المطاردة المستمرة للقطاع الخاص في الستينات، أخافت كل الأقليات العربية والغربية، أنظروا مثلا رواية (طربوش / روبير سوليه)، الذي يحكي كيف اضطروا في ذلك الوقت أن يعودوا الى لبنان، بعد أن كان قد هجره أباؤه قبل قرن من الزمان، ثم ذهبوا الى باريس. أما أبناء الجار الذين كانوا من سني فقد تعلموا الدرس، مصر ليست بلدهم، الآن (٢٠٠٩) أحدهم يعمل مهندسا الكترونيا في أمريكا، والثاني طبيبا في مستشفى فرنسي، والثالث رجل أعمال في أستراليا. تكفلت سياسات الستينات العمياء بالاطاحة ببشر أحبوا مصر هنيئا لمصر ملايين الكسالى والعابثين الذين بقوا فيها.

أما أنا فكنت مغرما بفتياتهم، رغم خجلي وانسحاقي، كنت أحضر حفل الكرمِس في مدرسة نوتر دام ديزابوتر (العذراء سيدة الرسل)، وفي بالي الفرجة على الفساتين الملونة التي تطير في الهواء، والشعور الطويلة التي تترك حرة، والعيون الجريئة.

(١٦)

التعتيم الاعلامي هو السياسة الرسمية، التي كان والداي يتبعانها معي، فكل شيء مبهم وغامض تماما. في الخامسة عشرة سألت أبي عن معنى كلمة التناسلية، الواردة في الكارت الشخصي الذي يستعمله، ويقول فيه انه أخصائي المسالك البولية والتناسلية، فقال (لما تكبر حا تعرف). أما أمي فقد منعتني من مشاهدة فيلم (شباب امرأة)، وكنت في السادسة عشرة من عمري، وكان الفيلم في البرنامج المسائي للقناة الأولى في التلفزيون المصري، الساعة العاشرة مساء يوم خميس، حين كان التلفزيون يتكون من قناتين اثنتين فقط لا غير، تنهيان برامجهما في منتصف الليل،

فمع التيترات الأولى للفيلم قالت أمي (ناجي روح نام)، قلت مستعطفا (اليوم الخميس) قالت (ناجي روح نام، بدون مناقشة). جدير بالذكر انني لم يكن مسموحا لي بالبقاء مستيقظا بعد العاشرة مساء، الا يوم الخميس، وقد استمر هذا النظام حتى سنة الثانوية العامة، التي سمح لي فيها بالبقاء مستيقظا بعد العاشرة مساء فقط للمذاكرة، سألت أمي (لماذا أنام مبكرا واليوم الخميس؟) قالت (بدون لماذا)... يا سلام على التربية.

اذن فان الملمح الأول في تربية أبي وأمي لي هو التعتيم. أما الملمح الثاني فكان بكل ألم، هو اللامبالاة العاطفية. البرود التام من كل منهما تجاه الآخر، ومنه هو تجاه ولديه. أولا أنا لا أتذكر اطلاقا أن أبي قد قبّل

أمي أمامي في يوم من الأيام، مهما كانت المناسبة، أو حتى أخذها في حضنه بدون تقبيل، أو أمسك بيدها وهما يمشيان معا. حتى ألبوم الصور الذي يعود الى زمن سنوات الزواج الأولى، لم أجد فيه صورة قبلة واحدة.

كانت لدينا في الطفولة شغالة ريفية أميّة تقول (الراجل السمباتيك يقابلني في الرنديفو يمسكني أنججيه من ذراعي)، هذه هي عقلية فتاة ريفية لم تتعلم، أما الحاصل على الدكتوراة، فلا يصح أن يظهر عواطفه تجاه زوجته وأبنائه، عيب، حرام!! ودليلي على ذلك هو ألبوم الصور العائلية لسنوات طفولتي، اذ ان الصور الوحيدة المتاحة لي من طفولتي، هي الصور التي أخذها لي الأصدقاء والأقارب، أما هو فلم يكن يهتم بتسجيل نموّ أبنائه في صور.

حتى سن الثامنة عشرة كنت أعيش في عزلة شبه تامة، معتقدا ان كل خطاياي مغفورة لي، بشرط تفوقي الدراسي، طبعا الخطايا من نوع الخجل وقلة الحيلة والسذاجة. حتى ذلك السن، وحتى بعد دخولي العام الأول في كلية الطب، لم أكن متأكدا ان كانت الفتحة التناسلية للأنثى بطول الجسم أم بعرضه. أما عضوي التناسلي الذكري فكنت أجهله تماما، لم ألمسه اطلاقا، اطلاقا، حتى سن الثلاثين. كان لدينا أب اعتراف في الكنيسة، وكان هناك كذلك المرشد الروحي في مدارس الأحد، وكلاهما كانا يقولان، انه عند الاستحمام يجب ألا تنظر الى نصفك الأسفل الذي تسكنه الشياطين. وكنت متأكدا تماما انه لن يحدث لي أي انتصاب في حياتي (بلاش قلة أدب).

حتى جاء اليوم الذي شاهدت فيه موسيقيا زميلا يحكي أمامي لزميل آخر، كيف ان والده فاجأه في الحمام وهو (يضرب عشرة)، ويقوم في نفس الوقت بأداء حركة غريبة بقبضة يده عند أسفل بطنه، لم أفهم معناها بالضبط، وان تولد لدي الشك في أن هذه الحركة لها ارتباط ما بالكلمة الانجليزية التي قابلتها في كتب الطب (استمناء/ masturbation). عدت ذلك اليوم الى المنزل، وقررت لأول مرة في حياتي أن أجرّب هذا الشيء، المعلّق أسفل بطني، الذي كنت أعتقد لفترة طويلة من عمري، انه مرتبط فقط بالتبوّل. أؤكد لكم أنني كنت في الثلاثين من عمري، وحاصل على بكالوريوس طب. لا شك في ان هناك من لا يصدقني. لم يجرؤ أحد من أصدقائي خلال ثلاثين عاما، أن يتحدث معي بصراحة في هذا الموضوع.

مؤخرا وأنا في الخمسين، وفي منزل أحد الأصدقاء المصريين المتزوج من فرنسية، كان هناك قط وقطة، وخطر للقط أن يمارس حقوقه الطبيعية مع القطة التي لم تمانع. كنت أريد أن أتوارى خجلا، عندما جاءت أم فرنسية، بابنتها نصف الفرنسية نصف المصرية، لتشرح لها على الطبيعة، العملية التي تحدث بين القطين. هذا يسمى في العالم المتحضر حق المعرفة. لم تهرب الأم من المواجهة، ولم تخجل الطفلة. ثم ان هذا هو أحد أهم قوانين الطبيعة، التي لا يستطيع انكارها أي مخلوق حي، حيوانا كان أو انسانا.

(١٧)

أولى ذكرياتى الجنسيّة تعود الى سن السادسة. كانت أمّى تستعين فى المنزل بخادمتين احداهما للمطبخ، والأخرى الأصغر سنًا للذهاب الى السوق ولنظافة المنزل، وكانت فتاة ريفية في حوالي السابعة عشرة من عمرها. من عادة أمّى وأبى النوم ساعتين بعد الظهر صيفا وشتاء، ومن عادة الخادمتين هما أيضا النوم خلال نفس الفترة فى حجرة الطعام، وتقع مع المطبخ وحمام صغير فى الطرف الآخر من الشقّة، ويفصلها عن حجرة نوم والدتي، ممر وصالة وباب الشقّة.

حدث ذات يوم أن خرجت من حجرتى الّتى أنام فيها مع أخى الأصغر سنا، وكنّا فى فصل الصيف، في يوم شديد الحرارة، وكنت أريد أن أشرب من الماء البارد فى الثلاّجة الّتى تقع أمام حجرة الطعام. عندما وصلت الى هناك سمعت صوت الخادمة الصغيرة يناديني (سى ناجى يا ناجى بيه)، ففتحت الباب ودخلت.

كانت الخادمة الكبيرة تنام الى الجهة الأخرى من مائدة الطعام الخشبيّة الضخمة، أمّا الصغيرة فكانت تنام أسفل المائدة، خلف صف كراسى المائدة لانرى منها شيئا، وفجأة ظهرت يدها ثمّ ذراعها الّذى سحبنى بقدر من العنف الى أسفل المائدة. كانت قد حلّت ضفائر شعرها، وجلبابها المنزلى مبللا بالعرق. شعرت بأنفاسها الحارة وهى تضمّنى اليها لتقبّلنى، ثمّ وضعتنى على بطنها، ثمّ على أسفل بطنها وهى تحيط جسمى الصغير

بفخذيها، ثمّ رفعتنى من جديد ووضعتنى جانبا، ورفعت جلبابها الخفيف المبتل الى أسفل ذقنها، فرأيت ثدييها لأنّها لم تكن تضع حمّالة للصدر، وازداد اهتمامى بما تفعل، فاقتربت من الثديين أنظر الى جلدهما الناعم، والى حلمتيهما الداكنتى اللون، ثمّ من جديد وضعتنى جانبا، وسحبت سروالها الى طرفى قدميها، ثمّ تخلّصت منه، ثمّ وضعتنى من جديد فوقها، ولكن هذه المرّة فى منطقة أسفل البطن، وحصرتنى بين فخذيها بقوّة وعنف حتّى شعرت بالألم ولكنّى لم أنطق، كنت أشعر بلذّة غريبة، تختلط برائحة عرقها، وبملمس جلدها اللزج الناعم، وبخشونة شعر أسفل العانة.....

وفجأة سمعنا صوت أمّى تنادى على هذه الخادمة، كأنّها وهى فى حجرة نومها كانت قد شعرت بحاستها السادسة باقبالى على تجربة مثيرة، فنفضتنى الخادمة عنها فوقعت عند قدميها، وجرت لتلبية نداء أمّى الّذى تكرر مقتربا من حيث كنّا، فاختبأتُ خلف صف كراسى مائدة الطعام، وقلبي يدق بعنف شديد، خوفا من التعذيب، أو على الأقل من التقريع. كان ذنبي جليا واضحا. سمعت صوت دخول أمّى الى الحمّام، فانتهزت الفرصة لأعود الى فراشى دون أن تدرى. كنت أرتجف من القلق والخوف. كان صوت أمّى وحده كافيا لتخويفى، لكم كرهتها فى تلك اللحظة، ولكم أخافتنى طوال طفولتى ومراهقتى (الّتى لم تكن بها أيّة مراهقة والعياذ بالله) وبداية شبابى، ليس فقط بصوتها، وانّما كذلك بنظراتها وملامح وجهها وعلامات الاستنكار البادية عليه، والشهقات المريعة التي كانت تطلقها كلما أرادت أن تخيفني.

أتذكّر مرّة كنت أقرأ فى كتاب استعرته من مكتبة المدرسة الاعداديّة، حين كنت فى حدود الرابعة عشرة، وبدأت أدخل فى مرحلة مايسمّيه سلامة موسى (الهلع الثقافى)، فكنت أقرأ فى كل شىء، بل انى كنت قد قررت أن أقرأ كل كتب المكتبة، دولابا دولابا، الاّ أن الكتاب الّذى كان فى يدي ذلك اليوم، كان يحمل العنوان المثير التالى (أغانى العشق والغرام) بخط واضح، ثم بالبنط الصغير أسفل العنوان هناك سطر يقول (لدى قدماء الاغريق والرومان)، والغلاف يدل على أن هذا الكتاب طبعته سلسلة محترمة هى (الألف كتاب)، الا أن أمّى لم تكن تعرف الألف كتاب، لم تدرك من كل ذلك الاّ العشق والغرام، فشهقت شهقة مريعة، وخطفت من يدى الكتاب بطريقة هستيريّة، صائحة بأعلى صوت (ياقليل الأدب..... يا قليل الأدب)، بعد ذلك فى كل مرّة كانت أمي تدخل فيها حجرتى بطريقة تجسّسيّة تلصّصيّة، أرفع يدى سريعا بالكتاب لتقرأ عنوانه، وتتأكد بنفسها من أنّه ليس من الكتب الخارجة عن الآداب العامة.

نعود الى قصّة الخادمة الصغيرة لأقول أنى كنت قد استيقظت بعد تلك الحادثة المذكورة أعلاه ذات يوم، على بكاء تلك الخادمة ونحيبها، فغادرت فراشى وحجرة نومى الى الصالة أمام باب الشقّة، لأجد الخادمة واقفة على الباب وفى يدها بقجة ملابسها، وأمّى تصرّ على طردها واعادتها الى قريتها، مع الفلاّحة الّتى كانت قد أحضرتها من قبل، وكانت تلك الفلاّحة تأتى الى أمّى على السلّم، لتبيع لها بعض منتجات الأرياف، ولم أفهم سبب الطرد، ولم أجرؤ على السؤال. هل علمت أمّى بما حدث منها أسفل مائدة الطعام؟ أم أن هناك سبب آخر للطرد؟ هل حاولت اغواء أبى؟

أريد أن أقول لأمّى أنى سأظل ربع قرن من الزمان (وكم فى عمر الانسان من أرباع القرون؟)، أبحث دون جدوى عن لحظات المتعة تلك المبتسرة المفقودة، متعة لمس وشم جسم فتاة فى السابعة عشرة من عمرها، سأظل ربع قرن أدور فى الشوارع والحوارى والأزقّة، وفى المحلاّت والمقاهى والمطاعم، وفى أسواق المدن والقرى والدساكر، ولا أجد. لا أجد فتاة فى كرم تلك الّى كانت على وشك أن تهبنى نفسها دون مقابل، بمنتهى الكرم والسخاء، وبدون أيّة قيود أو شروط، وهو ما لم يحدث لى أبدا بعد ذلك، إذ كان هناك دائما بعد ذلك الكثير من القيود والشروط.

هكذا قال لى كل أصدقائى، سواء من عاش منهم فى الريف أو فى المدن، قالوا (ان البداية كانت دائما فى سن السابعة أو الثامنة، غالبا مع فتيات الخدمة فى المنازل، وأحيانا مع جارة مطلّقة أو أرملة، بداية اكتشاف الجسم الانساني، واكتشاف أعضائه الجنسيّة الذكريّة والأنثويّة) ويضيف الأصدقاء (ان الأمّهات فى أغلب الأحوال يعرفن، ولكنّهن يسكتن)، وأضيف أنا بينى وبين نفسى فى حوارى الداخلى المستمر (الاّ أمّى/ هيهات وألف هيهات/ كيف لسيدة الفضيلة والأخلاق أن تقبل بهذا الانحطاط؟) ان الفرصة الوحيدة الّتى كان يمكن لانسان مثلى، قبطى ومن أسرة متزمّتة، أن يحصل فيها على فتاة فى سن السابعة عشرة، هى عندما يكون هذا الانسان فى سن السادسة أو السابعة.

(١٨)

ثمّ تأتى ذكرى تلك الأجازة القصيرة مع أسرتى فى فندق البوسيت بمرسى مطروح، لمدّة أسبوع واحد فى صيف سنة ١٩٦٥، وكنت ناجحا فى الشهادة الابتدائيّة بمجموع كبير، وأشعر بزهو عظيم، ولكن سعادتى بذلك الأسبوع كانت أكبر من سعادتى بالنجاح، وسعادتى بذلك الأسبوع كانت بفضل لحظات معيّنة فيه لم تتعدَّ الدقائق العشر. وذلك حيث إننا كنّا قد ذهبنا الى هناك وبصحبتنا ابنة خال أمّى، وهى فتاة جميلة فى العشرين من عمرها، تربّت فى الفرنسيسكان ثمّ دخلت الجامعة الأمريكيّة بالقاهرة، وكانت أكثر ميلا الى الطباع والعادات الغربيّة، ثمّ أنّها كانت كذلك ذات شخصيّة مستقلّة بفضل انفصال والديها، وضرورة اعتمادها على نفسها منذ سن مبكر.

كانت ديزى تجلس الى جوارنا على رمل الشاطىء، ونحن نجلس تحت الشمسيّة نحتمى بها من أشعّة الشمس، أمّا هى فكانت تبقى تحتِ الشمس، وكنت لأوّل مرّة أسمع عبارة (حمّام شمس). كنت أريد أن أبقى الى جوارها الاّ أن أمّى كانت تمنعنى. وكانت طقوس ذلك الحمّام تتكون من: ذهابنا أنا وأمّى وأبى وأخى الى الشاطىء / ديزى تلحق بنا الى الشاطىء / ديزى تخلع البرنس الخفيف لتظهر بلباس الاستحمام / ديزى تفرد منشفة الاستحمام على رمال الشاطىء الى جوار الشمسيّة / ديزى

تجلس على المنشفة الى جوار الشمسيّة / ديزى تخرج من حقيبة يدها رواية (ريبيكا) من تأليف (دافنى دى موريبه) / ديزى تخرج من حقيبتها زجاجة بلاستيكيّة بها سائل لزج القوام / ديزى تدعك قدميها وفخذيها وذراعيها بهذا السائل / ديزى تستدير فى مكانها وتطلب منى أن أساعدها فى دهان كتفيها والجزء المكشوف من أعلى ظهرها.

وكانت تلك هى اللحظة الموعودة، اذ أنتفض من مكانى لأكون الى جوار ديزى فى قفزة واحدة، لتضع لى فى يدى قطرات من السائل اللزج القوام، أدعك به باطن يديّ الاثنين، وأتخذ وضع الاستعداد على ركبتىّ الى جوار ديزى، ثمّ أبدأ فى تمرير اليدين على الكتفين وأعلى الظهر، واذا أعاقت حمّالتى الكتفين تلك العمليّة كان من حقّى ازاحتهما جانبا مؤقتّا، لحين الانتهاء من المهمّة المطلوبة منّى.

وبعد عودتنا من مرسى مطروح الى طنطا، وخلال شهور الصيف الطويلة، كنت أقضى كل يوم ساعات طويلة، فى تخيّل ديزى، واستعادة الموقف فى الذاكرة، واضافة تفاصيل جديدة اليه، مثل تخيّل خلع لباس البحر كلّه بدلا من الاكتفاء فقط بخلع حمّالتى الكتفين. ولكن أرجو ألا تسيؤوا الظن بي، فأنا لن أكتشف العادة السرية الا بعد ذلك بكثير، كما ذكرت في فصل سابق، اذن فان متعتي باستحضار تلك الصور، كانت متعة جمالية فنية بحتة، لكم أن تصدقوا أو تكذبوا ما أحكيه لكم فأنتم أحرار.

كما أنى ذلك العام فى مطروح كنت قد رأيت لأوّل مرّة فى حياتى المايوه البكينى ذا القطعتين، وكان الفندق يغصّ بالشوام، حيث ان صاحبه كان شاميّا، وكانت الفتيات والسيّدات الشاميّات يتمتّعن فى تلك الفترة،

بحريّة فى عرض أجسامهن، أكبر من تلك الّتى كانت متاحة للمصريّات، وكانت حجرتنا بالطابق العلوى بالفندق، تطلّ على المكان الّذى كنّ يمارسن فيه طقس (حمّام الشمس)، فمن يقف فى نافذة الحجرة، يستطيع أن يرى كلّ شىء تقريبا، الا أن المطاردة البوليسيّة الدؤوب لأمّى كانت تقضى على أيّة محاولة للاستمتاع.

(١٩)

ليس هذا فقط بل حتّى المتع البريئة كانت تحرمنا منها ، ففى نهاية الأسبوع الّذى قضيناه فى البوسيت، وحسب عادة الفندق، أعلنت الادارة عن اقامة حفل خاص بالشباب بين العاشرة والعشرين من العمر، وبدون مصاحبة الأهل، فقط الشباب، ولكن طبعا هيهات (وألف هيهات) أن توافق الأم، كيف لها أن توافق على هذا الفساد؟ خاصة بعد أن عرفت أن الحفل لن يقام فى الفندق، وانّما فى الديسكو (وكنّا نسمّيه الستريو) أعلى التل. أتذكّر لحظة اعلان هذا النبأ فى المطعم كيف هاص الشباب، وكيف نظرتُ الى أمي مترددا خائفا خجلا من نفسي، فنظرتْ أمّى اليّ باستنكار، لمجرّد أننى كنت قد أدرت اليها وجهى أستطلع رأيها.

أنا أعتقد ان أمّى كانت تخاف من الناس، وبالتالى كانت تتجنّب كل المواقف الّتى قد تؤدّى الى احتكاكها بالناس، أمّهات الأطفال الآخرين مثلا، فان ارسال أطفالها الى حفل به أطفال الآخرين، كان يستلزم منها قدرا من الاجتماعيّة لم يكن متوفّرا لها، وهكذا بدلا من دخولها فى

صراعات نفسيّة، كان من الأسهل عليها منع أطفالها من الاختلاط بأطفال الآخرين (ويا دار ما دخلك شر).

ثمّ إنّ أمّى كانت فى حقيقة الأمر مسكونة بقدر لاحصر له من المخاوف غير المبرّرة، مما أدّى الى حرماننا أنا وأخى من قدر كبير من تجارب الطفولة البريئة والمفيدة. ففيما يتعلّق مثلا بألعاب الشاطىء، كانت مسألة لعب كرة المضرب (الراكيت) مسألة فى غاية الخطورة، بل انّها فى نظرها كانت لعبة مميتة، لأن الكرة يمكن أن تصطدم برأس اللاعب فتقتله، ثم ان مسألة الذهاب لصيد السمك بالسنانير هى الأخرى مسألة فى غاية الخطورة، فان الشص المعدنى بالسنّارة (الخطّاف الّذى يتعلّق به الطعم) يمكن أن يخترق الجلد فى أى مكان، ولا يخرج منه أبدا بعد ذلك (الا بالطبل البلدي).

والأمثلة على شخصيّتها الهستيريّة الوسواسيّة عديدة، مثلا عندما طلبت منها ذات مرّة، وكنت فى الثالثة عشرة من عمرى الاشتراك فى معسكر كشّافة بفناء مدرسة سعد زغلول الاعدادية، رفضت بحجّة أننا سننام فى خيام فى الفناء، وأن هذه الخيام ستكون مصنوعة من القماش، وأننا لنستدفىء فى برد الشتاء سنكون مضطرّين الى اشعال النار، وأن هذه النار ستكون شديدة فتصل الى قماش الخيمة، وأننا فى هذه الحالة لابد وأننا سنموت محترقين، ولم تكن هناك أيّة جدوى للمناقشة.

وهكذا كنت قد بدأت الدخول فى ذلك السن، حوالى الثالثة عشرة، فى مرحلة الاستكانة الكاملة، والانصياع المطلق، والطاعة العمياء، والخضوع الذليل لسيطرة وارادة أمّى وأبى، وهى تلك المرحلة الّتى ستستمر حتّى

حوالى سن العشرين، ثم ستستغرق منّى حوالى عشر سنوات أخرى لأتخلّص من تبعاتها، فمن سن الثالثة عشرة وحتّى سن العشرين لم أثر أبدا عليهما، بل حتّى لم أعترض أبدا على أى قرار اتّخذاه بشأنى، بل حتّى فى بعض الأحوال لم أتمكّن حتّى من ابداء الرأى فى مسائل مصيريّة فى الحياة، مثل اختيار نوعيّة الدراسة الثانويّة، أو حتّى اختيار نوعيّة الدراسة العالية، وبالتالي كنت فى نظرهما ابنا مثاليًا.

كنا نستأجر شقة فى شاطىء ميامى، وكنت أجلس فى الشرفة فى الأمسيات ألعب موسيقى على الجيتار، وجاءت عديلة (الفتاة الريفية التى كانت تعمل لدينا شغالة) لتقول لى أن فى الطابق الأسفل، استوقفتها ابنة أصحاب الشقة لتسألها عن موسيقى الجيتار التى تسمعها آتية من شرفتنا، وعمّن هو هذا العازف المجهول؟؟ وقد ذهبت عديلة أولاً الى أمى لتخبرها بذلك، حيث إن عديلة كانت قد أدركت مدى سيطرة أمى على المنزل عامةً، وكذلك علىّ أنا بصفة خاصة... أمى أمرت عديلة بعدم ابلاغى بهذا الخبر (ويا دار ما دخلك شر).

إلا أن عديلة الكريمة النفس الأبية، رفضت هذا الظلم البيّن الواقع علىّ، فجاءت لتخبرنى بما حدث، ولتبلّغني برسالة الجارة وبرغبتها فى رؤيتى، ليس هذا فقط بل ان عديلة كانت قد طالبتنى بضرورة أن أثور على أمى، وبأن أضع حدّاً لتدخلها فى حياتى.

ولكنى لم أفعل أى شىء... لا سألت فى الفتاة، ولا حتى ثرت على أمى... بل على العكس اذ بدلاً من التمرّد فقد زاد الانصياع، وبدلاً من أن تكون لى مجموعة من الأصدقاء أخرج معهم، كنت أكرّس كل وقتى

لأمي. كان أخي الأصغر دائم السخرية مني، وكنت أتقبل هذه السخرية بصدر رحب، متخيلا نفسي شهيد الواجب...فأنا أضحّي بنفسي في سبيل سعادة أمي....؟؟؟ كنت في الخامسة عشرة من عمري مسالما جداً، لا أنشغل في حياتي الا بالمذاكرة في أثناء العام الدراسي، وبالقراءة وعزف الموسيقى وحفظ رباعيات الخيام عن ظهر قلب (لبست ثوب العيش لم أستشر / وحرت فيه بين شتى الفكر....الخ) في أثناء الاجازة الصيفية.

(٢٠)

كانت هناك بعض الأعمال الأدبية التي وقعتُ عليها بالصدفة البحتة، وتمكنتْ من فتح عينيّ على العلاقات بين الرجال والنساء، مثلا في سلسلة (كتابي) لحلمي مراد، التي كانت تصدر شهرية خلال الستينات، وجدت ذات مرة قصة للأديب الياباني (يوكي يو ميشيما)، تدور حول صائدي اللؤلؤ، حيث يتابع الشاب الفتاة بنظراته، أينما ذهبت، اذ انه معجب بحلمتيْ ثدييها، ويقول في نفسه (ان الشائعات التي تقول ان الفتاة تعبث مع الشباب شائعات ظالمة، اذ لا يمكن لفتاة لها هذا الجمال والطزاجة، أن تكون مادة عبث للفتيان).

فهمت طبعا من النص أن الفتيات يسبحن في الماء بحثا عن اللؤلؤ عاريات الصدور، لا تسألني لماذا، المهم يقرر الشاب أن يتخذ خطوة ايجابية، فينتظر الفتاة في نهاية النهار، خلف الصخور في مكان منعزل في طريق عودتها الى منزلها، ليجذبها من ذراعها الى داخل أحد الكهوف،

ويكمّمها بقبضته حتى لا تصرخ، ثم عندما يكونان داخل الكهف بمسافة تكفي لعدم سماع الصراخ، يحرر فمها، وينزع عنها ملابسها بالقوة، وملابسه كذلك، ويفرش الملابس على الأرض، ليناما عليها، الا ان الفتاة تتملص وتقاوم بعنف، لا يسمح له باتمام ما كان ينتويه. لكم سرحت بخيالي مع هذا المنظر، أنا الفتى الياباني، والجزيرة معزولة تماما عن الآخرين، ثم الكهف العميق، أو بالأحرى الكهفان العميقان.

ثم وجدت في المكتبة القومية، وكانت تسمى (دار القلم)، في نفس ذلك الوقت حوالي ١٩٦٩، الرواية الأولى لعبد الحكيم قاسم، (أيام الانسان السبعة)، التي تصف الأسبوع الذي تقضيه أسرة الراوي، كل عام، في مولد السيد البدوي بطنطا. وكانت نساء الأسرة قبل السفر، ينشغلن باعداد الطعام الذي ستأخذه الأسرة معها الى المولد. في أحد فصول الرواية، نرى البطل (ابن الأسرة) يتابع فتاة (خدّامة/ شغالة) بعينيه، وهي تعجن الدقيق استعدادا للذهاب به الى الفرن، وكانت الفتاة ترتدي جلبابا ممزقا، ولا تضع أسفله مشدّا للصدر، فكان الشاب يرى أحيانا حلمتيها، ولم تكن الفتاة تهتم باخفائهما!

عندما يتم تكليف هذه الفتاة بالذهاب الى المخزن في فناء الدار الريفية، ينزل خلفها الفتى، ويدخل خلفها الى المخزن، ويكمّمها كما فعل الفتى الياباني، وينزع عنها الجلباب، وعندما يحاول نزع السروال تتملص الفتاة، مثل الفتاة اليابانية، وتدفعه عنها بقوة لا يعرف الفتى من أين أتتها. المنظران في الروايتين متشابهان جدا، فالانسان هو الانسان في أي مكان. كنت أتخيّل نفسي في محل الفتى. سألت أمي لماذا لا نخبز في المنزل؟

(٢١)

قيل لي انني عندما كنت في السادسة أو السابعة غنيت (حبّك نار) لعبد الحليم حافظ، وكان لدى خالتي بيانو تعزف عليه (أهواك وأتمنى لو أنساك)، وكنت أغنيها معها، كل هذا يمكن تصديقه، فأنا من هذا الجيل، أما أن يقال لي انني كنت أغني لأم كلثوم (الموجة تجري ورا الموجة عايزة تطولها)، كما كانت جدتي تؤكد لي، فهذا هو ما لا أجد له أي صدى في ذاكرتي.

كان يلفت انتباهي جدا، في أغنية (ساكن قصادي وبحبه) لنجاة الصغيرة، صوت آلة الكونترباص التي تعلن بوضوح شديد عن القلق القادم، بجملة تتكرر بغلظة، قبل عبارات (وفي يوم صحيت/ على صوت فرح/ بصيت من الشباك/ زينة وتهاني / وناس كتير/ جايين هنا وهناك)، كنت قد انتبهت وحدي تماما لأول مرة الى أهمية التوزيع الموسيقي، أهمية أن يقوم الكونترباص، هو وحده ولا أحد غيره، بعزف هذه الجملة.

كان أبي حاصلا على دكتوراه في المسالك البولية، ومع ذلك لم تكن ثقافته العامة تسمح له بفهم معنى كلمة هارموني، والتي يقصد بها عزف وغناء عدد من الخطوط اللحنية المتجانسة في نفس الوقت. أتذكر ذات مرة، وكنا نستمع الى حفل موسيقي مذاع على الهواء، أن غنت احدى الفرق لحن سيد درويش (طلعت يا محلى نورها/ شمس الشموسة/ ياللا

بنا نملا ونحلب/ لبن الجاموسة)، ثم دخل خط ثان لغناء نفس اللحن، من طبقة صوتية مختلفة، فقال أبي (دلوقتي يبهدلوهم على اللخبطة دي). لم أعلق.

كنت في سن العاشرة قد حصلت، بفضل أمي، على آلة كمان تشيكية الصنع، من محل بابازيان للموسيقى بشارع عدلي، وبدأت في متابعة الدروس على يد شخص كان استثنائيا تماما، موسيقي تعلم في مطافىء البلدية، مبادىء الموسيقى النظرية، والعزف على آلات النفخ النحاسية، ولكني كنت أرى معه كتبا من نوعية كتب (المكتبة الثقافية)، الكتاب بقرشي صاغ، عن موتسارت وفاجنر كان مدرسي متنوع الثقافة، فتعلمت معه عزف مقطوعات مصرية مثل (النهر الخالد)، ومقطوعات أوروبية حديثة مثل (نفر أون صانداي/ أبدا الأحد)، أو تانجو لاكومبرسيتا، ومقطوعات أوروبية من القرن ١٩ مثل (تريستس/ حزن) للبولندي شوبان.

في بداية الصف الثانى الإعدادى، ذهبت إلى إحدى دور السينما لمشاهدة أول أفلام فريق البيتلز الإنجليزى (فى ذلك الوقت كان هذا الإسم قد ترجم خطأً بالخنافس Beetles، ولكن إسم هذا الفريق يكتب بالإنجليزية Beatles أى أصحاب الإيقاع Beat)، وكان هذا الفيلم يحمل إسم (ليالى الأيام الصعبة/ Hard days nights)، فانتبهت انتباهاً شديداً جداً إلى هذا النوع من الموسيقى، وهذا النوع من الإيقاع، ومن كلمات الأغانى البسيطة، وأسلوب الغناء الجديد، وأسلوب الحركة فى الفيلم، وأسلوب التصوير فى الفيلم، رغم أنه كان فيلماً أبيض وأسود.

كل هذا كان بالنسبة إلى فى ذلك الوقت جديداً تماماً، يمكن حتى أن

أقول إنه كان إلهاماً إلهياً، وأنا لا أعتبر نفسى أبالغ إن قلت إن هذا الفيلم هو أول شئ فى حياتى كان يحفزنى على الاختلاف والابداع والتمرّد، على أن تكون لى شخصية مستقلة عن أسرتى وعن المجتمع. هذا الفيلم هو احدى نقاط التحوّل الهامة في حياتي. شاهدت مؤخرا (بول مكارتني) عضو هذا الفريق، يتحدث في التلفزيون البريطاني، في عيد ميلاده الرابع والستين، يقول انه يدهش جدا من عدد الناس الذين يقابلهم في بلاد العالم المختلفة، فيقولون له جميعا، ان الاستماع الى البيتلز كان نقطة تحول في حياتهم.

فى صيف العام التالى، ذهبت مع والدتى إلى محل بابا زيان للموسيقى، لأضع كل مدخراتى (١٢ جنيهاً)، فى شراء جيتار اسبانيول خشبى بصندوق صوت، وبأوتار من البلاستيك، وكذلك فى شراء منهج لدراسة العزف على هذه الآلة، من تأليف موسيقى إيطالى اسمه (برانزولي). عدتُ بالجيتار إلى طنطا لأقضى أغلب وقتى فى محاولة وضع أصابع يدى اليسرى فى أماكنها على ذراع الجيتار، وفى استعمال أصابع يدى اليمنى فى النبر على أوتار الجيتار أمام فتحة صندوق الصوت (النبر يعنى جذب الوتر).

استغرقت عملية اخراج أصوات موسيقية من هذا الجيتار بضعة أشهر، وستستغرق بعد ذلك مسألة عزف مقطوعات موسيقية أحادية (ميلودية) بضعة أشهر أخرى، ثم لن أصل إلى عزف ما يسمى بالأكور (تآلف مجموعة من الأصوات تعزف على مجموعة من الأوتار فى نفس الوقت) إلا بعد ذلك بعامين.

سيكون هذا الجيتار هو شاغلى الأول وهمّى الأكبر خلال كل سنوات الدراسة الثانوية (باستثناء سنة الثانوية العامة)، وكذلك كل سنوات الدراسة الجامعية، حتى أقرر ذات يوم أن أنتقل إلى الإقامة فى القاهرة، ويكون غرضى الوحيد من ذلك هو الهروب من الأسر العاطفي والنفسي لأمي، ومن الأسر المادي لأبي، بالإشتراك فى العزف مع فرق موسيقية محترفة. أنا شخصيا أعتقد أن وجود الجيتار، هو العنصر التالي في الأهمية من قائمة العناصر التي مكنتني من ألا يكون لي نفس مصير (كامل رؤبة)، بعد العنصر الأول (وجود أبي وأخي)، فبفضل الجيتار، وجدت حافزا قويا على الهروب من منزل العائلة.

كنت قد ذهبت الى طبيبة أمراض نفسية، في منتصف العقد الخامس، عندما كان زواجي مهددا، فطلبتْ منّي أن أكتب كراسة عن معاناة الطفولة، فكتبت مئة صفحة، قرأتها عليها في عشر جلسات. قالت (أنت نجوت بأعجوبة)، وعندما حكيت لها عن (كامل رؤبة)، وكانت تعرفه، قالت (الفرق بينك وبينه هو في وجود أبيك وأخيك، فقد كان لوجودهما في حياتك المبكرة، التأثير الايجابي، الذي كان يكبح جماح رغبات الأم المريضة). اعتراف مؤلم: في سن السادسة والخمسين لم أستطع بعد أن أغفر لأمي أي شيء.

(٢٢)

لم أكن قد رأيت أية نساء عاريات تماما حتى سن الواحد والعشرين. لم تكن هناك محطات فضائية أجنبية، ولم تكن هناك شبكة دولية عنكبوتية. كانت هناك قبل المراهقة محاولات طفولية في تخيّل جسم المرأة، من خلال مجلات الموضة الأوروبية، التي كانت أمي تشتريها من بعض مكتبات الاسكندرية، وتظهر فيها النساء أحيانا بالملابس الداخلية.

ثم في مرحلة المراهقة كانت هناك المجلات اللبنانية، مثل الشبكة والموعد التي كان أخي ينجح أحيانا في تهريبها الى المنزل، وللعجب فأنا أتذكر من نهاية الستينات، تقريرا صحفيا مصورا في مجلة الموعد، عن أول ناد للعراة في ضواحي بيروت، على غرار الأندية الشبيهة التي كانت تنتشر في ذلك الوقت في السواحل والغابات الأوروبية والأمريكية. الا ان المجلة اللبنانية، كانت تضع خطوطا سوداء على أثداء النساء، وعلى أسفل البطن، بما يخفي العورة، ويسمح في نفس الوقت بالتأكد من العري التام للأشخاص المصوّرين.

لذلك فان أول امرأة رأيتها حيّة وعارية تماما كانت في عروض الستربتيز في حي سوهو بلندن، في ذلك اليوم أخذني صديق مصري الى هناك، ودفع كل منا جنيهين استرلينيين، لحضور عروض متصلة بدون حد أقصى لعدد الساعات، أي بهذا المبلغ يمكنك البقاء عشر ساعات، من السادسة مساء الى الرابعة صباحا. كانت كل فتاة جديدة تظهر أمامنا على

المسرح نصفق لها، فتنحني لرد التحية، فهي في العرف الأوروبي فنانة، تقدّم فقرة فنية، ثم تبدأ في خلع ملابسها ببطء شديد على أنغام الموسيقى لمدة عشر دقائق مثلا، ثم تغادر المكان لتحل محلها فتاة أخرى.

كنّ من جنسيات وألوان وأشكال وأحجام مختلفة، وكانت الموسيقى منخفضة الصوت مما يسمح لهنّ ان أردن بالتحدث الينا، وكان السؤال المتكرر هو (من أي بلد أنتم؟)، و(ما هي مدة بقائكم في لندن؟)، و(هل تنوون المجيء لرؤيتنا مرة أخرى؟).

وحدث بعد مرور ساعتين أن عادت نفس الفتاة التي كنا قد شاهدناها عند وصولنا، وكان أغلب الزبائن الآخرين قد غادروا المكان، نظرتْ الينا الفتاة ولم تقل شيئا. كان المسرح على بعد مترين من المقاعد الأمامية، وكنا عند وصولنا قد جلسنا في الصف الخلفي، الا انه بخلو المقاعد الأمامية تقدمنا. بعد مرور أربع ساعات عادت نفس الفتاة مرة أخرى، وهنا سألتنا ان كنا ننوي قضاء الليلة كلها هنا، فأجبنا بالايجاب بهزة رأس. هي لم تكن عدائية الا انها قالت شيئا ما لم نفهمه، أضحك الزبائن الانجليز، الا اننا لم نهتم، حيث إن الأغلبية المطلقة من الزبائن كانت عالما ثالثا، وهكذا شعرنا ببعض الدعم المعنوي لموقفنا. كانت القاعدة المعمول بها، هي أنك لو غادرت الصالة لا تستطيع أن تأخذ مكانا جديدا مرة أخرى الا بتذكرة جديدة. غادرنا الصالة بنهاية الساعة الخامسة.

وفي انجلترا كذلك كنت أقيم على بعد ثلاثة كيلومترات من مهرجان موسيقى عالمي، يعقد في نفس المكان والزمان كل عام، حديقة نب ورث في أواخر يوليو، والمهرجان معروف باسمها Knebworth Pop

Concert ، وكنت قد خرجت من نزل الشباب حيث أقيم، في العاشرة صباحا، وأخذت الباص الى محطة القطار للذهاب لقضاء يوم السبت في لندن، وقبل الوصول الى المحطة قابلت ستيفن، أحد زملائي في المخبز الآلي حيث أعمل، سألني أين أذهب، وضحك جدا عندما عرف وقال (أنت الشاب الوحيد الذي سيأخذ القطار اليوم في اتجاه لندن)،

وفعلا عند المحطة وجدت آلاف الشباب يخرجون من كل القطارات، ويتجهون كلهم وجهة واحدة، سألته (الى أين تذهبون)، قال (هل تعرف بلاك ساباث ويورايا هيب؟) وهي أسماء فرق روك انجليزية، قلت (نعم)، قال (اذن تعالى معي ولن تندم).

مشينا حوالي ثلاثة أرباع الساعة، ووصلنا الى حديقة واسعة جدا لم أستطع أن أتبين حدودها، كان قد تجمّع بها فعلا عدد ضخم من الشباب، وكان هناك المزيد من الشباب الذي استمر في الحضور طول الوقت، عرفت من ستيفن ان العدد الاجمالي المحتمل للشباب هو سبعون ألفا. في تمام الساعة الثانية عشرة ظهرا بدأ الموسيقيون في الظهور، على مسرح ضخم كان موجودا على بعد حوالي مئة متر، من الموقع الذي جلسنا فيه على الأرض، وبالتالي لم أتمكن من رؤية الموسيقيين جيدا، الا ان حسن توزيع سمّاعات الصوت الضخمة في كل مكان جعل الاستماع الى هذه الموسيقى متعة لا نظير له.

وان كنت بعد كل هذه السنوات قد نسيت أسماء بقية الفرق، التي عزفت عزفا متواصلا حتى فجر اليوم التالي، فان الذكرى التي تظل حيّة تماما في خيالي، هي منظر عشرات الفتيات الجميلات اللائي كنّ قد

خلعن ملابسهنّ بالكامل، ورقصن عاريات تماما بين الشباب، وكانت الفتاة التي ترقص الى جواري، قريبة جدا من يدي، لدرجة أنني لو مددت ذراعي للمستها، الى هذه الدرجة كانت هذه المسألة، رؤية فتاة عارية، سهلة جدا هنا ومعقدة جدا في بلدي. كانت رشيقة القوام، وشعرها الأشقر الطويل يطير في الهواء، ثم ان شعر العانة هو الآخر كان أشقر كانت الفتيات قد بدأن في الرقص عاريات عند الغروب، وليالي انجلترا في شهر يوليو ليست باردة على الاطلاق، باستثناء احتمال سقوط الأمطار في أي وقت.

شعر ستيفن باضطرابي، فقال (لاتقلق، انه طقس أو تقليد معتاد هنا، أن ترقص فتيات عاريات في الأماكن العامة، وفي الحفلات الموسيقية، خذ هذا) وأعطاني قرصا، لم أعرف ما هو، ولم أسأله، فأنا أراه كل يوم في العمل، وهو انسان مهذب جدا ومحترم، وكان أكثر زملاء المخبز الآلي حيث نعمل معا، احتراما لي ولثقافتي، ثم انه طالب جامعي يعمل صيفا ليوفر بعض نفقات دراسته الجامعية. بعد دقائق تداخلت الأصوات والأشكال والألوان، ولم أعد أعرف أين أنا، ولم أعد الى الوعي الا بعد ساعات من اللاوعي. عدنا مشيا كما جئنا، وكان الآلاف من الشباب يغنون معا نفس الألحان.

خيال في خيال، رؤية غير واقعية بالمرة، كنت أستحضرها أحيانا أيام الأزمات، مثل امتحانات بكالوريوس الطب، أو معسكر الخدمة الأساسية في القوات المسلحة، أو مشوار ضروري الى مصلحة حكومية، كنت أغلق عينيّ، وأتخيل نفسي هناك ولو للحظات، أتخيل فيها تلك الحورية

العارية، التي كانت على بعد ذراع واحد مني. ظلّت هذه الذكرى تعزّيني سنوات طويلة، ان هناك اذن سعادة لا حدود لها في مكان ما من العالم، ولم تحلّ محلّها بعد ذلك الا تجربة المشاركة في مستعمرات العراة في جنوب فرنسا، لتكون عزائي الحالي عند الذهاب الى المصالح الحكومية، فأحاول أن أتخيّل كلّ موظفي المكاتب الحكومية والمترددين عليها عراة تماما!!.

وبالمناسبة فان العمل لمدة أربعة أشهر في انجلترا، قد وفّر لي المبلغ الكافي لشراء سيارة فولكس موديل ٧١ والعودة بها الى مصر، وكانت هذه السيارة هي العنصر الثالث من العناصر التي كان لها الفضل في اعلان استقلالي، فلولاها لما تمكنت من تحقيق الهروب الكبير الى القاهرة، ولولاها لما حصلت بسهولة على العمل كموسيقي في شارع الهرم. (نجوت بأعجوبة على رأي طبية الأمراض النفسية).

(٢٣)

في انجلترا سنة ١٩٧٤، عملت عملا يدويا لمدة حوالي أربعة أشهر، في مخبز كبيرجدا في حجم مصنع ضخم، وكان يدار كله بالآلات، التي تقوم بالعمل كله، فواحدة تقوم بتحويل الدقيق الى عجين، وثانية تقوم بادخال العجين الى مكنة تقطعه الى أجزاء، ثم ثالثة أشبه بالفرن تسوّيه على النار، ثم رابعة تقطعه الى شرائح، ثم خامسة تغلفه بالورق، وهي التي كنت أعمل عليها مشرفا، فأنتظر أن يتشبع بالأرغفة أحد السيور، لأحول طابور الخبز الى سير آخر، وهكذا.

كان معي عدد من الزملاء من بانجلاديش (كومنويلث/ ثروة مشتركة/ common wealth)، وفي ذلك العام حدثت فيضانات في بلدهم، ونقلت الينا كاميرات التلفزيون المنظر، فأصبحوا كالمجانين، يريدون بأي ثمن الاتصال بأهاليهم، للاطمئنان عليهم، الا ان الاتصالات لم تكن سهلة، فكنا نشاهد أحيانا أثناء العمل، أحدهم وهو ينفجر فجأة في البكاء والنحيب بصوت مرتفع أثناء العمل، لأعرف بعد ذلك انه قد جاءه خبر غرق منزله وموت أفراد عائلته.

كان شباب كل هذه البلاد، التي كانت تابعة سابقا للتاج البريطاني، وأصبحت بعد استقلالها ضمن مجموعة الكومنويلث، يتمتع بمزايا عديدة، بداية من الحصول على فيزا عمل واقامة، الى أولوية مطلقة في التشغيل في الوظائف، الى قروض من البنوك لشراء منازل بالتقسيط على سنوات عديدة. الى سهولة احضار أفراد العائلة من بلد الموطن الى بريطانيا.

قابلت في نفس المصنع شابا من جامايكا، وهي جزيرة في البحر الكاريبي، كان يدرس في كلية الطب التي تقع على بعد نصف ساعة بالسيارة، لا أتذكر أين كانت بالضبط، في بيرمنجهام أو في غيرها، ويحضر الى المصنع ليعمل يوميْ السبت والأحد من كل أسبوع، ومرتبهما يساوي مرتب ثلاثة أيام ونصف، فالسبت بيوم ونصف، والأحد بيومين، وذلك ليسدد أقساط السيارة، التي ذهبنا بها بعد العمل الى منزله، الذي يسدد أقساطه هو أيضا من عمل يومين فقط في الأسبوع.

المنزل من طابق واحد بحديقة صغيرة تحيط به، ولم يكن به الا أقل

عدد من قطع الأثاث، فهو ينتظر حضور خطيبته من جامايكا، لتختار الفرش بنفسها. كان هذا الشخص من سني تقريبا، في الواحدة والعشرين من العمر، وكان قد تعاطف معي عندما عرف انني أيضا في كلية الطب. لكم شعرت بالغيرة من هذا الشخص، الذي لم يكن يميزه عني الا ان بلده جامايكا، بعد الاستقلال، انضمت الى الكومنويلث. بصراحة غير مطلقة (على رأي يوسف ادريس)، شعرت بالغضب من عبد الناصر.

كانت ثورة الاتصالات ما تزال في علم الغيب، الا ان ارهاصاتها كانت واضحة جليّة. مثلا شاهدنا في الثالثة من صباح أحد أيام أغسطس من ذلك العام، نيكسون وهو يلقي خطاب الاعتزال بعد فضيحة ووتر جيت، في نقل مباشر عبر الأطلنطي. وكذلك في نفس الوقت تقريبا، أو في شهر سبتمبر، النقل اليومي لمناظر الاقتتال في الشوارع، بين القبارصة اليونانيين والأتراك، في الصراع على جزيرة قبرص، وهي مناظر غريبة تماما على شخص قادم من بلد، كانت نشرة الأخبار فيه تركز طول الوقت على وجه المذيع. ثم كانت كتب الروسي المنشق سولجنتسين تباع على أرصفة كل محطات المترو اللندنية.

(٢٤)

قبل واقعة السفر الى انجلترا بعامين، كنت قد قابلت أول امرأة في حياتي. كانت في حدود العشرين من العمر، وجهها حزين متألم، وتتمدد عارية تماما، تنهشها أعين العشرات من الرجال والنساء، خضراء اللون،

ولونها الأخضر يميل الى الزرقة، على احدى مناضد مشرحة كلية الطب، تفوح منها رائحة الفورمالين، المستعمل في حفظ الجثث التي تبقى في مشارح كليات الطب طوال عام كامل، ليتمكن الطلبة خلاله، من دراسة أجزاء الجسم واحدا بعد آخر، الطرف العلوي ثم السفلي ثم الصدر والبطن والحوض، ويتبقى الدماغ وحده والعمود الفقري والجهاز العصبي للعام التالي. كانت قد ماتت مخنوقة، بحسب الصفة الجنائية، ثم القيت الجثة في احدى الترع القريبة من المدينة، وعندما عثر عليها بعد يومين فقط من موتها، ولم تكن عمليات التحلل والتعفن قد بدأت بعد، ولم يتقدم أحد بطلب دفنها، اقتيدت الى هنا.

عندما رأيتها لأول مرة، في أول يوم لنا في المشرحة، صدمت صدمة شديدة بسب التعبير الفظيع المرسوم على وجهها، وصدمت أكثر بسبب ان هذا التعبير المؤلم لم يلفت انتباه أي طالب آخر على الاطلاق. وقد ظل هذا الوجه المتألم يواجهني في كل مكان لعدة أيام، حتى في أطباق الطعام، لدرجة أنني خلال ذلك الأسبوع الأول في المشرحة، أصبت باضطراب عصبي في المعدة، أدّى في مرات عديدة الى استفراغ الطعام بعد الأكل.

عندما حكى معيد التشريح للطلبة قصة هذه (الجثة)، كانوا يأكلون سندوتشاتهم، وتطاول عليها أحدهم قائلا (أكيد مشيها البطال هو السبب في وصولها الى هنا). تعاطفت مع الفتاة، وبسبب هذا الاحساس أصبحت مسألة اشتراكي في تشريحها شبه مستحيلة، وقد وافق المعيد أن أغيّر المجموعة، بعد أن نصحني بمحاولة التغلب على أي مشاعر انسانية تجاه

الجثث، والا فاني سأفشل في الدراسة. نقلني الى جثة صبيّ في السادسة عشرة من العمر، مات في حادثة طريق، جسمه كله سليم، الا ان جمجمته مهشمة، هو الآخر مات دون أن يتقدّم أحد بطلب دفن جثته. كان من المفروض أن نحصل العام التالي على جثة أخرى تكون سليمة الجمجمة.

في نفس ذلك التوقيت تقريبا، كنت فى معمل الفسيولوجي بالكلية، وكان علينا دراسة الأجهزة الداخلية لجسم الضفدع (العضلات الأعصاب – الدورة الدموية – الجهاز الهضمى – الخ ....)، وكان الزملاء يمسكون بضفدع التجربة من سيقانه الخلفية، ويضربون رأسه على الحافة الخشبية لمناضد المعمل، وذلك حتى يموت دماغياً (وإن كانت أجهزته المختلفة تظل تعمل بعد ذلك لمدة ساعة على الأقل)، ولم أكن أستطيع أبداً أن أفعل مثلهم، وذلك لأنى كنت لا زلت أتذكر كيف كانت الضفادع تتحدث مع بعضها، ومع غيرها من الحيوانات والنباتات، فى أقاصيص (هانز كريستيان أندرسون) الدانماركى، خاصة أقصوصة (أقحوانة الحقل)، عندما جاء زميل يخرجنى من عذاباتى تلك بالحديث عن فتح باب العضوية فى نادى سينما طنطا، والذى لا يشترط الا أن يكون طالب العضوية قد حصل على الثانوية العامة، وحيث اننى كنت طالباً فى كلية الطب فلم تكن هناك مشكلة

اشتركت فى النادى وبدأت فى حضور العروض مرة كل أسبوع، وكانت الأفلام تأتى بالقطار من القاهرة، لتبيت ليلة فى طنطا، ثم لتستأنف طريقها بعد ذلك إلى نادى سينما الإسكندرية اليوم التالى. فى الأسابيع الأولى لم يكن عدد الحضور يتعدى عدد أصابع اليد الواحدة، ولكن

ذات مرة فوجئت بوجود عشرين شخصاً على الأقل، فى البداية لم أفهم، جلست فى مكانى المعتاد ثم بدأت أسمع كلمات متناثرة، فهمت منها أن سبب التجمع الجماهيرى هو وجود لقطات عارية فى الفيلم الذى كان إسمه (الغذاء على العشب) للمخرج الفرنسى جان رينوار. بدأ العرض وكان الحاضرون يتلمظون.

عندما جاءت اللحظة الموعودة، وظهرت فتاة شقراء فى ملابس شفافة تفترش العشب (وهى لم تكن عارية ولا حاجة، وحتى لو كانت فإن عريها لا يقارن على الإطلاق بما يمكن لأى شخص أن يراه حالياً فى أى وقت على أى دش أو على أى إنترنت)، فى هذه اللحظة طلب الحاضرون من عامل البروجيكتور (جهاز العرض) أن يوقف الشريط السينمائى عند هذه اللقطة، فاستجاب لطلبهم، إلا أن التوقف كان قد طال، بناء على رغبة الجماهير، أكثر من اللازم، فكانت النتيجة المباشرة هى احتراق الشريط، أما النتيجة غير المباشرة فكانت هى إلغاء النادى، ويا فرحة ما تمت. ويا لتعاسة شبابنا.

(٢٥)

لم أشرب أول كوب شاي في حياتي الا بعد بلوغي سن الخامسة عشرة، وكنت في زيارة لمنزل أحد أصدقائي. ترددت بعض الشيء على الاقدام على هذه المغامرة غير المحسوبة العواقب، الا ان صديقي شجعني على اجتياز الحاجز النفسي. أما أول فنجان قهوة فكان في عام الثانوية

العامة، ولم أشربه الا ليساعدني على المذاكرة، لم يكن الأطفال في منزلنا يشربون الا اللبن حتى العاشرة، ثم يمكن أن يضاف اليه مسحوق الكاكاو في سن الثالثة عشرة. لم أعرف سندوتشات الفول والطعمية الا في شهور الصيف في الأسكندرية، ثم الذرة المشوية أثناء النزهة على الأقدام فوق رصيف كورنيش الاسكندرية.

عندما حاولت ذات مرة تجربة نوع جديد من الأطعمة الشعبية، لم أكن قد تناولته من قبل وهو الترمس، أثار ذلك الحدث البالغ الخطورة زوبعة من أمي وأبي في المنزل، عندما أعلنت أمامهما ببراءة شديدة، هذا النبأ الفاجع، الذي ان دلّ على شيء فانما يدل على خطورة الحالة التي كنت قد وصلت اليها، من تحطيم قائمة الممنوعات، بما يدل عليه ذلك من دخولي مرحلة المراهقة الخطيرة، والجديرة باتخاذ المزيد من الاجراءات الصارمة، بفرض المزيد من القيود حتى لا تتسرب السلطة الأبوية من بين أيديهما.

طبعا كانت قائمة الممنوعات تتضمن كل الأطعمة الشعبية البشعة، التي لا يمكن أن تؤكل الا في الشوارع مع الغوغاء والدهماء والسوقة، مثلا أنا لم أعرف معنى كلمة كشري الا في سن الثالثة والعشرين، وكنت قد أعلنت استقلال جمهوريتي الحرة، فدخلت محلا للكشري في ميدان أم المصريين، حيث كان يسكن أحد أصدقائي الموسيقيين، وطلبت طبقا كبيرا، فجاءني وجاءت معه بعض التحابيش، فدلقت الصلصة كلها على طبقي، ودلقت كذلك السائل الأحمر الموجود في طبق صغير هو الآخر كله في طبقي، ولم أكن أعلم انه الشطة، ولم أجرؤ على طلب طبق جديد، وانما أكلت طبقي الملتهب حتى آخر ملعقة.

ثم استمرت الاكتشافات الجميلة لمدة طويلة، فبدأت أعرف عربات اليد التي تعد سندوتشات الكبدة، ومحلات حساء الكوارع والفتة ولحمة الرأس في ميدان الحسين، وعربات البليلة السخنة في ميدان الجيزة في ليالي الشتاء. من المؤكد ان هذه المأكولات كانت متاحة في مدينتي الصغيرة في وسط الدلتا، الا ان فرض حظر التجول الذي عانيت منه طوال ثلاثة وعشرين عاما، حتى يوم اعلان استقلال البلاد، كان السبب في ان مشروبا مثل عصير القصب كان بمثابة اكتشاف هائل، أما المشروبات الأخرى من نوع الصوبيا والسكلانس، فكانت تدخل ضمن عالم ما وراء الواقع، أو عالم الخيال العلمي.

لم يسافر والداي الى الصين أو فيتنام أو كمبوديا أو لاوس، وبالتالي فهما لا يعرفان ان الأطعمة المختلفة في البلاد المختلفة، قد تعني أحيانا الحشرات المسلوقة في الماء،أو المطبوخة بالزيت، أو المشوية على النار. شاهدت مؤخرا على احدى القنوات الفضائية، أسرة فيتنامية من أب وأم وأولاد، أراد الأب أن يحتفل معهم بمناسبة ما، فذهب معه مصوّر الفيلم الى السوق المحلي. أنا أعرف مثلا انهم يأكلون السمك الصغير (البساريا) نيا، وأنهم يأكلون الجراد. المفاجأة هي أن الرجل اشترى كمية محترمة، من دود الأرض والصراصير والعقارب! العجيب هو ان كل هذه الكائنات، عندما اشتراها، كانت ما تزال حية، تلعب في القفص، ثم استمرت تلعب في الكيس الذي وضعت له فيه، حتى العقارب. بمجرد عودته الى المنزل هاص الأولاد وزاطوا، فدلق الأب تلك المأكولات الشهية في حلة على النار، وأضاف اليها بعض الزيت.

وحدث ان جاءت اللحظة الموعودة، اللحظة التي أنتظرتها منذ زمن بعيد، لحظة جلوسي على كرسي في مقهى. طبعا لم أستطع تحقيق هذه القفزة الهائلة في تاريخي الشخصي منفردا، وانما تمكنت من ذلك بفضل المساندة المعنوية من الأصدقاء، وكان أحدهما يأخذ بذراعي الأيمن، والآخر يأخذ بذراعي الأيسر، حتى لا أنهار وأقع منهما على الأرض، بسبب عدم قدرتي على تحمّل الانفعال العصبي الشديد المصاحب لمثل تلك التطورات الجذرية في الشخصية. كنت قبل ذلك قد بدأت في التدخين بجهود فردية، ولكني لم أحب السيجارة، وانما هي كانت ضرورية خلال السنة التي عانيت فيها من أول صدمة عاطفية في حياتي.

توقع صديقاي، اللذان لم يكونا على علم بكل شيء، اذ انني كنت في ذلك الوقت أحاول أن أنجح في لعب بعض الأدوار، مثل دور الشاب الصايع (مزيكاتي في شارع الهرم)، أن أكون مدخنا ليس فقط للسجائر وانما كذلك للشيشة، فطلبا ثلاثة شيشة، ولم أعارض. الا ان أول مجموعة أنفاس سحبتها، أدت الى اصابتي بكحة مؤذية، والى انفجار موجة ضحك من الصديقين.

(٢٦)

اذن فقد جئت الى القاهرة لأقيم فيها، في منزل جدتي لأمي، بحيّ العباسية، في بداية العام الدراسي الأخير لي في الكلية، وكان عدد أصدقائي ومعارفي محدودا. كنت أعوّل كثيرا على زملائي السابقين، قبل

خمس سنوات، في اعدادي طب طنطا، مثل نجوى وعصام وهاني الذين كانوا قد شاركوني فرحة تكوين أول فريق موسيقي، وكان لدينا في نهاية العام الدراسي برنامج أغاني يشغل ساعة من برنامج حفل نهاية العام، (محتار أنا ويا البنات/ الساحرات الفاتنات/ محتار أخبّي في قلبي وللا أقول/ وان قلت يمكن مش أصول) الله يمسيك بالخير يا سمير يا صبري. كانوا قد حوّلوا أوراقهم الى عين شمس منذ العام الثاني في الكلية.

الا أن توقعاتي لم تكن في محلها، فقد انمحت تقريبا من ذاكرتهم، ملامح ذلك العام الدراسي الأول. وهكذا كان يجب عليّ أن أبدأ في تكوين صداقات جديدة. ذهبت الى صديقي وجدي في كلية التربية الموسيقية بالزمالك، وكان زميلا سابقا لي في فريق موسيقي آخر، كنا قد كوّناه في طنطا، وأطلقنا عليه اسم الكاندلز أي الشموع، عندما رآني قال (جيت في وقتك، عايزين بازيست دلوقتي حالا، عندنا حفلة في قصر فرساي بالزمالك، تبع السفارة اليابانية).

طبعا وجود السيارة الفولكس كان يسهّل حركتي جدا، ويمكن اعتبارها حافزا هاما على تشغيلي بدلا من الآخرين، ذهبنا الى أمبريزاريو في شبرا لتأجير الآلات الموسيقية، وكنا بالكاد في موعدنا في حفل السفارة، ولم يكن اليونيفورم هاما، وكنا أربعة وجدي درامز، وأنا بيز جيتار، وأحمد أورج، وعثمان الجبّار مغنيا. كان عثمان يعمل موظفا في البنك العربي الأفريقي، وعندما سألت وجدي (لماذا هو جبّار؟)، قال (انتظر وسترى بنفسك).

لم أعرف ما الذي حدث بالضبط، الا ان عثمان بعد أن كان قد غنّى معنا بعض الأغنيات، غادر الخشبة المقام عليها المسرح، طالبا منا عزف بعض المقطوعات الموسيقية بدون غناء، ونزل الى الصالة متجها الى المائدة التي كانت عليها أجمل فتيات الحفل، وانتقى أجملهن (عرفت فيما بعد انها يابانية اسمها يومي)، ودعاها الى الرقص، فقامت معه، وبعد لحظات كان خدّها ملتصقا بخدّه، وجسمها ملتصقا بجسمه. كان طويلا ورشيقا لا تنقصه الوسامة، الا ان سحر كلامه كان على ما يبدو هو السر. عندما عاد الى الغناء صعدت اليابانية لتقف الى جواره على المسرح، وعندما انتهى الحفل ظلت معنا ونحن ننقل الآلات الى السيارة، ولم تتخلَّ عن عثمان الا بعد ان كان قد وعدها بالاتصال بها صباح الغد. التفت اليّ وجدي قائلا (عرفت ليه هو جبّار؟)

صباح اليوم التالي، كنت عنده في البنك، أريد أن أقوّي صداقتي معه، كنا قد تحدثنا أمس عن البيتلز، فذكرت له أنني أمتلك كتابا اشتريته من لندن، به كل أغنيات البيتلز، الألبوم الكامل لأغانيهم، حوالي مئتي أغنية، فطلب أن أحضره له في البنك. استقبلني استقبالا لطيفا، وقال (النهاردة عندنا ميعاد مع بنات كلية الآداب بجامعة القاهرة، هل سيارتك معك؟)، قلت (معي اليوم وكل يوم)، كان عمله نصف يوم، وكنا عند مدخل الجامعة في الواحدة ظهرا. فوجئت بوجود أربع فتيات في انتظاره، وكلهن في منتهى الجمال،

في ذلك الوقت كان الميني جوب ما زال على الموضة (يا خسارتك يا ميني جوب)، وكانت سيقان البنات رائعة الجمال، وشعورهن حرة على

أكتافهن. صحيح ان جيلي لم يستمتع بمزايا الديش والانترنت الحالية، ولم أشاهد أول فيلم بورنو الا في سن العشرين في لندن، الا ان الصور الطبيعية أجمل. ركبت الفتيات الأربع في الفولكس على المقعد الخلفي، ولم أتمكن من القاء نظرة فاحصة لاضطراري الى القيادة.

ذهب بنا عثمان الى ملهى اسمه الكهف، كان موجودا في أول شارع الهرم، في الجهة المقابلة من ملهى الليل، وكان عثمان يغني فيه مساء كل ليلة، وهو ما لم أكن أعرفه، اذن فالمكان مكانه. عندما وصلنا اليه اعتقدت انه مغلق، ركنت السيارة ونزلت معه، ومعنا الفتيات، فانفتح الباب وحده بمجرد اقترابنا منه، ورغم اننا سننتظر الموبايل ربع قرن حتى يظهر، الا ان ثلاثة من الشباب كانوا في انتظارنا، اثنان من فرقة المحل الموسيقية زملاء عثمان، وكذلك كهربائي المحل الذي يملك المفاتيح. اكتشفت ان التربيطات كانت قائمة فعلا، وان دوري كان فقط موصّلاتي، لتوفير أجر التاكسي. ومع ذلك كنت سعيدا جدا، بهذه المغامرة الجريئة، أربع فتيات مرة واحدة في سيارتي، ثم فرجة مجانية على هذه السيقان الجميلة وهي ترقص.

(٢٧)

بدأت في تغيير طريقتي في اللبس، وقد توفر لدي بعض المال من العمل ولو مرة واحدة في الأسبوع، في حفلات السفارات مساء السبت، وفي الأفراح مساء الخميس، فاشتريت مجموعة من البنطلونات الجينز

بألوان مختلفة، الأزرق والبني والبنفسجي، في مشوار مخصوص الى بورسعيد مع وجدي، عندما كانت المدينة لا تنام الليل، وتظل محلاتها مفتوحة وممتلئة بالزبائن ٢٤ ساعة في اليوم. ثم اشتريت مجموعة من القمصان، من نفس الألوان، من محل اسمه سكارابيه في الزمالك، أغلق أبوابه في منتصف الثمانينات.

ثم الشعر، كانت الموضة في ذلك الوقت للشعر الخشن مثل شعري، هي ما يمكن تسميته رأس العبد، أو بقول آخر (كمبوشة)، ولا أعرف من أي أصل لغوي أتت هذه الكلمة. فكنت أقلب شعري الى الأمام ، ثم أرش عليه رذاذا (اسبراي) مثبّتا للشعر، ثم أعيد الشعر الى الخلف فيقف بارتفاع بضعة سنتيمترات أعلى الرأس. وهكذا أصبحت (خنفسا) على طريقتي. وحيث انه لم يعد لدي الآن، أي شعر على الاطلاق، فأنا أحتفظ بصورة لي بالشعر الكمبوشة، معلقة على الحائط، في مكان واضح بمنزلي، كدليل مادي ملموس، على الحقبة التاريخية السابقة في حياتي، وبأني كنت هكذا يوما ما، حتى يتّعظ الشباب.

ثم كانت الصرخة العالية التي أطلقتها، لتدوّي في الآفاق، وأصبح عشرات الأشخاص من العائلة والأصدقاء على علم بها، بفضل عشرات المكالمات التلفونية التي أجرتها جدتي، هذه الصرخة هي شراء صورتين كبيرتين (بوستر)، بطول متر وعرض نصف متر لكل منهما، وتعليقهما على الحائط في حجرتي. عندما دخلت تيتة الحجرة بعد ذلك لأول مرة، كادت أن تفقد الوعي، فالصورتان لنفس الفتاة، وهي شابة صغيرة في السادسة عشرة على الأكثر، بشعر غجري مهوّش على كتفيها العاريين،

وبثديين صغيرين مثل حبتي الليمون. في الصورة الأولى هي مبتسمة ومرتدية البنطلون، وفي الصورة الثانية، هي غاضبة، وقد انزلق البنطلون عن جزء من شعر عانتها. هل يمكن تصديق انني قد اشتريت هاتين الصورتين من محل في وسط البلد، في شارع الألفي، ولم تكونا وهما على جدار المحل، تلفتان انتباه أي شخص. نحن في العام ١٩٧٦، في عز الانفتاح.

للبحث عن الفتيات، اشتركت فى دورات اللغة الفرنسية، فى المركز الثقافى الفرنسى بمصر الجديدة، وذلك لاعتقادى منذ كنت فى المدرسة الابتدائية بأن من تدرس اللغة الفرنسية يجب أن تكون جميلة. أقرأ الآن رواية الكاتب اللبناني رشيد الضعيف (أوكى مع السلامة)، الصادرة سنة (٢٠٠٨) ويذكر فيها نفس الشيء، فقد درس الفرنسية في بيروت، عندما كان في نفس ذلك السن، أي في أوائل العشرينات من العمر، بحثا عن الفتيات الجميلات. (رشيد الضعيف تقريبا من جيلي، فهومن مواليد ١٩٤٦، أي انه أكبر مني بسبع سنوات فقط لا غير). فى أول فصل اشتركت فيه وجدت فتاة لطيفة اسمها (إلهام)، بشعر ناعم قصير وجسم رشيق، كانت تعمل صيدلانية وأكبر منى فى السن، خرجنا سوياً من مبنى المركز الثقافى، وعندما عرفت بأن لديّ سيارة أبدت سرورها ولم تتردد لحظة واحدة عندما عرضت عليها توصيلها إلى منزلها

وهكذا وطوال حوالى ثلاثة شهور، كنت أمرّ عليها فى الذهاب من العباسية إلى ميدان الإسماعيلية، مروراً بميدان روكسى حيث كانت تسكن، كانت تنتظرنى فى الشارع بعيداً عن المنزل الذى كانت تسكنه،

ولم أعرف أبداً أين هو بالضبط! ثم أعود بها إلى نفس المكان بعد نهاية الدروس. كانت أحياناً تطلب منى أن نقف عند محل عصير فى شارع الأهرام بمصر الجديدة، لتدعونى إلى كوب عصير برتقال، وهكذا تولدت بيننا صداقة ظريفة، إذ كنت سعيداً جداً بنفسى حيث ان هذه الفتاة، كانت أول فتاة أعرفها بمجهودى الشخصى وبدون تدخل أى شخص آخر!

عندما حكيت لأخى عنها قال (حاول تمسك إيدها، وإذا رفضت اتنرفز عليها، فإذا لم تفعل ذلك الآن، فلن يكون لديك أى أمل فى استمرار هذه العلاقة بعد نهاية الكورس). لم أفعل ما طلبه منى، وفعلاً انتهت تلك العلاقة بنهاية الكورس.

(٢٨)

جاء الوقت الذي ينبغي أن أقص عليكم فيه قصة أول مغامرة عاطفية في حياتي، قصة حبي للمغنية الاستعراضية لوليتا الشهيرة بلولا، التي حدثت خلال العام الأول من وجودي في القاهرة. في أول يوم تحضر لولا للعمل فى الملهى الليلي بشارع الهرم، عرفنا أنها تغنّى فى ملاهى وسط البلد، فى شارع فؤاد فى ملهى ميامى وكذلك فى ملهى بالميرا، وفى شارع الألفى فى ملهى نيو أريزونا، وأن برنامجها الغنائى يتكون من عدد من أغانى فيروز (حبّيتك بالصيف) و(حنا السكران) وكذلك (بينى وبينك يا هالليل) وقد تكون تلك الأغنيّة الأخيرة لأختها هدى حداد. وهناك كذلك أغان أخرى كانت منتشرة جداً فى ذلك الوقت فى ملاهى شارع الهرم، وأغلبها كانت

أغان سعودية من نوع (إبعاد كنتم ولا جُربيين)، وكذلك (مجادير يا أهل العنا) وأغنية سوريّة (جارى يا حموده).

كان صاحب المحل قد طلب منّا الحضور ساعة مبكّراً ذلك اليوم، لإجراء بروفه على تلك الأغانى مع لولا، والتى كان يمكننا أن نناديها كذلك بإسم ليلى ، أمّا إسمها الفنّى فكان لوليتا. عندما شاهدتها لأول مرة كانت ترتدى ملابس خفيفة، رغم أنّنا كنا في نوفمبر، بلوزة وبنطلون جينز، وتضع على رأسها شعراً مستعاراً (باروكة)، وعندما قامت لتحيى الفرقة، لاحظت أنها قصيرة القامة إذ لا يتعدى طولها ١٦٠ سم، لاحظت كذلك أن لون بشرتها يميل الى السمرة الداكنة، الا ان جسمها كان متناسقا.

لم يكن صوتها قويّاً ولكنه كان مضبوطاً، أى أنها عندما تغنى لم تكن تخرج عن نطاق الطبقة الصوتيّة الخاصة بالأغنيّة، كما أنها كان لديها الاحساس الجيد بالإيقاع. وهكذا انتهت البروفة بسلام، بدون اشتباكات مع العازفين، كما كان يمكن أن يحدث مع أى مغنى جديد ينضم إلى فرقة جديدة، وانتهت فقرتها كذلك بسلام الساعة الثالثة صباحاً.

كنت قد نزلت حوالى الواحدة صباحاً إلى الكواليس، التي كانت تشغل كل المساحة أسفل المسرح، حوالى خمس عشرة حجرة صغيرة لا تتعدى مساحة كل منها الأربعة أمتار المربعة، ولا نوافذ لها إطلاقاً، وبالتالى فإن الموسيقيين كانوا يتجنبون البقاء طويلاً داخل الحجرات، وكانوا يتواجدون غالباً فى المساحة الوسطى التى تحيط بها هذه الحجرات فى شكل ثلاثة أرباع دائرة ، وعندما نزلت إلى الكواليس وجدت ليلى تقف وحدها فى هذه المساحة، تنظر الى الحوائط وأبواب الحجرات ، فسألتها

(مالك؟) قالت (نمرتى ستتأخر قليلاً) قلت (ولا يهمك فالفاكهة تأتى غالباً فى نهاية الوجبة)، فابتسمت.

حكى لنا محسن (أحد أفراد الفرقة الموسيقيّة) قصّة حياة لولا، وكذلك قصّة دخولها الى عالم الغناء، كان هو الوحيد بيننا الّذى كان يعرفها - وأنا أستعمل ضمير الجماعة لأن المقصود هنا أفراد الفرقة الموسيقيّة - عرفنا منه أن ليلى فى الثانية والعشرين من عمرها، وأنها كانت قد تركت بيت أهلها فى الإسكندرية عندما كانت فى السادسة عشرة من عمرها، وهربت مع شاب كان يعمل موسيقيّاً أقنعها بأنّها يمكنها أن تغنّى، وأقنعها كذلك بالهرب معه ثم قرر أن يتزوّجها لتسهيل عملها فى المحلات الليليّة، إذ أن وجود الفنّانة مع زوجها هو أفضل حلّ فى مواجهة شرطة الآداب، لو لم تكن تلك الفنانة قد حصلت على بطاقة شخصيّة بها المهنة (فنّانة)

حضرا إلى القاهرة للاقامة سويّاً فى حجرة فوق سطح واحدة من العمارات القديمة بشارع عماد الدين. ولم يكن العثور على العمل سهلاً، فزوجها لم يكن موسيقيّاً موهوباً، إلا أنها استطاعت أن تعثر وخلال وقت قليل، على عمل فى كافتيريا فى وسط البلد، وحيث انها كانت بشوشة ولطيفة مع الزبائن، فإنها كانت تحصل منهم على إكراميّات كبيرة، إلا أنّها سرعان ما اكتشفت أن زوجها يسرقها، ليحتسى الخمر الرخيص، وعندما رفضت أن تعطيه نقوداً بدأ يضربها.

كادت أن تغادر حجرة الزوجيّة بسبب هذا العذاب الجديد، إلاّ أن الزوج كان قد عثر فى نفس اليوم على عمل لهما معا، في ملهى ميامي بوسط البلد. ولكن حيث ان الفرقة لم تكن تحتاج إلى مغنيّة، فإن لولا

كانت قد أضيفت مبدئياً الى الفرقة كراقصة، وفيما بعد ستستمر على ذلك، حتى بعد أن أصبحت مغنيّة معروفة نسبيّاً، فهى تغنّى كوبليه (مقطع من الأغنيّة)، ثم تترك الميكروفون لترقص على أنغام الكوبليه التالى.

لم تكن ما تفعله لولا هو ما يمكن تسميته بالرقص، يمكننا بالأحرى أن نسمّيه حركات ايقاعيّة، ويبدو ان هذا هو الجديد في الموضوع اذ لفتت برقصها انتباه الجمهور. منذ ذلك الوقت البعيد، مازلت أحتفظ في أوراقي، باعلان في الصفحة الأخيرة من الأهرام، عن برنامج فني بأحد ملاهي شارع الهرم، يضع صورة للولا مع اسمها في برواز، ثم بقية أسماء المغنين والمغنيات خارج البرواز، ومنها أسماء كانت - ومازالت- مشهورة، مثل عبد العزيز محمود وشفيق جلال وطروب.

زواج لولا وحسن لم يستمر الا عاما واحدا، كانت قد لاحظت انه يلحّ عليها أحيانا فى الجلوس على موائد بعض الزبائن، وقد يصل الالحاح الى حد الارغام، ثم كان يترك المائدة بعد ذلك لأسباب واهية، حتى يترك للزبون فرصة الحديث مع لولا وحدهما، كان يفعل ذلك لارضاء أصحاب المحلات التى يعملان فيها، ضاربا عرض الحائط بسمعته وسمعة زوجته. يبدو ان الكل كان يعرف مقدار هشاشة هذا النوع من الزيجات، بالاضافة الى أنه كان قد بدأ يتهور ويضربها علنا أمام الزبائن عندما كانت ترفض الانصياع له، عند ذلك الحد طلبت الطلاق، وقد حصلت عليه بسهولة بعد تنازلها عن كل حقوقها، وأجهضت نفسها وهي في الشهر الثالث من الحمل. ثم انتقلت للاقامة فى رقم ١٩ بشارع سوق التوفيقيّة، فى بانسيون مارى.

(٢٩)

كان ذلك اليوم الأوّل لعمل لولا فى الملهى الليلي بشارع الهرم، هو أوّل أيّام عيد الأضحى لذلك العام، وكانت لولا بعد البروفة المذكورة قد غادرت الملهى، للذهاب الى المحل الآخر الّذى تعمل به فى وسط البلد، ثم عادت في الواحدة صباحا الينا لتنتظر ميعاد فقرتها (نقول نمرتها ويقول الموسيقيّون نحتتها). حضرت مبكّرا عن موعدها على المسرح، وبالتالى فانّها قد نزلت الى الكواليس لتجلس معنا، نحن الذين كنا في نفس الوقت أفراد الفرقة الغربيّة بالمحل، ثم أصبحنا كذلك أفراد فرقتها. بدأت تهنّئنا بالعيد واحدا واحدا، أحمد وعادل ومحسن ويسرى، وعندما ذكرت اسمى قالوا لها (لا يجوز) قالت (ولماذا؟) قالوا (لأنّه مسيحى) فجلست الى جوارى.

لم أعرف ان كان هذا قد حدث بالصدفة، لأنّى كنت أجلس فى آخر الصف، أم أنهّا تعمّدت ذلك؟ في ذلك اليوم كان مدير المسرح، لسبب أو لآخر، قد أجّل فقرتها عدّة مرّات حتّى أصبحت هى الفقرة الأخيرة، وهكذا طالت جلستنا فى الكواليس الى حوالى ساعة.

بدأت أسألها عن نفسها وعن أسرتها وعن حياتها فى القاهرة، وكيف كانت قد بدأت الغناء، هكذا بأسلوب مباشر وصريح، لم أعرف ماذا دهانى، حب استطلاع شديد كان قد تملّكنى، كأننى كنت قد عدت الى معمل كلّية الطب، وكانّها كانت أحد حيوانات التجارب. كانت فى البداية

ترد باجابات مطوّلة، ثم بدأت الاجابات تصبح قصيرة، ثم أصبحت لاترد، وانما بدأت تحملق فى الحائط أمامها، ثم فجأة انهمرت الدموع من عينيها، وقالت (خسارة تعبى فى الماكياج)، وقامت من مكانها ودخلت احدى حجرات الفنّانات (الأرتيست) لاعادة عمله، ثم خرجت بعد دقائق وهي تحمل حقيبة اليد المخصصة لأدوات الماكياج لتقول (عدّة الشغل) ثم سكتت قليلا قبل أن تضيف (عدّة النصب).

فى نهاية برنامج النايت كلوب حوالى الساعة الرابعة صباحا، كان الباند الغربى، أى فرقتنا، يعود الى العزف لمدّة حوالى ربع ساعة، موسيقى خفيفة بدون غناء، فيفهم زبائن الملهى أن برنامج الملهى لهذا المساء قد انتهى، ويبدأون فى دفع فاتورة الحساب ومغادرة المكان، اذ لم يعد هناك المزيد من الراقصات والمغنيّات. فى نهاية برنامج تلك الليلة، وأثناء مغادرتنا للقاعة، وجدنا لولا جالسة الى مائدة صاحب الملهى، الاّ أنّها فى تلك اللحظة لمحتنا ونحن نخرج فلحقت بنا على الرصيف أمام الملهى، وقالت لنا أنّها فى هذه الليلة المفترجة (ليلة العيد الكبير)، وكانت قد حققت نقطة لا بأس بها، تريد دعوتنا جميعا الى عشاء فى الحسين، فتّة وحساء الكوارع ولحمة رأس، فوافقنا جميعا على الفور.

كانت لولا تستأجر سيّارة تاكسى بسائقها، لزوم تنقّلاتها بين المحلاّت حيث تغنّى، وفى اللحظة الّتى كانت قد أخبرتنا فيها برغبتها فى دعوتنا الى العشاء، أمسكت بذراعى متّجهة بى الى سيّارة التاكسى، فقال لها أفراد الفرقة (ناجى لديه سيّارة)، فصرفت السائق بعد أن اتّفقت معه على مواعيد الغد، وسألتنى (فين زوبة بتاعتنا؟)، فأخذتها الى سيّارتى، وأنا

أشعر بسعادة بالغة أنّها قد اختارتنى أنا دونا عنهم جميعا، واتفّقنا مع الفرقة على اللقاء فى ساحة مسجد الحسين.

كان مدير الفرقة (عادل) شابا فى نهاية العشرينات من عمره، أى أنّه كان يكبرنى بحوالى خمس سنوات، وكان يعزف على آلات الايقاع ويغنّى فى نفس الوقت، وبالاضافة الى ذلك فهو قد تخرّج فى كلّيّة الزراعة، ويعمل خلال النهار مفتّشا للتموين، بمرتب شهرى لم يكن يتعدى فى ذلك الوقت من منتصف السبعينات أكثر من ثلاثين جنيها، فى حين أن دخله من عمله كموسيقى فى شارع الهرم، كان يصل الى سبعة جنيهات فى الليلة الواحدة، أى سبعة أضعاف راتبه الحكومى. أمّا أنا فلم أكن أقبض الا جنيهين اثنين فى الليلة، أدفع منهما نصف جنيه ثمنا بالتقسيط لجهاز تكبير الصوت (الأمبليفاير) الّذى أستعمله.

عندما وصلنا الى ساحة مسجد الحسين، كان عادل وبقيّة الأفراد قد وصلوا، وكانوا فى انتظار وصولى أنا ولولا لنذهب سويّا الى المسمط. بدأ عادل فورا فى مشاغبتى بطريقة بدت لطيفة، اذ أنّه كان يقول للولا (على فكرة، خلّي بالك، أنا الريّس هنا)، أو كان يقول (على فكرة، خلّي بالك، أنا أغنى منه) أو كان يسخر من نفسه بالسخرية من سيّارته، التى لم تكن الا فيات ١١٠٠ (قردة) موديل قديم، مرجعا اليها السبب فى أن لولا قد فضّلتنى عليه، لأن سيّارتى الفولكس كانت من موديل حديث نسبيّا. وحيث ان الجو كان لطيفا، فقد قررنا بعد العشاء البقاء في الحسين حتى مطلع الفجر.

كنا نتناول أطباق البليلة الساخنة، من عربة يد تقف فى الميدان ، عندما جاءت سيّدة بملابس شعبيّة، تعرض علينا خدماتها فى قراءة الطالع، عن طريق قراءة الكف، فطلبت لولا منها أن تقرأ كفى، فلم أمانع، وبعد أن نظرت تلك السيّدة الى كفّى، ثم أمسكت بها لتقرّبها من عينيها، قالت للولا (هذا الشاب ليس من نصيبك)، فضحك أفراد الفرقة من تسرّع لولا فى اظهار مشاعرها نحوى، رغم ما لها من خبرة فى عالم الرجال، وحنكة فى عالم الليل، هكذا قالوا لها، الا أنّها ضحكت معهم وهى تقول (ما هذه المرأة الا عجوز مخرّفة)، وتعلّقت بذراعى من جديد ونحن نتّجه الى سيّارتى، لأذهب بها الى المكان الّذى تقيم فيه. عندما ركبت السيّارة الى جوارى قالت (أنت لست من نصيبى، أنا أعرف فأنا لا أستحقّك) (ثم انك مسيحي)، وبعد فترة صمت بدون أي تعليق مني، حيث اني كنت متعجبا بعض الشيء من سرعة اظهار لولا لمشاعرها، أضافت (ولكنى مع ذلك سعيدة جدّا بقضاء ليلة العيد معكم، فأنا لم أكن أعرف كيف سأقضى ليلة العيد وحدى).

بعد يومين، كنت أجلس وحدى فى احدى الحجرات المخصّصة للفرقة الموسيقيّة فى كواليس الملهى، عندما دخلت لولا الحجرة وارتمت على كرسى الى جوارى، فشعرت على الفورأنّها غير طبيعيّة، أو أنّها غير متّزنة، أدركت بعد قليل أن حالتها تلك قد تكون بسبب احتساء الخمر، أو بسبب تعاطى أى نوع من أنواع المخدّرات، وأنا حتى ذلك الوقت لم تكن لي أي علاقة على الاطلاق لا بالخمر ولا بالمخدرات، بعد ذلك أخرجت من حقيبة يدها سيجارة وقالت (محشيّة)، أشعلتها وبدأت فى تدخينها،

وعندما عرضت عليّ أن أشاركها فيها رفضت.

بعد لحظات غطّت وجهها بيديها وقالت (أريد أن أبكى)، قلت (وما المانع؟)، قالت (الماكياج)، قلت (نعمله من جديد، فقد يريحك البكاء)، فى هذه اللحظة دخل عادل الحجرة، وعندما رآنا جالسين وحدنا فى الحجرة انفجر صارخا (ممنوع انفراد عازف فى الفرقة بمغنيّة فى حجرة تغيير الملابس)، قال هذا رغم أننى كنت جالسا فى حجرة من حجرتيّ الفرقة، لا فى احدى حجرات الأرتيست لتغيير الملابس، خرجت لأتفادى هذا الانفعال الّذى لم أجد له مبررا. بعد أداء الفقرة الغنائيّة الخاصة بلولا، استدارت ونحن مانزال فوق المسرح وأعطتنى فى يدى ورقة صغيرة وجدت فيها (أنتظرك غدا الخامسة مساء فى بانسيون مارى، شقّة بالعمارة رقم ١٩ شارع سوق التوفيقيّة)، وكانت هناك بعض الأخطاء الهجائيّة فى بعض الكلمات. سأعرف بعد ذلك أن لولا كانت قد غادرت المدرسة الاعداديّة قبل أن تنهي الصف الثاني.

(٣٠)

فى الخامسة مساءا كنت عند لولا حسب الميعاد، العمارة الّى تقيم فيها ضخمة جدّا، بها على أقل تقدير ستّون شقّة، عشرة طوابق بكل منها ستّ شقق، مم يسهّل مسألة الدخول والخروج أمام البوّابين، وهى المسألة الّتى كنت أحمل همّها، ولذلك فقد تعمدّت قبل الدخول أن أقف أمام أسماء الأطبّاء أصحاب العيادات فى العمارة، فوجدت منهم بعض أساتذتى فى

كلّيّة الطب، مم سهّل مسألة حفظ الأسماء والاستعانة بها، فى حالة ما اذا أوقفنى أحد البوّابين ليسألنى الى أين أذهب.

بالصدفة قابلتها أمام المصعد، وصعدنا فيه سويّا ، قالت (بمناسبة رابع يوم العيد، أنا كنت معزومة فى مطعم جديد، على ترعة المريوطيّة، اسمه الآرض الطيّبة) ، قلت (أعرفه، عزفنا فيه على شم النسيم الماضي)، قالت (ينوى صاحبه تحويل جزء من المطعم الى نايت كلوب، وتقديم بعض الفقرات الفنيّة فيه)، فتحت باب الشقّة بمفتاح كان معها.

عندما دخلتُ وجدتُ نفسى فى صالة واسعة، بها مائدة طعام خشبيّة كبيرة من طراز قديم، يحيط بها ما لايقل عن عشرة كراسى، ثم مررنا أسفل آرش الى الصالون، حيث أرائك ومقاعد خشبيّة مبطّنة بالقماش، وهى رغم عراقتها الواضحة الا أنّها من النوع الّذى يمكن أن نستعمل معه عبارة (أكل الدهر عليها وشرب). ولكن أكثر ما لفت انتباهى فى هذه الزيارة الأولى، هو وجود عشرات من اللوحات الزيتيّة على قماش، معلّقة على كل حوائط غرفتى المائدة والاستقبال، من مستوى قامة الانسان والى قرب السقف، حيث توجد فى بعض المواقع ثلاث لوحات تعلو احداها الأخرى، بم لا يترك أيّة مساحة فراغ، وبم يوحى وكأننا فى سبيلنا الى زيارة قاعة فى أحد متاحف الفنون الجميلة.

جاءت ماري صاحبة البانسيون لتتحدث اليّ، وهي يونانية في السبعين من عمرها، وتجلس على كرسي متحرك. استعملتْ بعض الكلمات الفرنسية. سألتنى (أنت تفهمنى أليس كذلك؟ تقول ليلى بفخر شديد أنّك طبيب)، قلت (فى أخر سنة فى الكلّيّة). قالت (يبدو أنّك مثقّف

ومن عائلة، ماذا تفعل مع لولا؟)، ذكرت لها كيف أنى كنت قد قررت أن أتوقف عن الدراسة لمدّة عام أو أكثر، لممارسة هوايتى للموسيقى، وأنّى أعمل حاليّا كعازف للجيتار، فى أحد الملاهى الليليّة التى تغنّى فيها لولا، قالت (احترس حتّى لايجرفك التيّار، يبدو بوضوح أنّك بدون خبرة كبيرة فى الحياة).

عادت لولا بعد حوالى ربع ساعة، وقد غيّرت ملابسها، وارتدت روب دى شامبر، وفى يدها صينيّة عليها أكواب الشاى والبسكوت، عندما رأتنى جالسا أمام مارى قالت لها وهى تضحك (ابعدى يا عجوزة عايزة تخطفيه منى)، ثم اتّجهت الىّ متهكّمة (وللا يمكن حليت فى عينك انت يا ساهى). جلست لولا الى جوارى، ثم اقتربت منى حتى التصقت بى، وكان (محمد الكحلاوى) يغنّى فى التلفزيون (لأجل النبى)، نظرت الى وجه لولا فوجدت فجأة دموعا تنحدر من عينيها، قالت (بسبب الأغنية).

أنا قليل الكلام ، بدأت أشرب كوب الشاى وآكل البسكوت، ثمّ فكّرت فى أن أقول شيئا، فقلت (أنا آسف على تصرّف عادل معك أمس فى حجرة الكواليس)، قالت (ولا يهمّك هو فقط يغار منك، فعادة ما تقع المغنية فى حب رئيس الفرقة، أمّا هذه المرّة فقد حدث اختلاف بسيط)، ثم قالت أنها قد اختارتنى من بقيّة أفراد الفرقة لأكون صديقها، لأنى كنت الوحيد من بينهم الّذى نظر اليها بطريقة مختلفة، فان الموسيقيين عادة ما يتودّدون اليها لأحد سببين، امّا لأنّهم يكسبون من ورائها الكثير من المال، أو لأنّهم يعتقدون أنّهم قد يستطيعون أن يضاجعوها (أمّا أنت فقد احترمتنى، وتحدّثت الىّ كما لو كنت تتحدّث الى أختك أو الى جارتك، مما جعلنى

أبكى لو تتذكر، حتّى بعد أن أصبحنا وحدنا فى السيّارة، لم تتجاوز معى حدود الاحترام، ولا حتّى بكلمة واحدة، أو حتّى بمجرد التلميح).

سكتت قليلا ثم أضافت (أستطيع أن أؤكّد لك، أن هذا لم يحدث لى أبدا من قبل، فبمجرّد أن يجد أى رجل نفسه وحده معى، يبدأ فى استعمال كلمات مختلفة كلّها تلميحات خارجة، كما لو أننى بسبب عملى كمغنية، مضطرّة الى أن أكون موافقة دائما على النوم فورا مع أى رجل، يتكرّم بأن يعرض هذا علىّ). فوجئت باسلوبها في التفكير والحوار وصياغة الأفكار، وقلت في نفسي (هذه انسانة تتأمل).

(٣١)

لم تحضر لولا الى الملهى هذا المساء، ثم الليلة التالية كذلك لم تأت، فقررت الفرقة الذهاب الى ملهى (ميامى)، فى شارع فؤاد بوسط البلد للسؤال عنها، ذهبنا بسيّارة عادل الفيات، والّتى كانت من الداخل أوسع قليلا من سيّارتى. ذكرنا على الباب اننا الفرقة الموسيقيّة بملهى شارع الهرم، وحيث اننا كنّا نرتدى يونيفورم الفرقة، تركونا ندخل.

كان توقيت دخولنا هو ميعاد فقرة لولا على المسرح، تمام الساعة الثانية عشرة، كانت الصالة مضاءة بأضواء خافتة جدّا، باستثناء بقعة ضوء واحدة (سبوت لايت)، تتابع لولا فى حركتها على المسرح. لم تكن هناك مائدة واحدة خالية، ولذلك لم يدعنا أحد الى الجلوس، فبقينا نحن الخمسة واقفين فى أحد أركان الصالة. لاحظت أن حركة لولا على

المسرح، كانت محدودة جدّا، بسبب ضيق المساحة المتاحة لها، وكذلك بسبب قصر طول سلك الميكروفون،

ثمّ انّها كانت كثيرا ما تتوقف عن الغناء، فتتوقف الفرقة الموسيقيّة كذلك باشارة من يدها، لتحيّة أحد زبائن المحل المعتادين، أثناء دخوله الى الصالة للانضمام الى احدى الموائد، أو أثناء مغادرته الصالة فى اتجّاه باب الخروج، بعبارات الامتنان لحضوره، أو بعبارات تمنّى رؤيته قريبا من جديد، كما أن التوقّف عن الغناء كان كذلك أحيانا أخرى لتمكين أحد الزبائن من الصعود الى المسرح، اما لتحيّة زبون آخر، أو لتحيّة المغنية وفرقتها وادارة المحل، مقابل اعطاء المغنية مبلغا من المال (نقطة)، لتغنّى له المغنية أغنيته المفضّلة، وكانت تلك النقطة حسب تقاليد العمل فى ذلك الوقت، تقسّم بالتساوى بين المغنية والفرقة وادارة المحل، فيحصل كل طرف من الأطراف الثلاثة على ثلث المبلغ.

عندما نزلت لولا من على المسرح شاهدتنا، فهى من موقعها على المسرح لم تكن تستطيع أن تشاهدنا، بسبب بقعة الضوء التى كانت تسقط عليها، يبدو أن أفراد فرقتها هم الّذين يراقبون الزبائن المتحرّكين فى الصالة، ويبلّغونها بمن يقترب منهم من المسرح، أو يهمّ بمغادرة الصالة. عندما رأتنى اقتربت منى، وقبضت على يدى بشدّة، كأنّها لاتنوى أن تتركها تفلت منها أبدا بعد ذلك، وعندما خرجنا جميعا من محل ميامى للعودة الى شارع الهرم، اتجّهنا الى سيّارة عادل الفيات، وقد أضطر ثلاثة أشخاص الى الجلوس فى المقاعد الأماميّة، حتّى يتمكّن ثلاثة أشخاص آخرون من الجلوس فى المقاعد الخلفيّة، وقد التصقت لولا بى تماما ولم

يعد يعنيها وجود بقيّة أفراد الفرقة معنا، رغم نظرات محسن المستنكرة، وبعض عباراته التّى يمكن تأويلها الى أكثر من معنى. كانت كأنّها تشعر بالخوف وتريد أن تحتمى بى، ولم أشعر اطلاقا بأنها كانت تحاول اغوائى،

يبدو أننى بسبب الحرج كنت قد انكمشت قليلا، فقالت (هل أضايقك هكذا؟)، قلت (أبدا بالعكس، أنا سعيد بهذا الوضع)، كان الآخرون يتحدّثون فيما بينهم ، قالت (هل تعرف أن المغنية الّتى صعدت الآن على المسرح، عندما كنّا نغادر المحل، متزوّجة من جارسون يعمل فى الصالة؟)، ثم عندما لم أعلّق أضافت (الحب لايعرف هذه الفوارق)، ثم من جديد لم أعلّق فقالت (من الأفضل للمرأة أن تتزوج من شخص يحبّها وهى قادرة على الاخلاص له، على أن تتزوج من شخص هى تحبّه وهو غير قادر على الاخلاص لها). سألتها لماذا لم تحضر أمس وأول أمس، قالت (أمّى فى القاهرة، وقد حضر زوج أمّى الى البانسيون واصطحبنى اليها، وقد أصرّت هى على أن أبقى معها، وأنام فى حضنها).

هذه الليلة عندما انتهى عمل الأوركسترا، التفّ حولى أفراد الفرقة فى الكواليس، بعد أن كانت ليلى قد غادرت المحل، وبدأوا أولا بعبارات النصح، فقال أحدهم (لا تندفع فى علاقة غراميّة مع امرأة ليل)، وقال الآخر (يمكنك أن تقضى معها وقتا لطيفا ولكن بشرط ألاّ تقع فى هواها)، وأضاف الثالث (هذه امرأة مجرّبة لاتعتقد أنّك تستطيع أن تخدعها بذوقك وأدبك). لم يكن قد مرّ على لولا معنا الاّ أسبوع واحد، حاول خلاله هؤلاء الثلاثة لفت انتباهها بكل الطرق الممكنة، فقد بقى أحدهم (يسرى) أمامها ساعة، وهو يرسم لها بورتريه، ثم طلب قبلة مقابل الرسم، والآخر

(محسن) كان يحاول أن يقنعها بأن تحبّه فقط لمدّة أسبوع، قبل أن تقرر مصير العلاقة، أمّا الثالث (عادل) فقد ظلّ يخطط طوال ليلة كاملة ليجعلها تركب معه وحدها فى سيّارته. الوحيد الّذى كان عاقلا هو (أحمد)، كان متزوّجا وأبا لطفلتين، وهو بالاضافة الى كونه موسيقيّا ممتازا لم يكن يتدخّل فيما لايعنيه، ولم يقل لى الا جملة واحدة (لا تثق بها ثقة عمياء).

(٣٢)

كان (أحمد) يسكن فى شارع الاسراء المتفرع من ميدان لبنان، وكنت معتادا منذ بدأت العمل فى شارع الهرم، على مغادرة العبّاسيّة الثامنة مساء لأكون عند أحمد فى حوالى نصف ساعة، ورغم أنّه فى ذلك الوقت من منتصف السبعينات، لم تكن فى القاهرة أى كبارى علويّة، مثل تلك الّتى سنعرفها لاحقا، الا أن عدد السيّارات فى الشوارع كان أقل بكثير مم سيكون عليه الحال بعد ذلك، فمثلا عندما كنت أصل الى شارع الاسراء، كنت أجد أن سيّارتى هى الوحيدة فى الشارع، وكانت الاضاءة شبه منعدمة، وعدد المبانى القائمة أقل بكثير من عدد قطع الأراضى الفضاء، لدرجة أنى كنت أخشى على السيّارة من السرقة.

أصعد الى الطابق الثالث حيث يقيم أحمد مع زوجته وابنتيه، لتستقبلنى الطفلتان بالترحيب، والزوجة بصينيّة أكواب الشاى والبسكويت، لحين استعداد أحمد للنزول. فى تلك الليلة سألنى

(هل تعرف ليلى أنّك مسيحى؟)،

قلت (أعتقد أن تلك الملاحظة كانت قد قيلت لها عند مجيئها فى أول مرّة الى المحل)،

قال (أنا أعتقد أنّها تفكّر فى الزواج منك)، وعندما لم أعلّق أضاف (ان مسألة الدين بالنسبة اليها ليست هى العقبة، فيمكنها أن تحاول اقناعك بالتحوّل الى الاسلام)، (ثم انك طالب فى نهائى طب ويبدو لها أنّك مقتدر بدليل امتلاكك سيّارة)،

قلت (ولكنى لم أجعلها اطلاقا تعتقد بامكان حدوث ذلك)،

قال (أنت مخطىء، فان تصرّفاتك معها تحمل كلّها هذا المعنى)،

قلت (ولماذا أنا؟)،

قال (هذا النوع من النساء يفضّل الزواج من رجال لايشكّون فى سلوكهم)،

قلت (ولكنى لاأفكر فيها اطلاقا على هذا النحو)،

قال (وكيف تفكّر فيها اذن؟)،

قلت (صداقة بريئة وحب استطلاع)،

قال (هى من المؤكد لن تفهم لاهذا ولا ذاك)، سكتنا قليلا

قلت (أنا لا أفكّر فى التحوّل الى الاسلام لمجرّد ارضائها، ثمّ انى مازلت غير قادر على الاستقلال بحياتى الآن، فان هناك دراستى الّتى لم تنته بعد، وهناك كذلك ارتباطى بعائلتى)،

قال (لن يمنعها كل ذلك، فهى ستوافق على أن تصرف عليك حتّى تنتهى من دراستك، ثمّ ان هذا النوع من النساء يضرب عرض الحائط

بالارتباطات الأسريّة) قلت (حيّرتنى، ماذا أفعل؟)،

قال (أنصحك بعدم الوقوع معها فى الخطأ، فان هذا لو حدث يجعل المرأة من هذا النوع تعتقد أنّها قد كسرت عين الرجل، وبالتالى تعتقد أنّها تستطيع أن تطلب منه أى شىء لتصحيح الخطأ، مثل تغيير دينه للزواج منها) ثمّ أضاف (لا تذكر لها أننا قد تحدّثنا فى هذا، والاّ فانّها ستصبح عدوّتى)

تلك الليلة وأثناء فقرة لولا على المسرح، كانت هناك مجموعة من الشباب العرب كانوا قد أغدقوا عليها النقطة، قال محسن وكأنّه يوجّه كلامه فى الهواء (لولا طارت منّك هذه الليلة)، لم أرد فقال يسرى (هذه الفتاة تصبح مصدر شبهات لأى شخص يعرفها، فلو سرت معها لأعتقد الناس أنّك قوّادها)، لم أرد. لم يكن قد مرّ على وجود لولا فى المحل أسبوع، ولم أكن قد فعلت أى شىء أكثر من مجرّد أن أكون لطيفا معها، الاّ أن هذه القصّة كانت قد أثارت الكثير من القيل والقال، ولم يكن لدى أى شك فى أن دافع الآخرين على الكلام لم يكن هو حمايتى منها كما يدّعون (باستثناء أحمد)، بقدر ما كان من الواضح لى أن دافعهم الرئيسى هو الغيرة.

كنت مازلت أعيش فى المرحلة الرومانسيّة من الحياة، تلك المرحلة الّتى استمرّت معى الى وقت متأخّر من العمر، متأثّرا بالعدد الكبير من الروايات الرومانسيّة الّتى قرأتها فى الأدبين المصرى والعالمى، والّتى تحوّل عدد منها الى أفلام سينمائيّة، مثل (غادة الكاميليا)، الّتى يلتقى فيها سليل الحسب والنسب بفتاة ليل يحبّها، ويتألّم لمرضها، وعندما يطلب

الزواج منها، يقنعها أبوه أن تضحّى بنفسها من أجل انقاذ مستقبل الشاب، فتنسحب من حياته. هل كانت لولا تعرف غادة الكاميليا؟

(٣٣)

كان قدامى الموسيقيين فى شارع الهرم يحكون لنا، نحن أصحاب التجربة الموسيقيّة المحدودة، كيف أن الأوضاع كانت حتّى أوائل السبعينات جدّ مختلفة، حين كانت كل المحلات، تقريبا وبدون استثناءات، تسهّل الدعارة، أو توافق بغض الطرف على تسهيلها، بمعنى أن تسمح ادارة تلك المحلاّت للفتيات بالدخول وحدهن، دون أن يكنّ بصحبة رجال، على أساس أن أولئك الفتيات يمكنهن الحصول على زبائن لهنّ من المحلاّت، بشرط حصول المحلاّت على ما يشبه العمولة، وهى من المناظر الّتى مازال بامكاننا رؤيتها فى الأفلام الأبيض والأسود الّتى يعرضها التلفزيون، ويعود زمن أحداثها الى الخمسينات والستّينات.

ثمّ تغيّر الحال مع السبعينات. هل كان نصر أكتوبر هو السبب فى هذا التغيّر؟ هل كان لذلك الاحساس بالكرامة بعض الفضل؟ هل هو تصالح السادات مع القوى الاسلاميّة؟ هل هو تطبيق النظام الادارى بقدر أكبر من الدقّة نتج عنه انشاء النقابات الفنيّة؟ وبالتالي بدأ التدقيق في اشتراك (الفنّانات) في النقابات؟ أنا لا أعرف بعد ما هى الاجابة الصحيحة من بين كل تلك الاجابات.

قد يتساءل البعض عن الصلة بين النقابات الفنيّة وهذه المسألة؟ واقع الأمر أن الصلة مباشرة ، وذلك حيث أن كل فتيات الليل السابقات، وجدن أنفسهنّ مضطرّات الى الحصول على عضويّة احدى النقابات الفنيّة، خاصة نقابة المهن الموسيقيّة، كنوع من التبرير الوحيد المقبول، لتفسير تواجدهنّ وحدهنّ ليلا فى تلك المحلاّت كمغنيات أو كراقصات.

ولكن هذا لم يمنع أولئك الفتيات اللائى لم يتمكنّ من الحصول على عضويّة تلك النقابة من الاستمرار فى الذهاب الى تلك المحلاّت، وحيث ان طريق الاتصّال المباشر بين الفتيات والزبائن، لم يعد ممكنا بعد الغاء بيوت الدعارة، أصبح الاتصّال غالبا عن طريق وسيط، هو فى أغلب الأحوال مدير الصالة، أو مدير المسرح. وهكذا تذهب الفتيات الى المحلاّت بصحبة أى رجل، الزوج أو الأخ أو القواد أو البودي جارد أو سائق التاكسي، وهناك في المحلات يتم التفاوض

الغريب فى الموضوع أن ما حدث فى تلك الليلة الّتى حصلت فيها لولا على مبلغ كبير، وهو ما تعارفنا على تسميته بالنقطة، يدعو الى الشك والريبة، ويبدو أن محسن كان محقّا عندما قال لى أنّها ستطير منّى، وذلك لأنّها فعلا كانت قد اختفت فى تلك الليلة، وكنّا قد بحثنا عنها فى كل مكان، فهى لم تنتظرنا مثلا على مائدة صاحب المحل كما كانت تفعل أحيانا، حتّى ننتهى من عزف مقطوعاتنا الأخيرة بين الرابعة والرابعة والربع صباحا، ولم تنتظرنا فى سيّارتى كما كانت تفعل أحيانا، ولم تترك أيّة معلومات للاستدلال على مكانها، مم جعل محسن يحضر الى سيّارتى المركونة أمام المحل قائلا (لتعرف أنّى كنت على حق، فهى الآن فى شقّة

ما مع تلك الشلّة الّتى أغدقت عليها النقطة، تمارس مهنتها الحقيقيّة وهى الدعارة).

(٣٤)

حوالى الثالثة بعد الظهر اتّصلت تلفونيّا بالبانسيون، فردّت علىّ مارى قائلة ان لولا لا تزال نائمة، وأنى يمكننى أن أحضر فى الخامسة لنوقظها سويّا، فنزلت بالسيّارة الى وسط البلد، حيث ركنت فى شارع سليمان الحلبى، ثم مشيت فى الشوارع أفكّر فى أن أشترى لها هديّة، دخلت أحد محلاّت الكاسيت لأشترى لها بعضا منها، فاشتريت أوّلا شريط أغانى محمد الكحلاوى الدينيّة، وفيها أغنيّة (لأجل النبى).

بحثت قليلا حتّى وجدت كذلك شريطا لأغانى فرقة (عائلة البندلى)، وهو الفريق الذّى يتكوّن من الأب والأم والاخوة والأخوات، وكلّهم يغنّون ويعزفون الآلات الموسيقيّة، وكان ذلك الفريق قد حضر فى ذلك الوقت الى مصر، هربا من جحيم الحرب الأهليّة فى لبنان، وحقّق نجاحا كبيرا بالعمل فى أحد الملاهى الليليّة، وببيع شرائط أغانيه، الاّ أن المدقق كان يستطيع أن يشعر بالحزن على أحوال لبنان، وبالشجن الواضح فى أغلب تلك الأغانى. اشتريت كذلك شريطا لأغانى المغنّى الليبى (ناصر المزداوى) الّذى كان هو أيضا قد حقق نجاحا كبيرا فى مصر فى ذلك الوقت، بأغنيّتى (زىّ الليلة سافروا ما ودّعونا) وكذلك (شنطة سفر).

دخلنا سويّا أنا ومارى الى حجرة لولا، الّتى كانت ما تزال نائمة، كنت

لأوّل مرّة أدخل حجرتها، من الصالون الى حجرة مائدة الطعام، ثمّ ممر طويل يؤدّى أوّلا الى المطبخ والحمّام، ثمّ الى أربع حجرات نوم، تحتفظ مارى بواحدة منها لها، وتؤجّر ثلاث حجرات الى ثلاث فتيات. حجرة نوم لولا واسعة جدّا، بها سرير عريض وصوان ضخم، بالاضافة الى أريكة تبدو مريحة، والى جوارها تسريحة، وهناك كذلك شرفة صغيرة تطل على شارع سوق التوفيقيّة.

تحرّكت لولا فى فراشها عندما شعرت بوجودنا، ثمّ فتحت عينيها وابتسمت عندما رأتنى، قالت (أوّل مرّة ترانى فى الفراش، أنا مكسوفة)، وقبل أن أرد دخلت فتاة أخرى الى الحجرة، كانت شقراء جميلة، لم أكن قد رأيتها من قبل، ولم أكن أعرف من هى، توجّهت بالحديث الى مارى قائلة (لماذا تسمحين لها باستقبال صديقها فى حجرتها، وتحرّمين علىّ ذلك؟)، قالت مارى (ناجى ملاك، أمّا أصدقاؤك فكلّهم شياطين)، نظرت الىّ الفتاة بعدائيّة وغادرت الحجرة دون أنّ تعلّق، عرفت ان اسمها سوزي، وأنّها تعمل فى كافيتريا فى فندق الشيراتون، قالت لولا (ولا يهمّك منها، سوزي دى شرمو.....)، ولم تنه الكلمة، اذ أدركت انّ نطق هذه الكلمة لا يتّفق مع نوعيّة الأحاديث الّتى كانت قد دارت بيننا حتّى الآن.

عندما زرت لولا فى نفس المكان اليوم التالى، وجدت على المائدة الصغيرة الى جوار الأريكة، صندوقا متوسّط الحجم من الورق المقوّى، وبداخله ما لا يقل عن خمسين شريطا موسيقيّا من نوع الكاسيت، أغانى لأم كلثوم وعبد الوهاب وفريد وعبد الحليم، فسألتها (ما هذا؟)،

قالت (هديّة)،

قلت (ممن؟)،

قالت (من سعيد)،

قلت (ومن هو هذا السعيد؟)،

قالت (صديقى)،

قلت (ولماذا هذه الهديّة اليوم؟)،

قالت (حكيت له عنك)،

سألت (وماذا قلت له عنّى؟)،

شعرت بأنّها تضيق بأسئلتى فلم ترد،

سألت (وما معنى كلمة صديق؟)،

قالت (بيحبّنى، ثمّ انّه غنى، وعنده مطاعم فى وسط البلد).

سكتُّ، وأدركت أنّ هناك منافسة ما غير متكافئة بينى وبين هذا السعيد، فعندما علم أمس بأننى قد أهديتها خمسة شرائط ، أهداها هو اليوم خمسين شريطا، ولكنّى لم أكن قد أدركت بعد ما هو مجال هذه المنافسة.

الظريف فى الموضوع هو أنّى بعد مرور بضعة أيّام كنت قد قررت اهداء لولا كتابا، رغم أن كل المؤشّرات كانت تؤكّد أنّها لاتقرأ، ولم أجد أفضل من كتاب (حول العالم فى ٢٠٠ يوم) لأنيس منصور، وهو أحد الكتّاب الذين أحببتهم، ولكن هل كانت هى تعرفه؟، المهم أنّى كنت قد قلت فى نفسى (اذا كانت الكتب تقاس بالحجم فان هذا الكتاب ذا السبعمائة صفحة حتما سيعجبها، ثمّ ان به الكثير من الصور من بلاد

مختلفة قد يعجبها تأمّلها لو هى فقط اكتفت بتقليب الكتاب).

عند زيارتى لها اليوم التالى على اهداء الكتاب، رأيتها لأوّل مرّة بنظّارة قراءة، وفوجئت بوجود عشرات الكتب المتناثرة حولها فى كل مكان، على الفراش والأريكة والكومودينو، لأنيس منصور ويوسف السباعى ومصطفى محمود واحسان عبد القدّوس، وبدون أى سؤال كنت قد أدركت وحدى أنّها هديّة أخرى من نفس السعيد.

فى نفس تلك الليلة، عند مغادرتى شقّة بانسيون مارى، تبعتنى لولا الى باب الخروج، وكانت بقميص نوم ذى حمّالات، يكشف ذراعيها وكتفيها وأعلى الصدر، منعتها من الخروج من الباب، وقلت (لا يصح أن يراك أحد هكذا) فدخلت فورا وأغلقت الباب خلفها، ثمّ فتحت الشرّاعة لترانى وأنا أقف أنتظر المصعد، وكانت على وجهها ابتسامة كبيرة.

فتذكّرت ما كان قد قاله محسن عنها، وهو الوحيد من أفراد الفرقة الّذى كان يعرفها منذ سنوات، قال (لولا انسانة ضائعة، ليست لها أسرة، وليس لها منزل، وليس لها مستقبل مثل بقيّة الفتيات وليس لها أن تحلم لا بالزواج، ولا بانجاب الأطفال، فمن يقبل الزواج من فتاة ليل، الاّ اذا كان ذلك بنيّة الاستغلال، لذلك فهى محتاجة نفسيّا الى من يجعلها تعيش هذا الوهم الجميل، وهم الاحساس بأنّها مثل بقيّة البنات، يمكن أن يكون لها من يخاف عليها ويحافظ على مشاعرها، بغرض أن يجعل منها ذات يوم ربّة بيت).

(٣٥)

تطوّرت الأوضاع تطورا سريعا جدا خلال أربع وعشرين ساعة. اتصلت بلولا في البانسيون، قالت (سأنتظرك في الشارع، لدينا مشوار مهم)، أخذتني الى شارع شهاب، حيث دخلنا الى شقة بالطابق الأرضي، عند المدخل قالت (هذه شقتي، دفعت فيها مدخرات ثلاثة أعوام من الكفاح في الملاهي الليلية، أؤجرها مفروشة حتى أسدد باقي ثمنها ثم أنتقل اليها). فتح لنا الباب شخص يرتدي الملابس العربية، عرفت من لهجته انه غالبا كويتي، وكانت لولا ترد عليه بنفس اللهجة، كان هذا الشخص يتحدث بدون توقف بطريقة استفزازية، كأن لولا مدينة له بشيء ما، ثم اتجه الى حجرة داخلية أحضر منها حقيبة، نقلها له البواب الى سيارة تاكسي تنتظره أمام مدخل العمارة.

كنا نراقبه من الشرفة، قبل أن يركب السيارة، نظر الى لولا وبصق في الأرض. قالت لولا (كان يعتقد انني قوادة، وعندما اكتشف انه مخطىء في ظنه لم تعد شقتي ترضيه)،

- جايباك معايا حماية

- لكن بمقاسات الطول والعرض.....

- دول نفخة كدابة وغالبا صحتهم ضعيفة بسبب طريقتهم في الأكل والشرب، وبعدين دول جبنا جدا، واذا كنت عزت حماية بجد،

عندي السمسار والبواب، لكن كنت عايزاك تشوف بنفسك نوعية المواقف اللي باتعرض لها.

تحركنا من شارع شهاب الى شوارع وسط البلد، لأتأكد من جديد ان لولا تخطط للزواج مني، رغم رأي وجدي صديقي ان فتاة الليل لا تتزوج من رجل مهما كانت مواصفاته، الا بعد أن تجرّبه ولو مرة واحدة في الفراش. كانت الجولة في وسط البلد على محلات الموبيليا، في شارع قصر النيل قرب نهايته جهة الأوبرا. بدأنا بمحل (السمري)، حيث شاهدنا أولا غرف النوم، ثم غرف المائدة المعروفة باسم (طراز صلاح الدين)، سألت البائع (لماذا هذا الاسم؟)، قال (لأن معركة صلاح الدين منقوشة بالبارز على الأبواب).

عند خروجنا من المحل، لامتني لولا على كثرة أسئلتي عن طرز الموبيليا، قالت(كأنك مش عارف أي حاجة)، وقلت في نفسي (وليه كأنك ما أنا فعلا مش عارف أي حاجة)، ولكني لم أعلق. الا ان لومها لفت انتباهي، الى أنه كان أول مظاهر تمرّدها عليّ، على سلبيتي وخنوعي. لاحظتُ أثناء زيارة المحلات، ان الباعة كانوا يعاملوننا كما لو كنا خطيبين. ثم ان لولا ألمحت الى انه قد آن الأوان أن تتخلص شقة شهاب من أثاثها النجس، استعدادا لاستقبال البداية الجديدة. عن أي بداية جديدة تتحدث؟ ومع ذلك فأنا لم أعلق!

في تلك الليلة تسببت لنا لولا في مشكلة كبيرة في الملهى الليلي. اذ دخلت لصاحب المحل تطلب منه، منع الفرقة من مضايقتنا (أنا وهي)، اذ اننا (بنحب بعض وحا نتجوز)، هكذا بدون استشارتي، وبدون حتى

علمي. هل هي محاولة لتوريطي في زواج؟ اذا كانت هذه هي خطتها، فهو دليل على سذاجتها. أنا لم أكن متورطا معها في أي شيء. في نهاية البرنامج جاء عادل ليقول لي (يمكنك اليوم أن تأخذ جيتارك معك، ولا تعد غدا الى المحل، لأن عازفا آخر سيحل محلك!). أضاف (سمعتك أصبحت سيئة جدا، فانت مطرود من المحل لأسباب نسائية).

طبعا انتهز كل من محسن ويسري الفرصة للاساءة اليّ. قال الأول (تضحي بعملك، وأكل عيشك، عشان شرمو....)، ثم قال الثاني (تصل بك الدناءة الى افشاء أدق أسرار الفرقة، وتروح تشتكينا لواحدة زيّ دي). الا ان أحمد وقف في صفي، وأبلغ عادل انه سيكون مضطرا هو الآخر الى ترك المحل، في حالة تركي له، أولا لأنه يعرف اني مظلوم، وثانيا لأن هذا معناه ان أي عازف مهدد في أكل عيشه لأهون الأسباب. كاد عادل أن يرضخ، لولا أن طردي من المحل، كان الرغبة الشخصية لصاحب المحل نفسه.

خرجت بالجيتار واتجهت الى سيارتي، لحق بي حسني البودي جارد، الذي كان يتعاطف معي لمجرد انني كنت قد أخذته معي في السيارة الى امبابة عدة مرات، وهو بطل سابق في الملاكمة على مستوى الجمهورية، قال (الباشا صاحب المحل تضايق جدا مما قالته لولا هذا المساء، فهو لا يحب أن يدخل طرفا في نزاعات الفرقة الشخصية أو العاطفية)، عرفتُ كذلك ان منظر لولا تنتظرني في سيارتي ليال متتالية، أمام باب المحل كان يضايقه، (ان الفرقة تصطاد نسوان على قفاه) هكذا قال.

نصحني حسني أن أنحني للعاصفة، على أن أظل على صلة بأحمد خلال الأيام القادمة، فهناك احتمال كبير أن أعود الى العمل، لمجرد فقط اني قد طاوعت صاحب العمل بهدوء، وقبلت أن يتخلص مني بسهولة. هذا هو ما قاله لي حسني، العجيب انني عرفت فيما بعد انه حاصل على دبلوم معلمين.

(٣٦)

انتقلت لولا الى شقة شارع شهاب للاقامة فيها. عندما اتصلت بها بعد ظهر اليوم التالي لمغادرتي الملهى الليلي بشارع الهرم مطرودا، ردّت عليّ ماري قائلة ان لولا تركت البانسيون، وانها تطلب منك أن تلحق بها في شقتها. كنت عندها في الخامسة مساء، فتحت لي شغالة الباب، واستقبلتني لولا بالحضن والقبلات، سعيدة جدا بما فعلته أمس في الملهى، لم تكن تعرف بعد بنبأ طردي. قررت أن أنتظر قليلا قبل ابلاغها به.

دعتني الى دخول حجرة نومها، قائلة (مفيش هنا لا ماري ولا سوزي، احنا أحرار)، شعرت بالقلق، طبعا أساسا بسبب خوفي من مواجهة موقف مشابه، أن أجد نفسي بلا حجة أمام لولا أستطيع أن أداري بها قلة خبرتي (أو حتى انعدامها) في عالم النساء، ثم انك لا يمكن أن تخبر أنثى بأنها أول امرأة في حياتك. ماذا كان يمكنني أن أفعل؟ كنت أتمنى تأجيل لحظة المواجهة تلك أطول فترة ممكنة، لعل الظروف تخدمني بطريقة غير متوقعة.

فوجئت بأن الحجرة ملحق بها حمّام داخلي، ثم فوجئت بأنها أغلقت بابها علينا، لوجود الشغالة، ثم بدأت (يادي المصيبة) في خلع ملابسها، وأدرت أنا وجهي عنها، الا انها رأفة بحالي على ما يبدو، أبقت على ملابسها الداخلية، وعندما أدرت وجهي اليها وهي على حالها ذاك، ابتسمت قائلة (لسه مكسوف مني، هوه مين فينا الراجل ومين المرة). دخلت الحمام وخرجت منه وهي تلف البرنس حول جسمها، وجدت الحجّة التي أبحث عنها لتأجيل المواجهة، في أن أبلغها الآن بحزني الشديد لأني تركت العمل في الملهى.

- الأرزاق على الله، ويمكن كده أحسن عشان ترجع لمذاكرتك
- مش مستعد حاليا أرجع للمذاكرة، بأفكر أدوّر على شغل في محلات أخرى
- اذا كان عشان الفلوس أنا ممكن أساعدك، احنا نقدر نتحدى الناس، تجيب كتبك وتيجي تقعد معايا هنا
- نتحدى الناس ليه؟ ثم أقعد معاكي بصفتي ايه؟
- صديقي، أو ممكن نتجوز، دلوقتي الشقة موجودة والفلوس موجودة طبعا سهولة حديثها عن الزواج جعلتني أشعر بالخطر
- انتي ليه بتنسي اني مسيحي
- انت لو بتحبني ممكن تغير دينك، وحأكسب فيك ثواب (ضحك)
- ثم اننا يا دوب نعرف بعض من عشرة أيام
- دي مدة كافية جدا اذا كنت صحيح حبتني ولا المسألة مجرد انك

بتعطف عليّ، لو ان المسألة مجرد عطف مش عايزاه

تذكرت كلام أحمد ومحسن، انها تتعلق بقشة أمل، ثمّ انها لاتعرف أي شيء عن الرومانسية، أو انها تقول في نفسها (هذا الشاب يبدو بريئا ساذجا يمكنني أن أضحك عليه، وأحصل على زوج جديد، أن أكون سيدة متزوجة أفضل من البقاء مطلّقة، ثم انه لبراءته لن يشك في تصرفاتي، أروح وآجي زيّ ما أنا عايزة). قررت مغادرة شقتها دون أن أذكر لها أي شيء عن نواياي. قررت أن أختفي من حياتها ولو لمدة أسبوع لأعرف ما الذي يمكن أن يحدث. كنت قد ادخرت بعض المال الكافي لمصاريفي الضرورية، ثم اني أقيم لدى جدتي التي توفر لي السكن والمأكل. وقررت كذلك العودة ولو لبضعة أيام الى محاضرات الكلية.

الغريب انها لم تفارق خيالي. فرغم عدم حدوث أي لقاء جنسي بيننا، الا ان صورتها ظلّت أمامي في كل وقت. ثم هناك كذلك الأمل في أن أحصل على تجربة جنسية، ولو متواضعة. حقا لقد حضرت بعض المحاضرات، وذهبت كذلك الى بعض دور العرض السينمائي، الا ان عشرة أيام مع لولا جعلتني أفكر في العودة اليها. فتحت لي الشغالة الباب، ولحقت بي لولا في صالون الشقة.

- (بتعاقبني على ايه؟ ده انت حتى مش مدّيني رقم تلفونك عشان أعرف أسأل عليك)

- كنت مكتئب

- أنا سبت محل شارع الهرم، اتخانقت مع صاحب المحل، بيسرقني في النقطة

- خسارة

- ولا خسارة ولا حاجة المحلات على قفا من يشيل

(٣٧)

مر أسبوع وأنا مع لولا، أراها كل يوم، في شقتها بشارع شهاب، أمر عليها بالسيارة بعد الظهر تكون قد استيقظت من النوم، أما أنا فلا أعرف كيف ستنتهي هذه القصة، أريد أن أبقى معها، لأكتشف عالم النساء، سبب تافه جدا. وقد حاولت أن أطوّر علاقتي بها بمجهود خارق، فبدأت أقبلها على شفتيها، بدلا من تقبيلها على خدّها، فكانت تضحك من قبلاتي.

أما هي فقد استمرت تفكر في الزواج، لم تتنازل بعد، بدليل مشوار الى صانع ستائر في الخرنفش، ومشوار آخر الى محل مفروشات (حتحوت) في وسط البلد، لشراء قماش للمفروشات في الشقة. الا ان علاقتنا على المستوى العاطفي لم تتطور البتة. أنا بالكاد أمسك يديها وأقبلها على خدّيها، آه نسيت لقد أصبحت أقبلها على شفتيها. أما هي فتسكت.

الى أن بدأت ملامح الفتور تتضح في علاقتنا، فتقول لي (جاي بدري ليه؟) أو تقول (اتفضل استناني في الصالون حاخد حمام) أو (بلاش تيجي النهاردة عندي بروفة في الشقة)، ثم تلقيح كلام (لايمكن واحد محترم يتجوز مغنية) وكنا قد شاهدنا سويا فيلم (آه يا ليل يا زمن) لوردة ورشدي أباظة، أو (يمكن ما لاكش في النسوان) وكنا قد شاهدنا سويا فيلم (قطة على نار)، حيث يلعب أحد الشواذ جنسيا دور صديق نور الشريف، فقالت

(الحالات دي دلوقتي بتتعالج)، كأنها طبيبة أمراض نفسية. تدهورت اذن المسائل بيننا، وأنا ما زلت أصرّ على عدم مصارحتها، بأن لا خبرة لي اطلاقا في عالم النساء، الى أن جاءت اللحظة الفاصلة.

اعتقدت ان زجاجة نبيذ أحمر قد تكون مفيدة في حالتي، فشربت زجاجة كاملة في أقل من عشر دقائق، وأنا في السيارة، أمام عمارتها بشارع شهاب، قلت في نفسي (أشرب وأنزل أروح لها وأعمل حركات جنان). فتحت لي الشغالة الباب، وكنت على وشك السقوط على الأرض فأخذت الفتاة بيدي، وأجلستني في الصالون، جاءت لولا ثائرة (لامنك ولا كفاية شرك، اللي يشوفك داخل علي كده يقول ايه، بيت دعارة، ولا فيك أي فايدة، بتشتغللي موصّلاتي، طب أنا عندي سواق، ثم ايه البرود ده، تلاجة، ده حتى التلاجة فيه منها فايدة، بتسقع الميه، تقدر تقول لي انت فايدتك ايه). كنت أشعر بالدوار التام، ولا أرد.

استأنفت هي الكلام (مش عايزاك تيجي هنا تاني، أنا ست ليّه سمعتي اللي أخاف عليها، ثم اني خلاص حاتجوز، راجل غني جدا، صاحب شركة اسطوانات، وعنده بدل العربية تلاتة، وحيفرش لي شقة في شارع الهرم، وحيعمل لي اسطوانات، تقدر تقول لي انت كانت فايدتك ايه، وجوازة زي دي أرفضها ليه).

(خلاص كده انتهت قصة لولا) قلت في نفسي. قادني السائق من يدي وأنا في هذه الحالة الى سيارتي المنتظرة في الشارع، كدت أسقط على الأرض أكثر من مرة، وظللت في سيارتي لا أغادر المكان، من التاسعة مساء، حتى صباح اليوم التالي، وقد أثارت تصرفاتي شكوك حرس سفارة

قريبة، فطلبوا الاطلاع على رخصة السيارة وبطاقتي الشخصية.

ذهبت صباح ذلك اليوم الى دار روزا اليوسف، بشارع قصر العيني، رغبة في مقابلة منير عامر، الذي كان (ومازال) يقدّم برنامجا في اذاعة الشرق الأوسط، اسمه (تحت العشرين)، كانت تعجبني جدا مقدمته الموسيقية، كلمات عمنا صلاح جاهين (احنا الغنوة/ اللي طالعة جديد/ احنا البسمة/ قبل المواعيد) كنت أشعر انه قد يستطيع مساعدتي، اذا حكيت له. لم أجده في الدار. لم ينقذني من الضياع الا تلفون من أحمد يطلب مني فيه العودة الى الملهى.

بعد حصولي على البكالوريوس، عدت الى شارع الهرم في الثمانينات، لفترات قصيرة متباعدة، وكنت في كل مرة أسأل عن أخبارها، فحصلت خلال سنوات قليلة، على ثلاث نسخ مختلفة، الأولى تقول ان لولا تزوجت من ثريّ عربي، وهي تعيش معه في قصره على الخليج، مع غيرها من زوجاته العديدات، والثانية تقول انها قد وضعت مدخراتها في محل كوافير حريمي في شارع رئيسي بالمهندسين، أو في مطعم سمك بشارع الهرم، أما الثالثة فتقول (للأسف) انها قد قبض عليها في قضية دعارة، أو مخدرات، وأنها مسجونة ومحكوم عليها بعشر سنوات.

تبدو لي القصة الآن، بعد ثلاثة وثلاثين عاما، وكأنها مصوّرة بالايقاع السريع، فلم تستغرق من بدايتها الى نهايتها، الا حوالي ثلاثة أسابيع. لماذا كانت متعجّلة الى هذا الحد؟ أنا متأكد انها لو كانت قد صبرت عليّ بعض الشيء لكنت قد طاوعتها في مسائل عديدة، ولأحكمت قبضتها عليّ. هل شعرت بالذنب نحوي، لبراءتي الشديدة، وقررت أن ترحمني؟

(٣٨)

حصلت على البكالوريوس، وهأنذا أقضي فترة التدريب الاجباري المسماة بالامتياز. كنت فى نوبتجية من ١١ م إلى ٨ ص، فى قسم الاستقبال بالمستشفى العام ببولاق أبى العلا، وكنت أقضى فيه الشهر الأخير من سنة الامتياز. في ذلك الوقت كانت تلك المنطقة المزدهرة حالياً، والتى تقع بين المستشفى وكورنيش النيل، حيث يوجد مركز التجارة العالمى وفندق كونراد، ما تزال منطقة مهجورة ليس بها إلا خرابات ومقالب زبالة وأراضى فضاء! كما أن كورنيش النيل كان لا يزال مظلماً تقريباً تماماً طوال الليل! المهم كان يأتينا فى الاستقبال كل ليلة، العديد من حوادث الكورنيش، لعابري سبيل تصدمهم السيارات، وكذلك لشحاذين فقراء فى أسمال بالية، يأتى الينا بهم المارة فى المستشفى، غالباً فى حالة ضعف شديد وأحياناً حتى فى حالة اغماء !!

ذات ليلة حوالى ٤ ص، جاءت فتاة فى حوالى السادسة عشرة من عمرها فى حالة غيبوبة، ممزقة الثياب، حافية الأقدام، حملها الينا عدد من المارة، لم أفكر الا فى اسعافها، فقمت بتعليق المحاليل لها (جلوكوز وملح)، للتغذية وتنشيط الدورة الدموية، وقمت كذلك بقياس العلامات الحيوية (نبض - ضغط دم - حرارة)، وأدركت أن حالتها معقولة، ولكنى قمت كذلك بطلب عمل فحوص معملية (صورة دم - أملاح الدم - الخ)،

وذلك لمعرفة سبب الغيبوبة الذى كان ما يزال غامضاً....

بعد ذلك وحوالى السادسة صباحاً، حضر نائب الأمراض الباطنية (وهو طبيب أقدم منى بعامين ويعتبر رئيسى المباشر)، سأل من هو الطبيب النوبتجى الذى طلب عمل الفحوص المعملية؟ وكنا ستة أطباء امتياز قائمين بالعمل، فاتجهت الأبصار كلها إلى!! شعرت أننى فى موقف الدفاع عن النفس! وأنه مطلوب منى تبرير أفعالى!!

قلت (أنا). فما كان منه إلا أن وبخنى قائلاً (ما تزال طبيب امتياز وتطلب كل هذه الفحوصات؟) قلت (ولكنى لا أطلبها لنفسى وإنما أطلبها للمريضة). قال (ومن هى هذه المريضة؟)، ثم اتجه ناحية فراشها وبدأ يدسّ يديه فى أنحاء متفرقة من جسمها، فى جيوب جلبابها باحثاً عن شئ ما ! ثم قال (ثم إنها ليست لديها أية أوراق شخصية، وليس معها أقارب، فمن سيدفع ثمن هذه الفحوصات؟) قلت (ولكننا فى مستشفى حكومى وهذه الفحوصات مجانية)، قال (ولكن ليست هناك ميزانية كافية، وليست لدينا أماكن كافية لاستقبال كل من هب ودب، سأكتفى هذه المرة بإنذارك، ولكن بمجرد أن تنتهى تلك المحاليل - وأشار إلى أكياس الجلوكوز المعلقة إلى أوردة الفتاة- عليها أن ترحل وتغادر المستشفى!) كانت الفتاة ما تزال فى حالة غيبوبة، ولم نكن نعرف بعد نتيجة الفحوصات المعملية، ولكن بسبب ما قاله نائب المستشفى، كان علينا أن ننقل هذه الفتاة إلى الرصيف أمام المستشفى بمجرد انتهاء المحاليل!!

(بعد سنتين.....)

كان العمل في المستشفى الجديد يقتضى منى البقاء ٣٦ ساعة

متواصلة (أى من ٨ ص إلى ٨ م اليوم التالى) ثلاث مرات فى الأسبوع !! وهو مجهود خرافي خاصةً اذا عرف أن هذا العمل كان يتوزع بين أربعة طوابق خلال ساعات الليل والنهار، وأن المصعد كان غالباً (وكالمعتاد فى المؤسسات العامة) عطلاناً !! كنت أحضر إلى المستشفى ٨ ص لأبدأ عملى وحتى ١٢ ظهراً بتغيير ضمادات جروح العمليات وتطهيرها لمرضى الدور الرابع (حوالى ٦٠ مريض) كذلك مع متابعة العلاج والاشراف على توزيع الأدوية على المرضى، وكذلك كتابة البيانات اليومية لتطور حالة كل مريض فى التذكرة (الملف أو الدوسيه) الخاص به

ثم من ١٢ ظهراً وحتى الثالثة بعد الظهر العمل فى العيادات الخارجية، لاستقبال المرضى القادمين من خارج المستشفى (كشف وكتابة علاج وكتابة تذاكر دخول إلى المستشفى لمن تستدعى حالتهم ذلك)، ثم من الثالثة بعد الظهر وحتى الثامنة مساءً العمل كمساعد فى حجرة العمليات (استئصال الطحال - الغدة الدرقية - غضاريف الرقبة - حصاوى المثانة.. الخ)، ثم من ٨ م وطوال الليل أظل فى حالة استنفار (حالة استعداد قصوى)، فقد يطلب منى النزول إلى استقبال الحوادث أو طوارئ القلب (أزمات قلبية)، أو طوارئ الولادة (حالات متعثرة أو ولادات حرجة)، وكذلك المرور كل ساعة على قسم الرعاية المركزة....الخ ! ومع كل هذا كان مطلوباً منى الإشراف على سير العمل بشكل عام فى المستشفى (دورات مياه - مصاعد - تغذية المرضى - الاشراف على زيارات أهالى المرضى - الخ)

كنت مازلت فى الثلاثين من عمرى، قادرا على هذا المجهود الجسمانى، حتى بعد أن قبضت أول مرتب شهرى ولم يكن يتعدّى ٥٥ جنيها، استطعت أن أقنع نفسى بالبقاء بحجة التعلم والاستفادة، حتى كان ذلك اليوم الذى لاحظت فيه الاهمال المتعمّد والمتكرر من احدى الممرضات، فذهبت أشتكيها إلى مدير المستشفى، وعندما دخلت حجرته وجدت الممرضة لديه، فقد سبقتنى اليه لتشتكينى، فوجئت أكثر بدفاعه عنها وباشادته بكفاءتها، وبعد أن غادرت تلك الممرضة حجرة المدير وبقيت أنا، قال لى (لا تؤاخذنى فان تركت هذه الممرضة المستشفى لن أجد غيرها فإنهن مطلوباتٌ بشدة فى البلاد العربية، أما إذا تركت أنت المستشفى فأنا أستطيع أن أجد غيرك فى نفس اللحظة لأن عدد الأطباء أصبح ثلاثة أضعاف عدد الممرضات). وكان هذا اليوم هو يومى الأخير فى ذلك المستشفى!

(بعد سنتين.....)

أعلنت نقابة الأطباء، عن حاجة بعض الدول الأفريقية الناطقة بالفرنسية إلى عدد من الأطباء المصريين، للعمل فى وظيفة ممارس عام، بشرط الاجادة التامة للغة الفرنسية. كان توقيت الإعلان مناسباً، اذ اننى كنت قد انتهيت للتو، من متابعة الدراسة لمدة حوالى ستة أشهر، فيما كان يسمى مركز التعاون الثقافى الفرنسى (الكورس المكثف فى اللغة الفرنسية للأطباء)، واعتقدت أنه لا ينقصنى الا قدر من الثقافة العامة فيما يتعلق بالشؤون الأفريقية، فاشتريت أطلس التاريخ الأفريقى، وكذلك مذكرات الطبيب الألمانى (ألبرت شفايتزر) فى أفريقيا، وهو المبشّر المسيحى

الاصلاحى، الذى عندما ذهب إلى أفريقيا لأول مرة، أدرك حقيقة أن أهل أفريقيا كانوا فى حاجة إلى المساعدة المادية، أكثر من حاجتهم إلى بعض الآيات والكلمات التبشيرية، فعاد إلى بلده يقيم حفلات عزف على الأورج الذى كان يجيده ليجمع التبرعات، ووصل به الأمر بعد ذلك، إلى دراسة الطب فى سن الأربعين! المهم أننى قد تقمصت الدور!

عندما ذهبت حسب الميعاد الذى حدده الاعلان إلى مبنى نقابة الأطباء، فوجئت تماماً بالزحام الشديد على الأبواب، وتوقعت أن يكون هذا الزحام لسبب آخر لا علاقة له بوظيفة طبيب ممارس عام! لكنى وللأسف الشديد اكتشفت الحقيقة المرة وهى أن كل هؤلاء الأطباء (حوالى ٣٠٠ طبيب) موجودون هنا الآن لهذه الوظيفة فقط لا غير! وظيفة ممارس عام! وفى أى بلد؟ فى رواندا! ، وليس فى نيجيريا مثلاً (بلد بترولي)! يا عالم كل هذا الحشد لمجرد وظيفة طبيب ممارس عام فى رواندا؟ اكتشفت كذلك أن عدداً من المتقدمين حاصلون على ماجستير فى تخصصات مختلفة! ولكن يبدو أن البطالة قد طالت مهنة الطب! ولا حول ولا قوة إلا بالله!

طبعاً لم يستطع المسؤول إجراء مقابلة شخصية مع كل هذا العدد من المتقدمين، ولكنه اكتفى باتخاذ إجراء مبدئى، وهو استبعاد الحاصلين فقط على بكالوريوس الطب، والاكتفاء بالحاصلين على الماجستير، وكان عددهم كبيراً حوالى سبعين، وكل المطلوب هو واحد فقط! ورغم ان الموضوع لم يعد يخصنى (فأنا لم أحصل إلا على البكالوريوس فى الطب)، إلا أننى بقيت لأعرف ماذا سيحدث؟ وهكذا سمعت الاقتراح القائل بإعطاء العقد لأكبر الأطباء العزّاب المتقدمين سناً (وذلك كنوع

من المساعدة له على إتمام فكرة الزواج!!) أو أن يدخل أفضل المرشحين فى جدل علنى باللغة الفرنسية، ويحصل على العقد ذلك الذى يثبت طول باعه فى اللغة الفرنسية!! وقد طرحت كذلك فكرة الالتجاء إلى القرعة، بأن تكتب أسماء السبعين طبيبا، على سبعين ورقة صغيرة، ثم الخروج الى الشارع لنطلب من أول طفل يمرّ أن يسحب ورقة واحدة (وذلك ليذهب العقد إلى من هو مكتوبٌ له!!)

اشتبك الأطباء بعضهم مع بعض! بل اشتبكوا كذلك مع مندوب النقابة الذى كان قد تدخل لفك الاشتباك!! وانتهى اللقاء بعدم الوصول إلى قرار!! وانصرفت من النقابة قبل أن يصيبني رذاذ الاهانات المتبادلة بين كل الأطراف، والتي كانت قد وصلت الى (يا بقر/ يا جاموس)، وأنا أشعر بالحسرة على الطبيب المصرى الذى لم تعد له قيمة حتى فى مجاهل أفريقيا!

(٣٩)

بعد انتهاء العمل في العيادة الخارجية، الساعة الواحدة من بعد ظهر يوم الخميس، عدت الى المبنى الرئيسي للمستشفى، وكان كل الأطباء الضباط العظام، يغادرون المستشفى في سياراتهم. صعدت بالمصعد الى الطابق الخامس، حيث قسم المسالك البولية، ودخلت الى مكتب القسم لأستريح قليلا، حيث انني كنت مكلفا بنوبة ذلك اليوم. دخلت مباشرة الى دورة المياه الملحقة بالمكتب، لأفاجأ في الممر الى الدورة بوجود النقيب

طبيب حازم (اسم مزيّف)، ومعه الممرضة الجميلة عنايات (اسم مزيّف)، يزنقها بجسمه في الحائط، ويضغط عليها. قلت (آسف) ودخلت الى الدورة وأغلقت الباب خلفي، عندها انسحبت الفتاة الى خارج المكتب، وبقى هو في الممر عندما خرجت قال (طبعا مفيش داعي حد يعرف)، قلت (طبعا، اطمئن).

كنت طبيبا مثله، ولكن من وجهة نظر الجيش كنت جنديا، في حين كان هو نقيبا بثلاثة نجوم، والطاعة مفروضة. كان حازم جميلا ووسيما، طويل القامة بجسم رياضي. تساءلت ان كانت الممرضة مضطرة الى الرضوخ له، أم انها تحبه؟ رغم اننا كنا نعرف في القسم انه خاطب، ويستعد لاتمام الزواج. يوم الخميس التالي لم أكن نوبتجيا، ولم أكن قد حصلت على أي اجازات منذ أسابيع طويلة، فأنا الجندي الوحيد في القسم، ويمكن لأي منهم تكليفي بأن أحل محله في نوبتجيته ولو في آخر لحظة. ذهبت بسيارتي لقضاء ليلتين مع والدي ووالدتي في الشقة المفروشة المستأجرة في الأسكندرية، وعدت الى القاهرة فجر السبت.

اتجهت مباشرة الى المستشفى العسكري، لأني كنت أحتفظ في سيارتي بحقيبة بها ملابسي العسكرية، فلم أكن محتاجا للذهاب الى العباسية لتغيير ملابسي في المنزل. بمجرد دخولي من بوابة المستشفى في الساعة السابعة والنصف صباحا، وجدت أمرا باقتيادي الى الحبس!! ركنت السيارة وذهبت الى السجن الموجود في مبنى مستقل داخل المجمّع الطبي، ولم أكن بعد قد عرفت التهمة.

تركت في حجرة مغلقة لمدة ساعة، ثم جاء مقدّم طبيب ليقول لي (اللي عملته لو في أرض المعركة عقوبته الاعدام). لم أرد، لا أفهم أي شيء. (تترك نوبتجيتك رغم الاحتياج الشديد اليك)، قلت (لم أكن نوبتجيا، ولا يمكن أن أكون نوبتجيا في جمعتين متتاليتين، ثم ان لوحة النوبتجيات لم تكن تتضمن اسمي حتى الساعة الثانية من بعد ظهر الخميس أول أمس). فمدّ يده لي بورقة، فرخ ورق كبير، نظرت اليه في خانة قسم مسالك بولية فوجدت اسمي في نوبتجية الخميس والجمعة.

قلت (عندما غادرت المستشفى الثانية ظهر الخميس لم يكن اسمي موجودا)، قال (الكلام ده تبقى تقوله في التحقيق) واتجه ناحية الباب لينصرف، في نفس اللحظة التي دخل فيها عميد طبيب، قائلا انه سأل عني في القسم، وعندما علم بالقصة حضر فورا. لحسن الحظ كان هذا الشخص يعرف أبي، كان أحد تلامذة أبي في طنطا في أوائل الستينات، قبل أن يتطوع في الجيش، ثم انه يثق فيّ ثقة عمياء بعد أن كنت قد عملت معه في نفس القسم لمدة ستة أشهر

قال (أشهد أمام الله وأمام البشر ان هذا الانسان لم يتأخر يوما واحدا عن أي موعد عمل خلال الفترة الماضية) قالها هكذا بهذه الطريقة المؤثرة، حتى اني كدت أبكي، وتأكدت ان الحقيقة ستجد دائما من يساندها، ثم أكمل حديثه (وعليك - موجها الحديث الى المقدم- أن تبحث بنفسك عن حقيقة الموقف، أن تبحث بنفسك عن السبب الحقيقي، واترك الآن هذا الطبيب يخرج من هنا لأن العيادة الخارجية تنتظره). أصرّ العميد طبيب على خروجي من السجن في نفس اللحظة، وعلى مسؤوليته الشخصية.

كانت لوحة النوبتجيات تكتب بالقلم الرصاص، وكان حازم هو الطبيب المكلف بنوبتجية اليومين السابقين، الا انه كان قد انتظر مغادرتي المستشفى بعد ظهر الخميس، ليمسح اسمه ويكتب اسمي، ويختفي من المستشفى. كانت هناك عدة احتمالات، اما انه اعتقد ان سكوتي وعدم تطاولي على الفتاة هو ضعف مني أراد أن يستغله الى أقصى درجة، واما أن تكون تلك الفعلة هي خط دفاعي له، لتبرير أي عداوة مستقبلية، أي في حالة رؤيتي له مرة أخرى مع نفس الممرضة، أو مع غيرها، فقد اكتشفت انه دون جوان، لا يمكنني أن أفضحه، لأنه سيكون لديه الرد الجاهز، انني أختلق الفضيحة لأنتقم لنفسي من تهمة التزويغ من النوبتجية. هو اتهمني بالتزويغ وأنا بريء، وأنا اتهمته بالفضيحة وهو بريء.

(٤٠)

جاءتني مكالمة تلفونية من صديقي الجيتاريست، طالبا مني برجاء شديد انقاذ الموقف، بأن أحل محل البازيست الذي يعمل معهم، والمضطر الى الغياب شهرا على الأقل في الجيش. الفرقة التي دعيت الى العمل فيها هي الستراينجز، وهي فرقة معروفة، وكانت تعمل في ذلك الوقت في فندق من أهم وأحدث فنادق القاهرة وهو هيلتون رمسيس، فوافقت. طلبوا مني الحضور مساء اليوم التالي لاجراء بروفة على بعض المقطوعات الخاصة بمغنية أمريكية موجودة معهم بعقد مؤقت، اسمها جوين بيري، كان أغلب برنامجها يتكوّن من أغنيات جلوريا جانور مثل

أغنية (سأبقى على قيد الحياة) I will survive، وكذلك أغنيات فيلم كان قد عرض قبل عام واحد هو Fame مثل أغنية (يا له من إحساس) What a feeling. ذهبت الى الفندق في الموعد السابعة مساء، وكان الملهى الليلي يشغل الطابق الثاني.

دامت البروفة حوالي ساعتين، ثم حدثت فجأة حالة من الهرج والمرج في صالة المطعم، اذ تحرك كل أفراد طاقم المطعم الى ركن معين من الصالة، يستطيعون منه رؤية شيء ما، وكان أفراد الفرقة الموسيقية هم أيضا يديرون رؤوسهم كثيرا الى الخلف ويضحكون، للنظر على ما يحدث خلف ستارة المسرح. كانوا يعرفون الموسيقى التي يعزفونها جيدا ويحفظونها عن ظهر قلب، لأنهم يؤدونها مع هذه المغنية كل ليلة منذ شهور، أما أنا فكنت شديد التركيز فيما أفعل، البروفة من أجلي أنا، فلم أفكر في النظر خلفي.

ثم انزاحت الستارة تماما، لتكشف في خلفية المسرح عن فتيات الباليه الروسي اللائي كن يقمن بتغيير ملابسهن، قامت واحدة منهن بهذه الحركة الجريئة، لتريح الجميع نفسيا، بدلا من اختلاس النظر (فيها الخير). أصبحت المشاهد متاحة للكل. كنت قد أدرت رأسي للحظة واحدة، وكانت بعض الفتيات في حالة عريٍ تام. اهتززت للحظة، ولكني تماسكت والتفت أمامي من جديد. في نهاية البروفة قالت لي جوين (اما انك لست مصريا، أو انك كنت تعيش في أوروبا، والاحتمال الثالث هو أن تكون شاذ جنسيا وتفضل الرجال)، فاخترت الحياة في أوروبا.

لماذا يتولد لديّ الاحساس باني رغم كوني كنت مسالما الى أقصى حد، كنت دائما ما أجد نفسي في موقف الدفاع عن النفس؟ مضطرا الى دحض التهم التي توجه الى جزافا. طبعا جوين كانت غير جادة في السؤال الذي وجهته اليّ في الفقرة أعلاه، الا ان أعضاء الفرقة الموسيقية، وكانوا كلهم على درجة كبيرة من الثقافة الأوروبية والثراء المادي، تحلقوا حولي للسخرية مني (شغل ملايكة/ عامل ملاك)، بعد نهاية البروفة، ولم أكن أجيد تقبل السخرية، وتفهم روح الدعابة، فكدت أن أفقد أعصابي لولا تدخل صديقي.

كنت قد حصلت على ترخيص ارشاد سياحي باللغة الانجليزية، وبدأت في العمل كمرشد سياحي، وكان هذا هو أول موسم لي. كنت مرتبطا بعد عدة أيام، بمجموعة سياحية أمريكية كبيرة العدد، مع شركة مصر للسياحة، كانت ستقيم في نفس الفندق. عندما أنهيت عملي معهم خلال ثلاثة أيام، بين المتحف والقلعة ومصر القديمة والهرم وسقارة، أعلنت في ميكروفون السيارة انني لست فقط مرشدا سياحيا، وانما أنا كذلك أعزف على الجيتار، وأعمل مؤقتا في الملهى الليلي التابع للفندق، فجاؤوا كلهم تلك اللياة للسهر عندي. خمس موائد عليها حوالي ثلاثين أمريكيا، كانوا يأتون اليّ أثناء وقوفي على المسرح لتحيتي، ثم جاؤوا أيضا لأخذ صور فوتوغرافية لي معهم.

بالصدفة البحتة كانت الى جوارهم مجموعة سياحية يابانية، قام أفرادها من أماكنهم هم أيضا وجاؤوا لتحيتي وتصويري، معتقدين انني ولابد أن أكون موسيقيا مهما جدا، فاذا كانوا هم لا يعرفون الحقيقة، فان

من المعروف ان الحضارة اليابانية الحالية، كانت قد قامت في الأساس على تقليد الغرب الأوروبي في القرن ١٩

(٤١)

فوجئت بعدد من الفتيات الأجنبيات يجلسن عاريات الصدور!! وجدت فى نفسي بعض الشجاعة للجلوس بالقرب منهن! وبعد قيامهن وجدت فى نفسي المزيد من الشجاعة للصعود خلفهن إلى الجبل، الذى تشغل هضبته حالياً عدة قرى سياحية، أما في ذلك الوقت من الثمانينات فكان يفصل بين فندق مارينا شارم ومعسكر القوات المتعددة الجنسيات التابعة للأمم المتحدة.

عندما هبطت إلى الجهة الأخرى من الجبل لم أجد أى أثر للفتيات! مشيت مئات الأمتار على الشاطئ دون أن أعثر لهن على أى أثر، وقبل أن أقرر العودة من حيث أتيت، لمحت على بعد بضعة عشرات من الأمتار جسماً يتحرك! وكلما اقتربت منه ازداد يقيني إنه لفتاه، وكلما اقتربت اكثر زاد اعتقادى بأن الفتاة لا ترتدي أية ملابس على الإطلاق، يا للهول إنها الحقيقة! ماذا سأفعل؟ هل أعود من حيث أتيت، ويا دار ما دخلك شر؟ أم أستأنف السير؟

عند تلك اللحظة شعرت الفتاة بوجودى ورفعت رأسها، فقررت أن أستأنف السير وكأنها غير موجودة! وهذا هو ما شجعها على البقاء على

ما هى عليه! إلا أن دقات قلبى عندما كنت أعبر أمامها، غير ملتفت إليها، كانت قد وصلت إلى حوالي مئة دقة فى الدقيقة! مشيت مئة متر أخرى ثم جلست على الرمال كأنى أتأمل البحر! خلعت القميص وبقيت بالشورت، ثم بدأت فى ممارسة بعض أوضاع اليوجا، مثلاً كالوقوف على الأكتاف. مرّت حوالى ساعة ونحن على هذا الحال، وحدنا تماماً على هذا الشاطئ المهجور، دون أن أحاول مجرد النظر إليها، أما هي فأنا أعتقد أنها كانت تراقبني.

كنت أحمل معى كتاباً باللغة الإنجليزية عن الحضارة المصرية القديمة، وهو مجلد ضخم من حوالى خمسمائة صفحة، ورق خفيف وبغلاف خفيف، ومليء بالصور والرسومات عن مصر القديمة، كنت قد قرأت فيه حوالى سبعين صفحة، ولم تكن لغتي الانجليزية تسمح بإستيعاب كل ما قرأت، فكنت أضع علامات حمراء أسفل الكلمات الصعبة التى لا يستقيم فهم المعنى دون فهمها. قلت فى نفسي أتحجج بهذا الكتاب واقترب من الفتاة، وفعلاً قمت من مكاني، واضعاً قميصي على كتفي واقتربت منها، وكانت ما تزال كما هي، إلا أنها عندما رأتني أقترب منها وأنوي الحديث إليها، سحبت منشفة غطت بها نفسها.

قلت (صباح الخير، من أى جنسية أنت؟)

قالت (أنا استرالية)

قلت (إذن فلغتك الأم هى الإنجليزية)

قالت (نعم)

قلت وأنا أمد لها يدى بالكتاب (هل يمكن أن تساعدينى فى معرفة معانى هذه الكلمات ؟) أمسكت بالكتاب وأخرجت نظارة طبية من حقيبتها، ونظرت أولاً فى الصفحة المفتوح عليها الكتاب، ثم قلبت فى صفحاته

قالت (يبدو أنه كتاب ممتع، ما هى الكلمات التى لا تعرفها؟)

قلت (كل الكلمات التى بأسفلها أو بجوارها علامات حمراء)

قالت (كل هذا؟)

قلت (فلتساعدينى على قدر استطاعتك، أنا قد حضرت إلى هنا بهذا الكتاب ولكنى نسيت إحضار القاموس)

كانت قد اطمأنت إلى بعض الشئ، وذكرت أنها قبل أن تغادر المكان تريد أن تغطس فى مياه البحر، فقامت ووقفت أمامى بدون أى ملابس، واندفعت نحو البحر لم أعرف ماذا أفعل؟ بقيت جالساً فى مكانى، عادت إليّ وهى تلمع تحت الشمس، ويتساقط الماء من جسمها وشعرها، وبدأت تنشف جسمها وأنا أحوّل بصرى عنها، ارتدت الشورت والتي شيرت، وسرنا سوياً حوالى كيلو مترا واحدا حتى فندق مارينا شرم، فودّعتها حيث إنه الفندق الذى أقيم فيه، أما هى فقد استأنفت المشى بامتداد الشاطئ الخالى تماماً من أى مبان، لتعود إلى صديقها الذى كان ينتظرها فى المخيّم فى نهاية خليج نعمة. كان هذا قبل أن تقتحم المكان جحافل البشر

(٤٢)

لم أفهم أبدا الاصرار على معاملتنا كما لو كنا صناديق قمامة. ومازلت أتساءل عن السر في هذا التدهور المستمر في العلاقة بين الأساتذة والطلاب؟ ومتى وقعت الحلقة الأولى من سلسلة الاذلال المتواصل؟ فكل جيل من أساتذة كلية الطب يتعمد اذلال أفراد الجيل التالي له، ويفوت أولئك الأساتذة ان الضعف المتواصل والمستفحل في مستوى خريج الطب، هو خيانة للأمانة الملقاة على عاتق الأساتذة، أمانة نقل المعرفة، وهي مبرر وجود وسبب بقاء مهنة التدريس. ثم ان الشعب كله يدفع الثمن. انها جريمة خيانة عظمى ثابتة الأركان، ولكن ما الحل في انعدام الضمائر؟

أنا أعرف ان بعض الاساتذة يطلبون من بعض طلابهم في الدراسات العليا للحصول على الدبلوم، توريد أصناف معينة من اللحوم الى منازلهم كل أسبوع، ووصل الأمر في بعض الحالات الى اهداء سيارات في حالة التسجيل للماجستير أو الدكتوراة، وقد يكون هذا مقبولا بحجة ضعف المرتبات، الا ان الأمر اذا وصل الى الاهانة، فليس هناك أي داع له.

كنت أسمع من يقول ان حالة طلاب دبلوم الباطنة أفضل بكثير من حالة طلاب دبلوم الجراحة، اذ ان أساتذة الجراحة يضربون نواب أقسامهم بركلة من القدم في المؤخرة، وأن أولئك النواب يقبلون هذه الاهانات

العلنية في سبيل أن يحصلوا من أرباب الجراحة على أسرارهم المهنية. (في المجموعة القصصية نيران صديقة للعبقري علاء الأسواني قصة تدور حول طبيعة العلاقة بين الأساتذة ونوابهم في المستشفيات الجامعية). تساءلت (هل هذه هي الدراسات العليا؟)

شهد الموسم الثاني لي كمرشد سياحي، انخفاضا حادا في عدد السياح، بسبب مجموعة من الأحداث في المنطقة، منها مثلا ما حدث في سيناء من الجندي سليمان خاطر، وماتبع ذلك من أحداث مثل خطف المركب أكيللي لاورو، وخطف الطائرة المصرية المتجهة الى تونس وتحويلها الى مالطة، ثم أحداث الأمن المركزي في فبراير، وضرب طرابلس ليبيا بالطيران الأمريكي في أبريل. كانت هذه الأحداث هي السبب في ادراكي كم هي هشة صناعة السياحة، وبالتالي ضرورة الاحتفاظ بخيوط عديدة في اليد، هناك مثل صيني يقول (عندما تجلس على الشاطىء تصطاد احتفظ في يدك بأكثر من سنارة). ثم قررت في صيف ذلك العام التوقف عن العمل في شارع الهرم ومحاولة الاستعداد لامتحان دبلوم في الأمراض الباطنة بالاقامة بجوار كلية الطب.

الا ان أوضاع الدراسة في طب بنها ذلك العام، جعلتني أزهد تماما في محاولة الاستمرار. فكنا مثلا ننتظر المحاضر في المدرج ساعة أو ساعتين ولا يحضر ولا يرسل الينا من يعتذر نيابة عنه، كما لو ان وقتنا لاقيمة له، ثم اذا جاء يُفضِّل أن يبقى جالسا في مكتبه، ويتركنا واقفين حوله نتلقى منه محاضرته وقوفا، ويكون أكثر من نصفنا في هذه الحالة خارج المكتب لا يستطيعون التقاط الذهب المتساقط من فمه بسهولة، واذا فكر أحدنا

في الاحتجاج على وقوفنا هكذا، أو الاحتجاج على المستوى المتواضع جدا للمذكرة المطبوعة فوتوكوبي، للموضوع الذي يدرّسه لنا، بأخطائها المطبعية أو اللغوية، نالنا منه التهديد والوعيد. بل أحيانا نلنا ألفاظا قبيحة لا تصدر الا من الأفواه في الشوارع.

(٤٣)

أتممت عامي الثالث والثلاثين، فبكيت بكاء مريرا. هل أنا يسوع مسيح آخر محكوم عليه بالحياة العذرية؟ كانت كل تراكمات الكبت والقهر والتربية المتزمتة والانغلاق الاجتماعي، قد أدّت الى بقائي وحيدا، بدون أي أنثى في حياتي، حتى ذلك السن. بعد ذلك اليوم الحزين، يوم (عيد) ميلادي، ببضعة أيام، حدث حادث جلل، اذ شاهدتني جدتي أثناء ممارسة الاستمناء، كانت معتادة على دخول حجرتي بدون أن تطرق الباب، الذي لم يكن يحدث في غلقه وفتحه أي ضوضاء، وكنت أركز فيما أفعله، لأني كنت قد اكتشفت هذه المسألة منذ مدة وجيزة، فلم ألاحظ أي شيء، الا انها استدارت فورا وخرجت دون أي كلمة. لم نتبادل أي حديث خلال ذلك اليوم.

غادرت المنزل صباح اليوم التالي، يوم شتوي معتدل، وذهبت بالمواصلات العامة الى المركز الثقافي بالمنيرة. كانوا قد طلبوا مني القاء محاضرة عن مصر القديمة، أمام مجموعة من الطلبة الفرنسيين، باللغة العربية المبسطة. بعد المحاضرة مشيت في شوارع وسط المدينة، من

شارع قصر العيني الى العتبة، وأثناء مروري في شارع كلوت بك قررت في لحظة تجلي، عدم العودة الى المنزل لمدة عام، طبعا في الأساس بسبب احساسي بالحرج البالغ من جدتي، الا اني حاولت فلسفة المسألة قائلا (إما ان أصل في نهاية هذا العام الى نتيجة ايجابية في حياتي، أو أن أقرر انهاء هذه الحياة البائسة). كانت فكرة الانتحار تراودني طوال حياتي بالحاح شديد، ولا زالت. كنت أرتدي جاكيت شتوي ثقيل وتحته بلوفر وقميص، ومعي في جيبي حوالي عشرين جنيها.

دخلت أول لوكاندة بدت لي معقولة، وكان اسمها لوكاندة النسيم العليل، سألت عن الأسعار، فعرفت ان الحجرة بسريرين ثمنها ثلاثة جنيهات، ويمكن أن يشاركك فيها شخص آخر فلا تدفع الا مائة وخمسين قرشا، فأخذت واحدة لي وحدي بدون شريك. تمددت بملابسي على الفراش عشر ساعات وأنا أحملق في السقف، كنت قد بدأت أشعر بنوع من الراحة النفسية على اتخاذ هذا القرار، ولم تكن في ذهني الا الأفكار الايجابية.

كانت الساعة قد أصبحت التاسعة مساء، والوقت الباقي يكفي بالكاد، باستعمال المواصلات العامة، للوصول الى آخر شارع الهرم، في العاشرة والنصف مساء، موعد بدء عملي اليومي في أحد الملاهي الليلية. بميني باص من ميدان رمسيس الى ميدان الجيزة، ثم من هناك بالسرفيس الى آخر شارع الهرم. كان مرتبي اليومي عن عملي في هذا المحل، وهو عشرة جنيهات، كافيا لدفع مصاريفي الضرورية، فبالاضافة الى الفندق، كانت وجبة الطعام من أرز وخضروات ولحوم، تكلف ثلاثة جنيهات في

المطاعم الشعبية، التي يسهل العثور عليها بين العتبة وكلوت بك.

كنت أريد أن أستعد للعمل كمرشد باللغة الفرنسية، فاشتريت كتابا واحدا مشهورا جدا كدليل سياحي باللغة الفرنسية عن مصر القديمة، واشتريت كذلك مجموعة من الكراسات والأقلام الملونة، وذهبت في صباح اليوم التالي الى حديقة المريلاند بمصر الجديدة، وجلست الى مائدة منعزلة في أطراف الحديقة، وبدأت في اختيار الفقرات الهامة التي تصف المعابد المصرية القديمة، الكرنك والأقصر والدير البحري ومدينة هابو، ومعابد اسنا وادفو وكوم امبو وأسوان، طريق الكباش والصرح الأمامي والفناء وصالة الأعمدة وقدس الأقداس، والمقابر الملكية في وادي الملوك ووادي الملكات، ومقابر أشراف طيبة وفنانيها، ثم بدأت في كتابة هذه الفقرات بألوان مختلفة، في كراسات مختلفة. استمر هذا المشوار اليومي الى الميريلاند أربعة أشهر

يقول المثل (حتى تتعلم العوم اقذف بنفسك في الماء)، ثم (العمل الجاد هو نصف الطريق الى النجاح، أما نصفه الآخر فهو معرفة الوقت المناسب لاتخاذ القرارات الهامة). كنا في أول مايو وكل الأخبار الآتية من الأقصر تقول ان هذا هو الوقت المناسب، فحجزت تذكرة في قطار الى هناك. هي مدينة أعرفها جيدا، فقد سبقت لي الاقامة فيها شهورا طويلة، ولي فيها عدد من الأصدقاء.

من المحطة ذهبت الى فندق آمون، حيث تركت حقيبتي، ثم نزلت الى مكاتب التوكيلات السياحية بسور الونتر بالاس، وهم يعرفونني، فاذا بهم يقفزون كلهم من مكاتبهم، يريد كل منهم أن يحجزني للعمل معه خلال

أكبر عدد من الأيام في شهر مايو. كان الفضل في ذلك الرواج السياحي غير المسبوق، خاصة في هذا الوقت من العام، هو موسم أوبرا عايدة، حين جاء الى المدينة آلاف السياح من كل بلاد العالم، لحضور عروض الأوبرا التي استمرت أكثر من أسبوعين.

كان حضور العرض خلال الليلة الأولى يكلف ٥٠٠ دولار، لأن أغلب المغنيين والمغنيات والموسيقيين والموسيقيات، قادمون من أوروبا على طائرات خاصة، وهكذا شاهدنا الفراك والسموكنج في كورنيش الأقصر، الممتد من المراسي السياحية، حتى مدخل معبد الأقصر استفدت شخصيا من هذا الرواج الشديد في الحصول على عمل طوال أيام عروض الأوبرا، مع مراكب الشيراتون والهيلتون وشركات فرنسية وسويسرية.

كسبت خلال هذا الشهر ما كنت أكسبه خلال عام من العمل كموسيقي، وما كنت أكسبه خلال ستة أعوام من العمل كطبيب!! (ملايكة بقى لا بياكلوا ولا بيشربوا، ويمكن ولا حتى عايزين يتجوزوا، ويقال ان ما عندهمش أعضاء تناسلية، فالعضو الذكري لديهم هو للتبول فقط، ولا يفكرون في تلك الأشياء الأخرى القبيحة..... والله العظيم معهم كل الحق الدكاترة الصغيرين، لو فكروا يعملوا اضراب عام لمدة غير محددة، الدكتور حمدي السيد له ثلاثين سنة يحاول زيادة مرتبات الأطباء، بلا جدوى).

(٤٤)

أخيرا قابلت أول امرأة في حياتي. أول امرأة أقيم معها علاقة كاملة. كانت ايزابيل في الرابعة والعشرين من العمر، وتعمل في وظيفة كتابية في مدينة فرنسية صغيرة اسمها (نيور)، أبوها سائق تاكسي وأمها مدرسة ابتدائي. كانت ممتلئة الى حد ما، في الذراعين والفخذين، الا انها كانت متناسقة القوام، أي بدون بطن أو ظهر، ثم انها كانت ذات وجه لطيف مبتسم، هادئة ومجاملة.

كنا قد أنهينا زيارات يوم واحد فقط في القاهرة، ثم تحركنا بالأوتوبيس السياحي صباح اليوم الثاني في برنامج المجموعة، لنتجه الى المنيا، حيث كان المركب السياحي الصغير، ينتظرنا في مرسى أبي قرقاص، لنستريح عليه عند الوصول، ثم نبدأ زيارات المنيا بعد الظهر بمقابر بني حسن شرق النيل، ثم تونة الجبل والأشمونين وتل العمارنة خلال نهار اليوم التالي.

كانت معي في هذه الرحلة قائدة مجموعة (تور ليدر) مصرية، هي المسؤولة عن راحة السياح، فتسأل عن طعامهم وشرابهم وراحتهم في كبائنهم، الى آخره.....وهي فتاة مصرية في العشرين من عمرها، مسيحية من أصول شامية اسمها ماريان، في نهائي كلية الآثار، وتجيد اللغة الفرنسية، وتعمل في هذه المهنة فقط خلال الاجازة الصيفية.

أثناء ارتقاء السلالم الحجرية المؤدية الى مقابر بني حسن المحفورة في صخور الضفة الشرقية، التوى كاحل قدم ايزابيل، فتوقف الركب للتداول بخصوص الحل، الحمدلله انه كان في المجموعة أحد الأطباء (فأنا كنت قد توقفت تماما عن ذكر أنني تخرجت في كلية الطب)، عالج الرجل قدم الفتاة بين يديه وأفتى بأن القدم سليم، أي انه لم تحدث أي كسور، انما مجرد شد عضلي.

استأنفنا الصعود ببطء حتى تتمكن ايزابيل من اتمام الزيارة معنا، ولكنها كانت تتكيء على كتف ماريان، ثم جاء أحد الرجال الآخرين وحلّ محل ماريان، ثم جاء رجل آخر بعده، ولمن لا يعلم فالمسافة طويلة، وهكذا وجدت نفسي أعطي كتفي لايزابيل، بعدها رفضت كل العروض الأخرى، من الرجال الآخرين، وظلت معلقة في كتفي الى أن أتممنا الصعود، فتندّر بعض الرجال بان ايزابيل قد اختارتني، وأنني لم أعد حرا كما كنت قبل نصف ساعة. كانوا يعرفون مني منذ أول يوم انني ما زلت أعزب. جاءت ماريان لتقول بالعربية (البنت دي لا زم تعرف ان المرشد بتاع المجموعة كلها مش بتاع واحدة بس لوحدها)!! هل كانت ماريان تغار منها؟ هل كانت تفكر في كعريس محتمل؟

أثناء الابحار عند غروب الشمس جاءت ايزابيل لتقف الى جواري على سطح المركب حيث حمام سباحة صغير، مجرد مغطس لتبريد الجسم، وحكت لي كيف ان الحياة في مدينتها (نيور) مملة جدا، ففي الشتاء حين تغرب الشمس في الرابعة بعد الظهر، وحتى صباح اليوم التالي، يظل الناس في بيوتهم لا يخرجون منها، فتبقى الشوارع خالية تماما من البشر.

كان ذلك تعليقا على زحام الشوارع الشديد الذي شاهدناه في كل المدن المصرية الصغيرة، التي مررنا بها في رحلة الأوتوبيس من القاهرة، ثم كذلك المدن المحيطة بالمنيا، ثم قالت (تبدو لي الحياة في مصر أكثر امتاعا من الحياة في فرنسا)، فقلت (قد تغيرين رأيك بعد أقل من شهر) قالت (لا أعتقد، أنا أتمنى أن أعيش في مصر بقية عمري)!!

تستغرق الرحلة بين المنيا والأقصر أربعة أيام، لا يغادر خلالها السياح المركب الا لعمل زيارتين سياحيتين فقط لا غير، أولا معبد أبيدوس في العرابة المدفونة أمام مدينة البلينا، ثم ثانيا معبد دندرة الى جوار مدينة قنا، أما عند المرور أمام مدن أسيوط وسوهاج وأبوتيج، فان الأمن ينصحنا بعدم مغادرة المركب، فكان السياح، وعددهم عشرون، يقضون أغلب الوقت خلال ثلاثة أيام، على ظهر المركب في حمامات شمس صباحا، مع الاستمتاع بمنظر القرى الصعيدية تمر أمامهم كما لو كانت شريطا سينمائيا، على خلفية من النخيل والجبال ورمل الصحراء، والأمسيات راقصة في صالون بار المركب مع أحدث الشرائط الموسيقية، وكان أغلب ذكور المجموعة بصحبة زوجاتهم.

(٤٥)

التصقت بي ايزابيل خلال تلك الأيام الأربعة، وأنا أخاف منها، وأخاف ان انا حاولت اقامة علاقة معها أن تكتشف قلة خبرتي بالنساء، أو حتى انعدامها. لم أكن أعرف متى سأكتسب الحد الأدنى من هذه الخبرة

المزعومة. بالمناسبة كنت قد بدأت أحصل على انتصاب لا بأس به، أثناء ممارسة الاستمناء، الا ان الوصول الى نفس هذا الانتصاب في وجود شخص آخر معي، حتى لو كانت امرأة جميلة، كانت مسألة مشكوك فيها جدا في ذلك الوقت.

كنت لطيفا ودائم التواجد مع الكل على ظهر المركب، للاجابة على الأسئلة الخاصة بتاريخ مصر أو جغرافيتها أو عاداتها وتقاليدها. في نفس الوقت كنت أتهرب من الاجابة على أسئلة ايزابيل المتعلقة بمسائل عاطفية، حتى قالت لي في آخر يوم قبل الوصول الى الأقصر، وقد أشرفت على اليأس مني (اما انك متزوج ولديك ثلاثة أولاد أو انني لا أعجبك). يبدو أنني كنت الذكر الوحيد المتاح أمامها، وهي محتاجة الى مغامرة عاطفية مع رجل مصري، قبل العودة الى (نيور) الكئيبة جدا في الشتاء.

عند الوصول الى الأقصر، قمنا بعمل زيارة معبديّ الأقصر والكرنك فى الفترة الصباحية، ثم عدنا إلى المركب حيث جلست فى البار مع عدد من الزبائن. بعد الغذاء ذهبت إلى فندق الايتاب، حيث يعمل صديقى يسرى عازفاً للدرمز مع فرقة النايت كلوب الموسيقية. بقيت معه حتى ٩ م ميعاد عمل الفرقة، وعندما علم عازف جيتار الباز بوجودي، طلب مني أن أحل محله تلك الليلة، فوافقت فوراً وصعدت معهم إلى المسرح، ولعبت معهم طوال السواريه. وأثناء السهرة جاء بعض السياح الفرنسيين من زبائنى لحضور عرض الفرقة، وكان من بينهم ايزابيل!

عندما عدت الواحدة صباحاً إلى المركب ودخلت كابينتي، سمعت دقّاً على باب الكابينة، فتحت الباب فوجدت ايزابيل واقفة، وفى يدها

ورقة سلمتني اياها، وانسحبت من أمامي فوراً! بدأت أقرأ (منذ خمسة أيام وأنت تتجاهلني ولكني لن أيأس، فعيناك تدفئانني أكثر مما تفعل شمس مصر، وابتسامتك تضيء لياليّ، من أجلك سأقيم معبداً للحب، وفيما بعد سأحنطك فيه حتى أحتفظ بك حتى آخر الزمان، أنت أيها الأبدي، أنت يامن تسود الكون، سأهبك قلبي وقالبي، روحي وجسدي، ....)!

هل هذا حقيقي أم أنه مقلب للسخرية؟ بقيت بعض الوقت محتاراً ماذا أفعل، وذلك لقلة ثقتي بنفسي، ولكن بعد ذلك تغلبت الأفكار الإيجابية على الأفكار السلبية، وقلت فى نفسي (أخيراً وبعد طول انتظار، جاءت فتاة من بلاد الفرنجة لتقول لي هذا الكلام، هذه الورقة هي الدليل على صدقها، فلو انها كانت تريد اللعب بي لفعلت خلال الأيام الماضية، ولكن الحقيقة هي انها مصممة على الحصول عليّ، ويجب أن أستفيد من هذا الوضع).

استغرق الأمر اسبوعا كاملا، من ليلة الأقصر الى آخر ليلة لنا سويا في فندق (شاتو دي بيراميد) في بداية الطريق الصحراوي بالقاهرة، كل ليلة تأتي لتبقى معي في كابينتي أو في حجرتي، تتحدث اليّ في مواضيع عامة، عن مصر وفرنسا، بدون اشارة الى الجنس، هي في حضني عارية تماما، وأنا كذلك، ولكننا نتجاهل هذا، وبدأ وكأنه بمعجزة الهية، يحدث لي انتصاب، كانت تنظر اليه وتبتسم، أو تنحني لتقبله. حكيت لها عن كل شيء، الا عن كونها أول امرأة في حياتي، ادّعيت ان علاقاتي الجنسية كانت كلها مع فتيات ليل، وانني معقد منها، من لون بشرتها، ومن الأجنبيات الشقراوات الجميلات بشكل عام، ومن كونها فرنسية بشكل خاص،

فالفرنسيون هم قمة الحضارة (هكذا قلت). قررت أن ألبس مركب نقص وعقدة دونية، كحل وسط.

ثم فجأة في الليلة قبل الأخيرة لنا معا، وكانت ممددة على ظهرها وأنا الى جوارها، استدارت ناحيتي، وحركت فخذها قليلا، فحدث ولوج، هكذا بكل بساطة. يالها من كلمة جميلة ساحرة (ولوج)، أخيرا تأكدت من أنني ذكر. ولكن اذا كانت هذه المسألة تتم هكذا بكل هذه البساطة، فلماذا اذن كان كل هذا العذاب طوال كل تلك السنوات؟ ياله من اهدار لطاقة الشباب وحيويته، محاط بكم هائل من المحرمات والقيود والعذاب والنار. ويالك من ساحرة عزيزتي ايزابيلا الجميلة، الرقيقة المتفهمة، شكرا لك. حتى الآن وبعد مرور ثلاثة وعشرين عاما أبكي كلما تذكرتك، كنت أحن عليّ من أمي وأبي.

(٤٦)

(بعد بضعة أشهر.....)

كالمعتاد كان برنامج اليوم الأول، هو المتحف المصري صباحا، والقلعة والسلطان حسن بعد الظهر صباح اليوم الثاني عندما كنا في سقارة، لفتت انتباهي أسرة (مارك) الطبيب وابنتيه (آن) و(كورين)، هو في حوالي الستين من العمر، والفتاتان في العشرينات. لم أعرف من منهما الأكبر في السن، كانت آن شقراء طويلة، كثيرة الحركة والكلام، أما كورين فكانت صغيرة الحجم، ذات شعر أسود قصير، وملامح متوسطية، هادئة

جدا، وعلى وجهها تعبير حزين، ورغم ان آن أجمل الا اني كنت أكثر ميلا لكورين. أثناء وجودنا في محل البرديات، جاءا معا وطلبا مني مساعدتهما في شراء بعض البرديات لتقديمها كهدايا، ثم لحق بنا الأب.عرفت منه ان كورين ٢٥ سنة، وآن ٢٢ سنة، وان أمهما ماتت منذ عشرة أعوام، فحاولت كورين تعويض أختها الصغيرة غياب الأم بنكران الذات، وأضاف (لهذا فهي تتسامح معها في كل شيء).

بعد الظهر في أثناء زيارة الأهرامات وأبي الهول، لاحظت ان آن تتحداني الى حد ما، فتتكلم أثناء شرحي، أو تستعمل مفردات عامية فرنسية argot غير مفهومة اذا أرادت توجيه سؤال لي، وكان أبوها ينقذ الموقف باعادة صياغة السؤال. ثم علق (انت تعرف ان الشبان الفرنسيين لهم لغتهم الخاصة بهم، التي تقلب الحروف في بعض الكلمات، ثم انهم عدائيون بشكل عام، هذه المسألة غير موجهة لك انت بشكل شخصي)، أحببت الأب. وقررت ان أتجاهل آن تماما، وأهتم بكورين.

صباح اليوم التالي أخذنا الطائرة الى الأقصر، ونزلنا في فندق الهيلتون الذي كان قد افتتح منذ أقل من عامين. انشغلت بصديقي عازف الجيتار في الفرقة التي تعمل هنا في النايت كلوب، سألت عنه بالتلفون فجاء للقائي. لم يكن من المعتاد في هذه الفنادق استلام الحجرات قبل الثانية بعد الظهر كنت في استقبال الفندق في العاشرة صباحا، حيث مكان تجمّع سيّاحي للذهاب بهم الى زيارة معبديّ الكرنك والأقصر بعد نهاية الزيارة عدنا الى الفندق، فاستلمت مفتاح حجرتي، لأكتشف أنها رقم ٣٨٧، في حين أن حجرة الأب هي رقم ٣٨٨، وحجرة الفتاتين هي رقم٣٨٩.

تصادف ان كانت لحظة خروجي من حجرتي، هي نفس لحظة خروج الأب والفتاتين، فدعاني الى مشاركتهم المائدة التي عادة ما تكون لأربعة أشخاص. قبيل نهاية العشاء انسحبت آن لتلحق بشباب المجموعة الذاهبين لاكتشاف الأقصر ليلا، ثم الذهاب للرقص في ديسكو أوتيل ايتاب. قال الأب (وأنتِ) ردت كورين (أنت تعرف انني لا أحب الرقص، لماذا تسألني). كان الأب لطيفا، وكانت كورين تبدو لي متوترة، كأنها تعرف انها مقبلة على تجربة.

المشكلة في فرنسا هي انه رغم (ويجوز بفضل) الحرية الجنسية المبكرة جدا في الحياة (تقول الاحصاءات ان المراهق الفرنسي في المتوسط يمارس الجنس مع زميلته في الفصل لأول مرة وهو في الرابعة عشرة من العمر)، فانه عندما يصل الى الخامسة والعشرين يكون قد زهد في الجنس، وحتى لو فكر الشاب الفرنسي في الممارسة الجنسية، فانه قلما يفكر في الزواج أو حتى في الارتباط بدون زواج. ثم حتى لو فكر في الممارسات الطارئة، فان لن يفكر في كورين، طالما كانت هناك فتيات أجمل وأصغر سنا.

عرفت أثناء الحوار الدائر بيننا، أن كورين ممرضة في باريس، حيث تسكن وحدها. عندما أنهى الأب عشاءه، تركنا وحدنا على المائدة، وقام قائلا (أنا سأذهب لأنام، أنتِ في أيدي لأمينة). كان من الواضح ان الأب يتركنا لتكون لنا حرية الحديث في موضوعات أخرى، من الواضح أنه يحاول مساعدة ابنته الخجول المكتئبة على الوقوع في مغامرة عاطفية، مع شاب شرقي أسمر (متحضّر؟).

في فرنسا اذا كانت الفتاة ما تزال عذراء في سن الثامنة عشرة، فانهم يذهبون بها الى الطبيب النفسي! قد يكون هذا هو السبب الرئيسي لرحلتهم كلهم الى مصر، جاؤوا جميعا سويا حتى تجد كورين مغامرة عاطفية، تعيد اليها قدرا من ثقتها في نفسها، فعلى ما يبدو ان آن لم تكن لديها مشكلة مع الرجال، أما كورين فوضعها مختلف. عندما قام الأب رأيت على وجهه ابتسامة امتنان، كان قد تعمّد أن أراها، وأن أفهمها. (وصلت الرسالة، ولن أخيّب ظنك، لا تقلق).

(٤٧)

تحدثنا لمدة ساعة في موضوعات مختلفة ليس من بينها أي موضوعات عاطفية، ثم قمنا سويا متجهين الى حجرتينا، وأمام باب حجرتها قبلتها على خدها قبلة سريعة، وتركتها واقفة ودخلت حجرتي. مخاطرة الى حد ما، ولكني فكرت في انها قد ترفض الاقتراح الذي كنت أفكر فيه، وهو دعوتها الى حجرتي، فلو رفضت يستحسن الا يكون هذا وجها لوجه، وانما يفضل التليفون. كنا قد تحدثنا أثناء العشاء عن رواية فرنسية كنت أقرأها، رفعت السماعة (كورين لو مش عايزة تنامي تعالي ساعديني في قرائة كام صفحة)، قالت (دقيقة واحدة حاكون عندك).

لم أعد أتذكر ان كان هو سعيد صالح الذي قال (في أي مسرحية؟ مدرسة المشاغبين؟) ان المناهج سهلة في أوروبا. كانت كورين جميلة جدا، على غير ما توقعت. كنت أتوقع صدرا ممسوحا، فاذا بي أجد صدرا

رائع الجمال، ثديين صغيرين ولكنهما جميلان، باستدارة حنونة، وحلمتين ورديتين، قلت في نفسي (هذان الثديان لم يتعرضا لأي عبث منذ مدة طويلة)، ثم قوام رشيق وأطراف رقيقة جدا. عندما دخلت كنت قد جعلت اضاءة الحجرة خافتة، وأدرت موسيقى هادئة، قادمة من الاذاعة الداخلية للفندق، وبدون أي كلام، أخذتها في حضني وقبلتها على شفتيها. بعد لحظة قالت (فين الرواية؟) قلت (أهه) ، وطوحتها فسقطت خلف الفراش فضحكت. (لكن انت أكيد عندك قصص حب كتير كل مجموعة سياحية فيها واحدة جديدة) (أبدا مش زيّ ما انتي فاكرة).

كانت قد جلست على كرسي مريح، فركعت أمامها وقبلت يديها، ثم حضنت ساقيها، وخلعت عن قدميها الحذاء، كان القدمان أقرب الى قدميّ طفلة. قالت (أنا قذرة وعرقانة والتراب يملأ جسمي)، قلت (اذن نأخذ حماما ساخنا). خلعت عنها القميص الخفيف الذي كانت ترتديه، كنت متمهلا جدا، (كما يفعل الممثلون الفرنسيون في الأفلام السينمائية في هذا النوع من المواقف)، لمست الكتفين العاريين وقلت (انت ناعمة جدا)، فزادت الابتسامة على شفتيها. قالت (منذ رأيتك أول يوم وأنا أحلم بهذه اللحظة، ويوم بعد يوم وأنا انظر اليك وأنت تشرح لنا الآثار، لم أكن أفكر الا في الطريقة التي يمكنني بها أن أقبلك على شفتيك).

لمحت شعر الابط الأحمر، قالت (ورثته عن أمي، كل شعرها كان أحمر، ولكني أصبغ شعر رأسي بالأسود)، فأشرت بأصبع يدي الى أسفل البطن وعلى وجهي ابتسامة ماكرة، فقالت (انت شيطان) وضحكت. وهكذا اكتملت أسباب الغواية، هذا الاكتشاف الأخير يعتبر في حد ذاته

سببا كافيا.

يستفيد كل مرشدي مصر الذكور، من وقوع الاناث الخواجات في سحر مصر، أثار مصر وعظمة الفراعنة، والاله مين اله الاخصاب الدائم الانتصاب، والشمس الحارقة، والصحراء، والرحلة النيلية، وتاريخ آلاف السنين. ليس من المهم على الاطلاق أن يكون المرشد جميلا أو وسيما، ولكن من المهم أن يكون ذكيا ولبقا، فالأنثى خاصة تلك التي تأتي وحدها، سيكون همها الأول هو الحصول على مغامرة عاطفية بأي ثمن، ولكن بشرط قدر من الذكاء واللباقة. أحسنت صنعا باختيار هذه المهنة، فلم يكن هناك أي حل آخر للخروج من مأساة مراهقتي الساذجة، وشبابي البائس.

دق باب حجرتي، قالت (هذه هي آن أختي، كنت قد ذكرت لها أنني سأكون معك، هي فقط تريد مفتاح الحجرة)، قامت وفتحت الباب وهي بملابسها الداخلية، وتحدثت دقيقة مع أختها، وكنت أنا ممدا على الأرض خلف الفراش، حتى لا تراني آن، في محاولة للاختفاء بسبب احساسي بالكسوف. هذه هي الصراحة الفرنسية، ليس هناك ما يستحق اخفاؤه. وليس هناك أي لفّ أو دوران، قالت لأختها انها عندي، هكذا بكل بساطة. كانت زوجتي الفرنسية فيما بعد تقول للأعور انت أعور في عينه، ولم تفهم أبدا محاولات اللف والدوران المصرية، لتخفيف وقع الحقيقة على الأعور.

في اليوم التالي طلبت كورين مني، ضرورة اتخاذ الاحتياطات اللازمة، باستعمال الواقي الذكري، قلت في نفسي (لو كانت تخاف احتمال أن

أكون مصابا بالايدز لما مارست معي الحب أمس، غالبا هي تخشى الحبل)، وكانت اللحظة التي دخلتُ فيها احدى صيدليات الأقصر، لطلب الواقي الذكري، واحدة من أسعد لحظات حياتي، فها هو ذا الدليل الأكيد على ذكورتي، منطوقا به بصوت مرتفع أمام عدد من البشر، الدليل على خطورتي على النساء، تلك الخطورة التي تلزم لها هذه الوقاية. يا لسعادتي!

(٤٨)

لماذا قررت الزواج من ريتا؟

١ - كانت ريتا تمر أمام محل بيع طيور وحيوانات، عند تقاطع شارعيْ ٢٦ يوليو وسليمان باشا، فوجدت صقراً صغيراً محبوساً فى قفص. عند مراقبتها للطائر لاحظت وجود فرق فى الحجم بين ساقيه، دققت النظر أكثر، فلاحظت وجود خيوط ملفوفة بشدة أسفل الساق المنتفخ، فأدركت أنه يعانى من احتباس فى الدورة الدموية لهذه الساق. حاولت أن تلفت انتباه صاحب المحل إلى ذلك، إلا أنه لم يفهمها ولم يهتمّ بها، فقررت شراء هذا الطائر لتخليصه من عذابه.

عادت به إلى المنزل فى قفص، مازال موجودا في بلكونة الشقة منذ عشرين عاما لا أعرف ماذا أفعل به، ثم جندت الكل للعمل، أولاً لإخراج الطائر من قفصه، فارتدى واحد قفّازات جلدية ليمسكه بها، لتقييد حركة ساقيه، وأمسك آخر برأسه ومنقاره، حتى يتمكّن شخص ثالث (أنا) من

قطع الخيوط باستعمال أمواس حادة. كان الطائر المسكين لا يثق فينا ويشك تماما في نوايانا، من المؤكد بسبب خبرات سابقة مع الجنس البشري، هي التي قادته الى أن يصبح بضاعة تعرض في فاترينة محل. بعد ذلك بأيّام تمّ اطلاق سراح هذا الصقر فى صحراء سيناء، عندما ذهب بعض الأصدقاء فى رحلة بسيارتهم إلى شرم الشيخ.

٢- فيما بعد سأجد فى أوراق ريتا وحاجياتها الشخصية، عدداً كبيراً من الصور التى تجمع بينها وبين حيوانات مختلفة. مثلاً صورها عندما كانت قد ذهبت مع صديقتها المصورة المحترفة إلى بترا فى الأردن، وباتا ليلتهما فى خيمة فى الصحراء، وإذا بهما صباح اليوم التالى، تفاجآن بوجود ماعز (معيز) داخل الخيمة، تبحث عن شيء تأكله. وكذلك صورها عندما كانت فوق جبال الألب بين فرنسا وإيطاليا، إذ نراها وهى تحتضن الماعز الجبلية. وهي التي تتميز ذكورها بقرون جميلة. ثم إنى لاحظت في شقة الزمالك، أن ريتا كانت تترك قطع الخبز على مائدة الشرفة حتى يأتى الحمام فى الصباح الباكر ليتناول إفطاره.

٣- أما القصة الأكثر غرابة من كل ذلك، فهي قصة البرص. وكنت قد دخلت مطبخ شقتنا تلك، والعمارة قديمة من الأربعينيات، فوجدت ريتا تقف عند حوض المطبخ ممسكة ببرص صغير فى يدها بحرص شديد، وذلك لتنقله إلى حافة نافذة المطبخ ليتمكن من الهرب. سألتها (بتعملي ايه) قالت (البرص المسكين في حالة انهيار عصبي، خايف من الأذيّة المعتادة بدون سبب رغم انه حيوان لطيف)!!..... وقد تكرر هذا المنظر عدة مرات فكانت ريتا تمسك البرص الصغير من ذيله، ثم تنقله إلى

راحة يدها الأخرى، ويكون البرص فى تلك الحالة مذعوراً جداً، خوفاً مما يمكن أن يحدث له على يد أحد المصريين (فهو لا يعرف أنها فرنسية)، إلا أن الأبراص عندما بدأوا يعرفونها، أدركوا أنّهم عندما يكونون معها، فهم فى أيدٍ أمينة، فأصبحوا لا يحاولون الفرار، وإنما كانوا يسكنون لحظات.

٤- ثم إنّها عندما أقامت فى المغرب ستة أشهر، كانت ذات مرة أثناء زيارتها لسوق جامع الفناء بمراكش القديمة، قد اشترت حرباء تتلون طول الوقت بدون توقف، واحتفظت بها فى حجرتها بالفندق فى قفص، كما لو كانت عصفوراً، وكانت تخرجها طول الوقت عندما تكون فى حجرتها، لتداعبها وتتحدث اليها، وترى كيف تتلون طول الوقت، بألوان أثاث الحجرة، وألوان ستائرها وأبسطتها المختلفة. إلا أنها ذات مرة نسيت وتركتها دون وضعها فى القفص، وعادت آخر النهار لتكتشف اختفاءها. عرفت بعد ذلك أن عاملات النظافة المغربيات قد قتلنها غرقا في دورة المياه، وذلك لاعتقادهن بأن ذلك يخزى العين الشريرة.

٥- عندما قابلتها لأول مرة كانت في التاسعة والعشرين من العمر بملامح جميلة، عينان زرقاوان وشعر أشقر، وجسم رشيق جدا، زيادة عن اللزوم، لدرجة انها لم تكن تزن الا ٥٠ كيلوجلراما، في حين انها تبلغ ١٦٧ سنتيمتر طولا كنا في معبد دندرة وكانت توزع حلويات على الأطفال المصريين، ثم كذلك فرش أسنان ومعاجين. لأول ولآخر مرة في حياتي كنت أرى هذا، خلال ربع قرن من العمل كمرشد سياحي.

هذه هي الأسباب الخمسة التي أدّت الى رغبتي في الزواج من ريتا.

(٤٩)

هذا يحدث دائماً مع ريتا، عندما تتقابل مع شخص ما، رجلاً كان أو إمرأة، تحكى له أو لها كلّ شئ عن حياتها بمنتهى البساطة، وحيث إنّها كانت قد أحبت مصر من أول نظرة، فهى تنهى حديثها ذلك بأن تقول إنّها قد قررت أن تستقر فى مصر، وأن تطلب من الشركة التى تعمل معها أن تبقى فى مصر أطول فترة ممكنة وتضيف (أنا لم أحب المكسيك ولا اليونان، يجوز أننى قد أحببت المغرب قليلاً، ولكن حب مصر أنسانى كل شئ). عندما زرت أمها في نيس لأول مرة، شاهدت صورا فوتوغرافية لحجرة ريتا وهي طفلة، وقد علقت على الجدران صور الأهرامات والجمال.

كان ذلك اللقاء الثاني مع ريتا أمام معبد الكرنك، فى أحد أيام يناير ١٩٩٠، أثناء وجود مجموعتينا السياحيتين داخل عرض الصوت والضوء. بقينا سوياً حوالى ساعة نتحدث بعد أن كان التورليدر الفرنسي قد قدمنى إليها قائلاً (هذا هو أفضل مرشد فى مصر) ثم قائلاً لى (أقدّم لك أجمل بنت في فرنسا). كان الجو بارداً جداً، وكانت ريتا ترتدى بالطو أسود طويل، وترفع ياقته لتغطى بها عنقها، وبعد أن تحدثت معي بعض الوقت، انحنت على الأرض لتداعب عنزة صغيرة، من تلك القطعان التى تمر أمام المعبد فى طريقها إلى قرية الكرنك خلف المعبد، رفعت ريتا العنزة من على الأرض وحملتها بين ذراعيها لتقبلها، غير مهتمة إطلاقاً بأن

تكون هذه العنزة قذرة، أو أن يؤدّى هذا إلى اتساخ البالطو.

ثم حدث أن اتصل بى التورليدر الفرنسي المقيم في القاهرة في التاسعة مساءاً ليقول لى إنه لن يكون معى فى مجموعتنا السياحية الجديدة التى ستبدأ غداً، لأنّ درجة حرارته الليلة هى ٤٠°م، سألته (ماذا سأفعل وحدى؟) قال (حلت ريتا محلى هل تتذكرها؟ تلك التى قابلتها معى أمام معبد الكرنك منذ حوالى شهر) قلت (نعم أتذكّرها) قال (هى التى ستذهب إلى المطار لاستقبال الناس، وهى التى ستكون معك خلال يوميّ برنامج القاهرة، وغالباً هى التى ستكون معك خلال الرحلة النيلية من أسوان إلى المنيا).

كان ميعاد لقائى بالمجموعة هو التاسعة صباح اليوم التالى، أمام فندق شيراتون الجزيرة، فى ساحة انتظار السيارات. تعرفت على سائق الشركة فقد سبق لنا العمل سوياً أكثر من مرة. صعدت إلى الأتوبيس فاكتشفت وجود كل السياح الثلاثين بداخله، جالسين فى أماكنهم، ثمّ قالوا جميعاً فى نفس واحد عندما رأونى (بونجور يا ناجى)، ثم نظروا جميعاً فى ساعاتهم، فى حركة بدا بوضوح أنهم كانوا متفقين عليها. اكتشفت أنى كنت قد وصلت متأخراً عشر دقائق، إلا إن حركتهم سوياً المتفق عليها وكذلك ابتساماتهم، جعلتنى أفهم أنهم ليسوا غاضبين.

كانت ريتا ترتدى ملابس بسيطة، بلوفر وبنطلون وحذاء خفيف وجاكيت، كما إن مكياجها كان بسيطاً، وشعرها ناعم وقصير كانت ترتدى نظارة طبية، وكان شكلها لطيفاً ويدعو إلى التآلف معها بسهولة. ولكن أكثر ما لفت انتباهى ذلك الصباح هو أنها لم تتركنى لحظة واحدة،

فقد تابعت زيارة المتحف المصرى معى لمدة حوالى ثلاث ساعات ونصف، وهو ما لم يفعله من قبل أى قائد مجموعة أجنبى (تور ليدر)، فهم من كثرة زياراتهم للقاهرة، وعودتهم الدائمة إلى آثارها ومتاحفها مع السياح ومع المرشدين المختصين، فإنهم عادة ما يفضلون البقاء فى دفء شمس حديقة المتحف شتاءاً، أو الذهاب إلى المكاتب المكيّفة فى مقر شركات السياحة صيفاً، ويعودون إلى المتحف بعد ذلك فى الموعد المتفق عليه مع المرشدين فى نهاية الزيارة.

بعد زيارة المتحف ذهبنا لتناول طعام الغذاء، فى مطعم أندريا للفراخ بالهرم، وكنت فى تلك الحالات أفضل الابتعاد بعض الوقت عن الزبائن، لأريح دماغى من كثرة أسئلتهم، والتى سيحصلون على اجابات لها بالتدريج، خلال الأيام القادمة ولمدة حوالى اسبوعين، إلا أنهم دائماً يتعجلون، ويقومون بإلقاء كل الأسئلة التى تخطر على بالهم هكذا كلها مرة واحدة ومنذ اليوم الأول.

كنت أفضّل الذهاب مع السائق إلى مائدة منفردة بعيدة عن مجموعة الموائد التى يشغلها سياحى، خاصة لعدم حاجتهم إلى بفضل وجود (تور ليدر). وكانت ريتا قد حضرت لتشاهدنى آكل الفراخ بأصابع يدىّ، وقد سخرت منى بسبب طريقتى تلك فى أكل الفراخ، بأصابعى وبدون استعمال الشوكة والسكينة، الا أن تلك السخرية لم تزعجنى فقد بدا واضحاً من الابتسامة الكبيرة على وجهها، وهى ابتسامة محبة واستلطاف، إن تلك الطريقة قد تكون مصدر متعة لها، وقد عرفت فيما بعد أن ريتا تفضل أكل الفراخ بالأصابع لا باستعمال الشوك والسكاكين.

بعد الغذاء قمنا بعمل زيارة منطقة الأهرامات وأبى الهول، ثمّ فكرت فى البقاء معها أثناء حضور مجموعتنا لعرض الصوت والضوء، بدلاً من عودتى إلى المنزل تاركاً إياها وحدها تنتظر انتهاء العرض لتعود بالسياح إلى الفندق. أثناء الانتظار ذهبنا سوياً إلى مقهى وشربنا الشاى بالنعناع.

أخرجت ريتا من حقيبة يدها أجندة صغيرة، كتبت فى صفحاتها الأولى كلمات بالفرنسية، كانت تصحيحاً لبعض الأخطاء اللغوية التى كنت قد وقعت فيها أثناء النهار، أخطاء تتعلق أساساً بالمؤنث والمذكر، وباستعمال أزمنة بعض الأفعال المركبة. ألقيت نظرة على الأجندة وشكرتها، قالت (لن أسلمك إياها لتحتفظ بها، إلا فى نهاية رحلتنا سوياً بعد أسبوعين، وذلك على شرط أن تخصص لى ساعة واحدة كل يوم بعد الظهر أثناء رحلتنا النيلية من أسوان إلى المنيا، لتراجع معى دروس العامية المصرية من خلال منهج الجامعة الأمريكية Let›s Chat in Arabic لأنى سأمتحن فيها الشهر القادم).

(٥٠)

أخذنا الطائرة من القاهرة إلى أسوان، فى اليوم الثالث من برنامج المجموعة الّذى سيستمر أسبوعين، وذلك بعد أن كنّا قد انتهينا خلال يومين من عمل برنامج القاهرة، وعند وصولنا إلى مطار أسوان ذهبت ريتا إلى المركب حتشبسوت، وذهبت أنا بالمجموعة السياحية وبطائرة أخرى إلى أبو سمبل، لعمل زيارة المعبد، والعودة إلى أسوان قبل ميعاد الغذاء،

حين يتسلم الزبائن كبائنهم على المركب، ثم نلتقى على موائد الغذاء. وكنا عادة فى تلك الحالة نقوم بتخصيص بعد الظهر لجولة الفلايك فى نيل أسوان، وذلك لتجنب الإرهاق الشديد لبعض الزبائن المتقدمين فى السن.

كانت هذه الجولة بالفلايك تستغرق حوالى ثلاث ساعات، حسب حالة الرياح، فندور أولاً حول جزيرة الفانتين، ليرى الناس كتل الجرانيت التى شكلتها الطبيعة فى صورة أجسام أفيال ضخمة، ثم ننزل على الشاطئ الغربى لزيارة ضريح الأغاخان، ثم نعود إلى الفلايك من جديد، لننزل مرة ثانية عند الطرف الجنوبى لجزيرة النباتات، ونمشى فيها بطولها إلى طرفها الشمالى، حوالى سبعمائة متر على الأقدام.

ضمن المجموعة كانت هناك فتاة فى الثلاثين من عمرها اسمها تريزا، كانت وحدها مع أمها، وقد لحقت بى لتسير إلى جوارى طوال الوقت، وتلتفت بانتباه إلى كل ما أقول. كانت شقراء طويلة وبشعر مجدول ضفائر، وكانت ملابسها الملتصقة بجسمها (البنطلون والبلوفر) توحى بأن جسمها قوى ومتناسق. إلا إن وجهها كان حزيناً، حتى إذا حاولت الابتسام فإن حزنها كان أقوى من تلك المحاولات.

عندما وصلنا إلى طرف الجزيرة الشمالى حيث تنتظرنا الفلايك، كان علينا انتظار وصول آخر أفراد المجموعة، وهكذا جلست إلى مقعد خشبى، فجاءت تريزا لتجلس إلى جوارى. عرفت منها أنها تسكن فى باريس، حيث تعمل فى إدارة محل لبيع أسماك الزينة والعصافير، كان يملكه والدها الذى توفى منذ بضعة أعوام، وإنها مسئولة عن إعاشة

والدتها، وأنهما تسكنان شقة فى نفس العمارة التى يقع بها المحل، ولكننا أثناء حديثنا لم نتطرق إلى موضوع لماذا هى بدون زوج أو صديق، ولماذا تبدو نظراتها حزينة. بعد لحظات وصلت ريتا وجاءت هى الأخرى لتجلس إلى جوارى، وبدت شاردة قليلاً.

فى اليوم الرابع من البرنامج أبحرت المركب الساعة الثانية عشرة ظهراً فى اتجاه كوم امبو، التى وصلنا إليها فى الثالثة بعد الظهر وقمنا بعمل زيارة المعبد. فى نهاية الزيارة لحقت بى ريتا لتقول لى أننا سنلتقى حسب الاتفاق فى صالون المركب، بعد شاى الساعة الخامسة، لنقضى ساعة فى مذاكرة العامية المصرية.

أعجبتنى جداً طريقة نطقها للكلمات العربية، واجتهادها الواضح فى إثراء حصيلتها اللغوية من مفردات عربية، رغم مرور ستة أشهر فقط على وجودها فى مصر قدّرت أن مفرداتها اللغوية قد تصل إلى حوالى خمسمائة كلمة، فتحمست لها جداً، وبدأنا سوياً فى عمل كراسة لهذه المفردات، مكتوبة حسب ترتيبها الأبجدى، كما لو كانت هذه الكراسة هى قاموسها الخاص بها، ولكننا كنا نستعمل الحروف اللاتينية فى كتابة الكلمات، مثلاً كلمة أنا تكتب ana، وذلك لأن ريتا لم تكن قد أجادت بعد قراءة الحروف العربية.

استأنفنا الإبحار فى ذلك اليوم الرابع لنصل أمام مدينة إدفو حوالى الساعة الثامنة مساءاً، وعادة ما تكون تلك الليلة أمام إدفو هى التى نحتفل فيها على المركب بالسهرة التنكرية. وهكذا فإن ريتا كانت قد انشغلت من السادسة مساءاً إلى الثامنة مساءاً فى مساعدة السيدات والرجال على انتقاء

الملابس التنكرية التى تناسبهم، من مجموعة الجلابيات والأزياء العربية المتاحة للاستئجار فى بوتيك المركب، كما أنها كانت تساعد الرجال بمعاونة واحد أو أكثر من طاقم المركب فى وضع العمامات وأغطية الرأس، وكذلك فى رسم الذقن والشنب بالفحم الأسود.

كنا بعد ذلك نستعد جميعاً قبل ميعاد العشاء لأخذ الصورة التذكارية للمجموعة، فى حضور مصور محترف كان يصعد على ظهر المركب فى إدفو، ويتنقل كذلك بين عدد من المراكب. كانت هذه الصورة بالملابس التنكرية هى أحد أفضل التذكارات التى يعود بها السياح إلى بلادهم. فى صورة تلك الليلة بدا واضحاً أن تريزا كانت ملتصقة بى، وأن ريتا كانت تنظر اليها.

(٥١)

صباح اليوم التالى وأثناء إبحار المركب بين إدفو وإسنا، لاحظت أن تريزا تجلس وحدها على ظهر المركب، تراقب المناظر الطبيعية التى نمر بها، وترسمها فى شكل اسكتشات سريعة فى كراسة رسم تحملها فى يدها، وعندما وقفت إلى جوارها لأنظر فى كراستها، قلبنا الصفحات سوياً لأجد أنها وخلال يومين اثنين فقط من الإبحار، كانت قد ملأت عشر صفحات برسوماتها، مناظر للجبال والصخور والمقابر المحفورة داخل الصخور على ضفاف النيل، والقرى المتناثرة بين النهر وسفح الجبل، والصحراء الممتدة فى الأفق، والشريط الأخضر الضيق من غيطان قصب

السكر والذرة، ونخيل البلح، والمراكب الشراعية.

طلبت منى تريزا أن ننزل إلى كابينتها فى الطابق الثانى من المركب لترينى المجموعة الكاملة لرسوماتها، والتى كانت قد رسمتها أثناء رحلاتها السياحية فى البلاد المتعددة، وذلك بعد إضافة الألوان المائية إلى الاسكتشات. نزلتُ معها، ودخلنا الكابينة، وأغلَقَتْ الباب خلفنا، وارتَمَتْ على السرير لم تقل أى شئ، ولكنها كانت تغطى وجهها بكفيها، أدركتُ إنّ المسألة لم تكن تتعلق برغبتها فى أن ترينى رسوماتها، بقدر ما هى رغبتها فى الانفراد بى فى كابينتها. ربتت على رأسها بحنان وخرجت. عند مرورى فى الكوريدور بين الكبائن، وقبل الوصول إلى الصالة التى يؤدى اليها هذا الكوريدور، فوجئت بوجود ريتا جالسة فى الصالة، فى مكان يسمح لها بمراقبة الكوريدور، كأنها كانت تريد أن تعرف كم من الوقت سأبقى فى كابينة تريزا. أدركت فوراً أن ريتا تهتم بى.

مارست أنا وريتا الحب لأول مرة، عندما كانت المركب حتشبسوت تقف أمام هويس إسنا تنتظر دورها فى العبور. وكنا نحن الاثنان قد تبادلنا النظرات أثناء العشاء، وتجرأت فلمست ذراعها فقالت (تعالى إلى كابينتى الساعة الحادية عشرة مساءً) كانت كابينة ريتا رقم ٢٠٣، وكابينتي رقم ٢٠٤، إلا أن كبائن هذا الطابق الثانى من المركب حتشبسوت، كانت الفردية منها تشغل أحد جانبى المركب، بينما تشغل الكبائن الزوجية الجانب الآخر

وهكذا ولأتجنب المرور أمام مكتب الاستقبال الذى يقع فى الممر بين الجانبين عند هذا الطابق، اضطررت أن ألفّ فى ممرات المركب

..يخارجية من الطابق الثاني إلى الطابق
مؤخرة المركب حيث يوجد دائماً عدد من البحارة يتسامرون
(ماذا يفعل المرشد هنا في هذا الوقت؟)، فقد صعد الر
ومنه إلى سطح المركب، ثم هبطت من الجهة الأخرى
مستوى الطابق الثاني وكانت ريتا قد تركت باب الكابينة بدون
بالقفل الداخلي. فدفعته ودخلت.

فوجئت ريتا بهذه الجرأة التي لم تكن تتوقعها مني، إن وجهي (كما قالت لي فيما بعد) كان يبدو بريئاً جداً. بعد ممارسة الحب بقيت في كابينة ريتا حتى حوالي الساعة الثانية صباحاً. قلت لها إنّ كلّ النساء اللائي عرفتهنّ كنّ فرنسيّات، فعلقت ريتا قائلة (أنا فخورة بمواطناتي)، قلت كذلك (منذ بداية المراهقة وحتى أول تجربة جنسية لي، كنت أخشى من ليلة الزفاف، وكيف أن العريس المصري الذي لا تكون له عادة سابقة خبرة، يكون متوتراً جداً عصبياً ونفسياً وجسمانياً ليلة زفافه، بسبب أسابيع وشهور الإعداد للزواج).

بعد هذه المصارحة من جهتي وجدت ريتا نفسها مضطرة إلى تحكي لي قصة حياة والدها وطريقة وفاته الغريبة، بالقاء نفسه من الطابق الأول (منتحراً؟)، وقد مات بسبب سقوطه على رأسه وحدوث كسر في الجمجمة. (أم أنه كان قد فقد توازنه بسبب شرب الخمر؟). الا انها لم تذكر أي شيء عن المرض الوراثي المنتشر في العائلة، ولم أعرف بعد شهور عديدة أن أحد أعمامها، وكذلك أحد أبناء العم، كانا قد ماتا منتحرين، بالقاء أنفسهما من طوابق مرتفعة.

(٥٢)

سألتها: من هو إريك؟

قالت: أعز أصدقائى

قلت: ألا تضايقك مشاركة السكن مع شخص آخر؟

قالت: هو غالباً ما يكون فى الصعيد عندما أكون أنا فى القاهرة والعكس صحيح

قلت: وما هى حدود تلك الصداقة؟

قالت: لا تقلق فهو لا يهتم بالنساء

قلت: لا أفهم

قالت: هو هومو Homo sexual

قلت: منذ متى؟

قالت: منذ مراهقته، هو لم ينجح أبداً مع الفتيات زميلاته فى المدرسة، وشعر بأنه يميل أكثر إلى الفتيان

قلت: شئ لا يمكن تصديقه، فمن يرى إيريك بطوله وعرضه، وصوته الخشن، وشعره الكثيف، لا يمكن أن يصدّق أنّه يمارس الجنسية المثلية

قالت: ولكنه إيجابى

قلت: لا أفهم

قالت. فى هذا النوع من العلاقات، هناك من هو إيجابى أى الفاعل، وهناك من هو سلبى أى المفعول به

قلت: وهل هذا يحدث هنا فى هذه الشقة؟

قالت: طبعاً هو يأتى بهم إلى حجرته مباشرة، ولكنهم عندما يروننى يحاولون أحياناً أن يتودّدوا إلىّ، فإن أغلب هؤلاء الشباب من أولئك الذين يمارسون الجنس بالطريقتين، ويعتقدون أننى قد أوافق عليهم

قلت: هذا خطر

قالت فى واقع الأمر هذا صحيح، فبعضهم يأتى أحياناً ليطرق الباب عندما يكون إيريك فى الصعيد، كأنهم يراقبوننا ويعرفون من منّا يكون موجوداً وحده ومتى

قلت: (وقد أصابنى بعض القلق) من هم هؤلاء الشباب؟

قالت: كلهم فى حدود سن العشرين، ومنهم من يعمل فى محلات بيع الملابس فى شارع البرازيل، أو يعمل فى توصيل الطلبات إلى المنازل، وأحياناً عساكر الحراسة أمام السفارات الأجنبية فى الزمالك فى خارج أوقات عملهم، حيث يغريهم إيريك بسجائر الحشيش والنقود، وإن كان هذا قد تسبّب له فى مشكلة بيرة ذات مرة

قلت كيف؟

قالت: تهوّر عليه أحد العساكر مرّة وضربه، فما كان من إيريك إلا أن ردّ عليه بالمثل، وحدث ذلك أثناء مرور سيارة الدورية البوليسية، التى اقتادت الاثنين إلى قسم الشرطة، ولم يخرج إيريك من الحجز إلا بعد

يومين، وبتدخل شخصى من المستشار القانونى لسفارة فرنسا.

(بعد شهرين)

كان اليوم الأول لطيفاً، فبعد الشاطئ عدنا إلى الفندق للاستحمام (وكان ضغط الماء فى الصنابير ما يزال فى ذلك الوقت ضعيفاً). خرجنا نحن العشرة لنتناول وجبة سمك فى مطعم يقع على البحر مباشرة، فى مبنى مركز الغوص أمام فندق مارينا شرم، وكانت المنطقة ما تزال على طبيعتها، تلك الطبيعة التى ستفقدها بالتدريج خلال سنوات التسعينيات بسبب الاستغلال المكثف لكل أراضى خليج نعمة فى بناء الفنادق.

أثناء وجبة السمك كنا قد احتسينا سوياً عدة زجاجات من النبيذ الأبيض، وعندما انتهينا من الوجبة طلب إيريك زجاجة أخيرة، وعندما انتقده الآخرون لم يجد إلا أن يسألنى إن كنت أوافق على اقتسامها معه، فقلت (أوكي). وإذا بريتا تنفجر قائلة (لا تطاوعه فإنه يريد أن يجعل منك بالتدريج مدمناً مثله فتفقد مالك وصحتك) وغادرت المكان منفعلة جداً. بقينا بعض الوقت مضطربين، ثم لحقت بها فى حجرتها لأفهم الموقف.

قلت: ماذا حدث؟

قالت: هو مدمن خمور ألم تلاحظ ذلك؟

قلت: هو يشرب كثيراً ولكن هل وصل إلى الإدمان؟

قالت: نعم إنه مريض، وإن كنت تريد أن تحتفظ بى فلا تطاوعه.

قلت: طبعاً أريد أن احتفظ بك ولكنى تعاملت مع الموقف ببساطه.

قالت: ولكنه هو يضع خطة لإفسادك.

قلت: لماذا؟

قالت: هو لا يحبك فقد أخذتنى منه.

قلت: وهل انت ملكٌ له؟

قالت. هو يعتقد هذا، فمنذ أن أنقذ حياتى فى باريس وهو يعتقد أنّى مدينة له بالكثير، ويتناسى أنه هو الذى كان السبب فى محاولتى الانتحار.

قلت: الصداقة ليس فيها دائن ومدين. أعتقد أنه يجب أن تقطعى صلتك به.

قالت: لن يتحمل الصدمة، أنت لا تعرف إلى أيّة درجة هو متعلق بى، ففى الليالى التى لم تكن معنا خلالها فى الشقة، كان يأتى إلى الفراش ليبكى على كتفى كالأطفال، محاولاً إقناعى بإنك مجنون، وأنه يخاف على مستقبلى معك.

قلت: لم أعرف أنه يكرهنى إلى هذا الحد.

قالت: هو يريد أن يتخلص من وجودك فى حياتى بأى ثمن. فأنت تهدد مستقبله هو.

قلت: لا أفهم كيف يمكننى أن أهدد مستقبله؟

قالت: يجب أن تعرف أنه يعتمد كثيراً على مساعدتى المادية له، فأنا من يدفع إيجار الشقة المفروشة كله، وأنا كذلك المسئولة عن التموين وعن مرتب الشغالة.

قلت: وهو؟ ألا يعمل مثلك ويقبض مرتباً شهرياً؟ هذا عدا المزايا العينية الأخرى للمهنة من عمولات وخلافه.

قالت: هو يصرف كل دخله أولاً بأول، بل يوماً بيوم على زجاجات الخمر، وعلى تموين المخدرات من أعشاب وخلافه، وعلى هدايا لأصدقائه الشبان، وبعد ذلك لا يتبقى له ما يكفى حتى لشراء ملابس جديدة، فأنا من يشتريها له.

قلت: ومن أين لك كل هذا؟

قالت: يجب أن تعرف أننى قد حصلت العام الماضى على حقى فى وصية جدى، فقد حرص جدى على أن يترك لى شقته فى باريس، فهو يعرف كيف أن والدى كان قد بدد ثروته كلها وهكذا فقد أصر على أن يترك لى فى وصيته شقة باريس، التى أؤجرها بعقد سنوى يدر دخلاً يساوى دخلى من وظيفتى، وإيريك يعتقد أنك تعرف ذلك، ويحاول أن يقنعنى بأنك تطمع فى مالى.

قلت: لم أكن أعرف.

قالت: يجب أن تعرف كذلك أنّى كنت عند حضورى إلى مصر فى سبتمبر الماضى قد تعرّفت على شاب مصرى يسكن بالقرب منا، وهو مهندس ومن عائلة محترمة، وكنّا نخرج سوياً وأحياناً نتقابل فى شقتى، ثم نجح إيريك فى أن يجعله مخموراً كلّ ليلة.

قلت: لم أكن أعرف. وما هو الحل في نظرك؟

قالت: الحل هو أن نجد شقة أخرى ننتقل إليها سوياً، وأتركه يحاول أن يعالج وحده أزماته، على أن نكون بقدر الإمكان بالقرب منه لمساعدته عند اللزوم.

(٥٣)

ذهبت ريتا بعد ذلك للاستعلام عن الأوراق المطلوبة لدوسيه الزواج بين مصرى وفرنسية، قابلتها مدام هانجار، وهى سيدة فرنسية تعمل فى القنصلية وتقيم فى مصر منذ سنوات طويلة، ولم نعرف أبداً إن كانت متزوجة أو مطلقة أو أرملة أو عذراء، قابلتها وقالت لها (يجب أن تعيدى التفكير طويلاً فى هذا الزواج يا بنيتى، فإن أغلب المصريين الذين يتزوجون من فرنسيات لا يحبونهن، وإنما يكون الزواج هو طريقهم للحصول على الجنسية الفرنسية والباسبور الفرنسى، أو على الأقل إذا لم يدم هذا الزواج فإنهم يحاولون أن يسرقوا من زوجاتهم الفرنسيات أكبر قدر من الأموال ثم يختفون) ورغم أن هذا حقيقى فى بعض الحالات، إلا أننا لا يمكن أبداً أن نقول أن هذه هى الحالة فى أغلب الزيجات.

ثم لماذا تنسى هذه الهانجار أن أغلب الفرنسيات أيضاً يحصلن على الجنسية المصرية، ويتمتعن بجو مصر الدافئ طوال العام، بدلاً من الضباب الباريسى أغلب شهور الشتاء، ثم أنهن يتمتعن كذلك بدفء المشاعر المصرية بين الزوج المصرى وأفراد عائلته، تلك المشاعر العائلية القوية التى يحرم الفرنسيون أنفسهم منها برغبتهم المرضية فى الاستقلالية والفردية والذاتية والإنعزالية، التى يمارسونها منذ سن مبكر فى حياتهم. ثم أنهن يتمتعن كذلك برخص تكاليف الحياة فى مصر، فإن

تكاليف الإقامة والانتقالات والطعام والملابس ما تزال فى مصر أرخص على الأقل خمس مرات عنها فى فرنسا.

المهم فإن مدام هانجار كانت قد طلبت مقابلتى فذهبنا اليها سوياً. سألتنى المدام سؤالاً مباشراً (لماذا تريد الزواج من ريتا؟)

قلت: لأنى أرى أنها مناسبة لى جداً من أوجه مختلفة.

قالت: أذكر بعض هذه الأوجه.

قلت: فرق السن مناسب، سبع سنوات، اتفاق شبه تام على أغلب أمور الحياة، مشاركة فى نفس الاهتمامات الثقافية، ممارسة نفس المهنة، أوضاع مالية مناسبة.

قالت: كم تكسب أنت فى الشهر ؟ وكم تكسب هى؟

قلت: نحن نمارس نفس المهنة ونكسب تقريباً نفس الدخل.

قالت: أين ستقيمان؟ عند والديك ؟

قلت: أنا أعيش وحدى مستقلاً عنهما منذ سنوات طويلة، ثم أنى قد أخذت لريتا شقة مستقلة فى أحد أفضل أحياء القاهرة.

قالت: ماذا تعنى بأخذت ؟ طبعاً شقة مفروشة ستدفع إيجارها شهراً ثم تطلب من ريتا أن تدفع عنك الإيجار بقية العمر

قلت: هذا غير صحيح فقد دفعت كل مدخراتى كخلو رجل فى شقة فاخرة بالزمالك، ولن ندفع بعد ذلك إلا إيجارها الشهرى، خمسة عشر جنيهاً، وأمامك ريتا تشهد على صحة ما أقول.

قالت: ألا تفكر يوماً ما فى الانتقال للإقامة فى فرنسا؟

قلت: وكيف يمكننى أن أكسب عيشى هناك؟ إن المهنة الوحيدة التى أحبها وأمارسها بنجاح منذ سنوات، هى مهنة الإرشاد السياحى، وهى مهنة مرتبطة ارتباطاً تاماً بمصر

(٥٤)

كان الصديقان ماكسيم وجوستاف قد جاءا سويا الى مصر بحثا عن الدفء، اذا ان جوستاف فلوبير كان مريضا بداء الصدر (هكذا كانوا يسمون السل)، ونصحه الأطباء بالذهاب الى مصر، وكان الأطباء قبل الحملة الفرنسية على مصر ينصحون مرضاهم بالذهاب الى جنوب ايطاليا. يقول تعليق ماكسيم على صورة صديقه (لاينبعي الاعتقاد بان جوستاف كان يفكر في مصر القديمة، وهو يجوس عبر الآثار المصرية القديمة، فانا أعرف انه لم يكن يفكر الا في الطريقة التي يمكنه أن يخرج بها ايما بوفاري من الورطة التي أوقعها فيها).

بحثت عن مؤلفات فلوبير، فقرأت (ايما بوفاري)، وكذلك (اغواء القديس انطوان)، ثم وقعت على العمل المعنون (ثلاث قصص)، وفي قصة منها وجدت الوصف التفصيلي لرحلة القديس جوليان. بقراءة قصة حياة فلوبير، عرفت ان مدينة مسقط رأسه هي روان، وعرفت ان الزجاج الملون المعشق، لكاتدرائية هذه المدينة هو الذي كان قد أوحى الى فلوبير قصة القديس جوليان. وهكذا أصبحت تلك المدينة هي أحد أهم أهدافي في فرنسا، وضعتها في خطة العمل قائلا في نفسي (عندما أزور فرنسا

سأذهب الى روان وأشاهد بنفسي هذا الزجاج الملون وأنا أستعيد أحداث القصة) هكذا كنت (ومازلت) أفكر

اعتقدت زوجتي في البداية، خلال اجازاتنا الأولى سويا في فرنسا، أن اصراري على الذهاب وحدي الى بعض المدن المحيطة بباريس، هو رغبة مني في العودة الى لقاء بعض عشيقاتي القديمات، ولكني كنت أثبت لها في كل مرة حسن نيتي، باظهار تذاكر الزيارات، والوصف التفصيلي للزيارات، حتى وثقت في جزئيا وبشكل مؤقت. لم تكن زوجتي تحب زيارة متاحف الفنون الجميلة، أو كاتدرائيات

القرون الوسطى، كما كنت أفعل.

وقد اكتشفت أثناء زيارة تلك المدينة (روان)، ان الانجليز كانوا قد أحرقوا جان دارك حيّة، في قلب الميدان القديم الذي يحمل اسمها، لمجرد انها كانت على رأس الجيش الذي حاول تخليص فرنسا من الاحتلال الانجليزي في القرن ١٥، رغم انها لم تكن الا في العشرين من عمرها. ان الاحتلال الانجليزي كان كارثة في بلاد عديدة، ليس فقط في فلسطين ودنشواي، فلمن شاهد فيلم (غاندي) الذي عرض في أوائل الثمانينات، كيف ننسى منظر فتح النار على النساء والأطفال المسالمين؟ ثم كيف ننسى انهم كذلك السبب في المشكلة الواقعة بين العراق والكويت؟ لماذا لا يدفع انجليز القرن الواحد والعشرين ثمن هذه الكوارث؟

فرغم حبي للبيتلز، ولشيكسبير وتشارلز ديكنز، ورغم صداقتي الشخصية للمخرج الانجليزي الكبير جون بورمان Boorman ، الذي كان على رأس لجنة تحكيم مهرجان (كان) لهذا العام ٢٠٠٩، وكان زبوني في

مجموعة سياحية، عندما جاء الى مهرجان القاهرة السينمائي سنة ١٩٨٧، رغم كل هذا فأنا أتمنى أن يدفع الانجليز يوما ما، ثمن كل المآسي التي تسببوا فيها للملايين من البشر في بلاد عديدة، ولنبدأ بفلسطين.

(٥٥)

شاهدت في فيلم تسجيلي قصير، عن حيوانات الغابة، كيف ان اللبؤة ترفض ممارسة العلاقة الجنسية مع زوجها، فيدور حولها من جديد ويقترب من مؤخرتها ليميل عليها، واضعا طرفيه الأماميين حول جذعها، ومقتربا بمنطقة أسفل بطنه من مؤخرتها، فتزيحه عنها وتقوم من مكانها، تاركة له المكان، فيعود باحثا عنها من جديد، ليحاول من جديد، ولكنها تكرر نفس الحركات الدالة على الرفض، تدير رأسها نحوه وتزمجر، كأنها توبخه.

يقول التعليق على الفيلم، ان الأسد لا يستطيع أن يجبر أنثاه، على النوم معه، وانه مع تكرار رفضها له، يعرف انها لم تعد زوجته، وان هناك في الغالب ذكر آخر، سيحضر قريبا ليحل محله، ربا لأسرته، وأبا لأشباله، وأن هذا الذكر غالبا سيكون قريبا منهما في الوقت الحالي، لعله في الجوار، لعله في مكان لا يبعد عنهما كثيرا، لعله ينظر اليهما الآن ساخرا، وهو يرى كيف يلحّ الزوج على ممارسة حقوقه، وكيف تصرّ الزوجة على الرفض.

يستمر التعليق قائلا، ان هذا الموقف في حياة ملك الغابة، قد لا يعني فقط نهاية علاقة زواج، دامت لسنوات عديدة، ونتج عنها عدد من الأشبال، فالأنثى مستعدة للتضحية بكل هذا في سبيل لحظات من المتعة، ومستعدة كذلك لأن تبدأ في تكوين أسرة جديدة، مع ذكر جديد، أما الذكر القديم فيبدأ في الانسحاب من الحياة، وفي رفض لذاتها، وقد يصل به الأمر الى الامتناع عن الطعام، والى الموت خلال شهور قصيرة.

كانت ريتا قد قالت لي ذات مرة، في بداية واحدة من أزماتها العقلية، انها كانت قد منحتني عامين، كانت مخلصة لي خلالهما (اديتك فرصة سنتين)، أما بعد ذلك فانها كانت قد وجدت نفسها مضطرة الى خيانتي، أولا لأني كنت كثير الغياب في الصعيد (كأني لم أكن هناك لأكل العيش)، ثانيا لأني لم أعد أهتم بها وباحتياجاتها، اذ أقضي أغلب وقت فراغي مع كتبي، ثالثا لأنها لم تعد تشعر معي بالاشباع، وهكذا بررت لنفسها خيانتي مع عدد لا يقل عن عشرين شخصا، بعضهم من موظفي شركات السياحة التي عملنا معها، وبعضهم من زملائي المرشدين، وبعضهم الثالث باجتهادات ذاتية منها، من خلال ترددها على مقاهي الزمالك ومطاعمها وفنادقها. ثم انها قد حكت لي كذلك كيف أنها في بعض تلك الأزمات العقلية، السابقة على ادخالها المستشفى للعلاج عشرين مرة خلال عشر سنوات، كانت قد تصرفت مع بعض أولئك العشاق بشكل أقرب الى الشكل الذي تمارسه محترفات الدعارة.

من أغرب القصص التي حكتها لي بعد أن كنا قد انفصلنا بالطلاق، ومع ذلك فقد استمرت لقاءاتنا لبضعة أعوام، عدنا خلالها الى الخروج

سويا الى المطاعم وحفلات الأوبرا والمراكز الثقافية الأجنبية، هي أنه كان من بين معارفنا شاب مسيحي متدين جدا، كانت قد تعرفت هي عليه خلال محاولة أن تجد لحياتها معنى، بزيارة بعض ملاجىء العجزة والأيتام، ومعسكر المصابين بالبرص في مكان ما خارج القاهرة، وجاء الى منزلنا مدعوا الى العشاء في مناسبات مختلفة. هذا الشاب حكى لها وهو يبكي، كيف أنه اقترب من الثلاثين، ولم تكن له بعد أية خبرة جنسية، لم يكن قد عرف بعد أيّة امرأة في حياته، فشعرت نحوه بالاشفاق، وقادته الى الفراش، تقول إنها لم تشعر معه بأي لذة ولكنها (عملت فيه جميل وخلصته من عقده).

(٥٦)

ثم انها كانت دائما ما تحيط نفسها، بأكبر عدد ممكن من الشخصيات الشاذة، وكانت قادرة على أن تجد دائما عددا كبيرا منهم في كل وقت، حتى انني كنت أتساءل مثلا عن مدى انتشار الجنسية المثلية لدى السيدات الفرنسيات المقيمات في القاهرة؟ عندما ذكرت لي ريتا حكاية سيلفيا التي تطلقت من زوجها همّام، وعادت الى فرنسا لتصبح مثلية، تساءلت ان كانت هذه النوازع كامنة لديها منذ مرحلة ما قبل الزواج من همّام؟ أم انها نوازع ظهرت متأخرة، وتغلبت على عشر سنوات من الزواج، وعلى انجاب طفلة؟

جاءت ريتا ذات مرة مع سيدة تدعى كلود (وهو اسم يحمله في فرنسا الرجال والنساء، مثل اسم عفت في مصر)، وبصحبتها فتاة فرنسية اسمها ايلودي. كلود تعمل مربية لدى أسرة مصرية ثرية جدا، ولم أعرف بالضبط من ريتا مصدر هذا الثراء، الا انهم يدفعون لها ألف وخمسمائة دولار شهريا، بالاضافة الى الاقامة الكاملة وتذكرة الطائرة مرة كل عام، مقابل رعاية الطفل، في الفترة المسائية، بين عودته من المدرسة وذهابه الى الفراش. ايلودي كذلك تعمل كمربية أطفال لدى أسرة مصرية أخرى.

كلود في الخامسة والخمسين من العمر، في حين أن هذه الفتاة بالكاد في منتصف العشرينات، كلود قبيحة المنظر جدا، قصيرة القامة وببطن منتفخ من الضخامة، وملامح أقرب الى الذكورة، أما الفتاة فهي شقراء رقيقة، بملامح جميلة. فوجئت مفاجأة قاسية جدا، عندما عرفت أنهما ليزبيان، أي أن تلك الفتاة التحفة، تهب نفسها لهذه السيدة القميئة، تلتقيان مرة في الأسبوع عند الواحدة أو عند الأخرى، حيث انهما تسكنان مع الأسرتين المصريتين الثريتين في قصور، لا نهاية لعدد الغرف فيها. لا تعليق عدا أن النفس البشرية هي مجموعة من الدهاليز المعتمة، التي تؤدي الى متاهة لا نهاية لها.

كانت ريتا قد قصت عليّ في وقت ما، كيف انها في العشرين من عمرها، كانت تريد أن تجرب كل شيء، أن تكون مثلا عشيقة لرجل أعمال ثري جدا، يصرف عليها وعلى ملابسها ونزواتها آلاف الفرنكات دون أي تذمر، وقد وجدته فعلا في شخص صاحب شركة سياحة فرنسية كبيرة، كان في الستين من عمره، ولم يكن لديها مانع كذلك من أن يشاركه اياها

رجل أعمال آخر من أصدقائه. ثم انها جربت كذلك فيما جربت الجنسية المثلية، والغريب في هذه الحالة، هو انها كانت قد اختار ت واحدة من صديقات أمها.

أما فيما يتعلق بالرجال الذين كانوا يمارسون الجنسية المثلية، في مجموعة أصدقاء ريتا، وبالتالي المجموعة التي كنا نخرج معها أحيانا، الى المطاعم والحفلات العامة والخاصة، فحدّث ولا حرج. فأولا كان هناك ايريك، أقرب أصدقائها الى قلبها، وهي تعتبر نفسها تدين له بحياتها، فانه لم يكن يجد أي حرج في اصطحاب أصدقائه من الأولاد، المصريين أو العرب، في مراهقتهم المتأخرة، أو في أوائل العشرينات، الى حفلاتنا والى حفلات الأصدقاء المشتركين.

كان يختار دائما صبيانا رفيعي القوام جدا، وسمر البشرة، وقليلي الثقافة، من طبقات شعبية، ويقيمون في أحياء شعبية. أعتقد ان هذا كان يعيد اليه الاحساس الاستعماري الكولونيالي، بالتفوق العنصري الذي كان يشعر به أجداده في بلاد المغرب العربي مثلا، خاصة وانه كان في صحة جيدة جدا، طويل القامة، أشقر بعينين زرقاوين. أكثر المناظر التي كانت تغيظني وتجعلني غالبا أترك المكان، هو أن يصر ايريك على أن يجلس الصبي المراهق على حجره أمامنا جميعا.

لم تكن الأقمار الصناعية قد انتشرت بعد، الا ان ايريك كان من أوائل من اشتراها في القاهرة، وبالتالي كان قد اكتشف أداة جذب هائلة، سحر لا يستطيع الشباب المحروم أن يقاومه بسهولة، سحر القدرة على الحصول على أفلام ولقطات جنسية، في أي وقت من النهار أو الليل. كان

يغريهم بها، ثم يشجعهم على ممارسة الاستمناء أمامه، أو حتى يمكنه أن يستعمل يده أو فمه أحيانا في حصولهم على اللذة، ثم يقدم لهم الخمور والمخدرات، وبالتدريج يفقد الشباب، من أولئك الذين يكون قد اكتشف لديهم الاستعداد المسبّق، القدرة على المقاومة، وقد يصل به الأمر أحيانا، اذا كان الشاب ما يزال يظهر بعض المقاومة والتمنع، الى تخديره قبل أن يعتدي عليه.

أما أعجب من شاهدته معها، من أصدقاء مقربين، فكان شابا فرنسيا أشقر، في أوائل العشرينات، يمارس الحياة الجنسية الكاملة مع رجل خمسيني، من رجال احدى السفارات الأوروبية، ملحقها الاقتصادي، يقيمان معا في نفس الشقة، ويحضران معا نفس الحفلات، العجيب هو ان هذا الشاب كان يرتدي دائما ملابس النساء، ويضع على صدره ما يوحي بوجود ثديين، ويضع شعرا مستعارا، وماكياج أحمر وأبيض، ويتحرك حركات أنثوية واضحة، في نظرات عينيه، وحركات يديه، وطريقته في الكلام، مما كان يثير عواطف شريكه، فيقوم شوقا اليه يقبله أمامنا. كان الكل يعرف ويقبل ويسكت، بدعوى أنها حرية شخصية.

(٥٧)

قرّرت ريتا في السابعة صباحاً الذهاب إلى كنيسة المرعشلي، وهي قريبة من منزلنا، فلم أمانع، رغم إنّها لم تمارس خلال سبع سنوات من الزواج أيّة طقوس دينيّة. إنها لا تؤمن بأيّة ديانات سماويّة، وعندما سُئِلت

فى مناسبات مختلفة عن ديانتها، كانت تقول (أنا بوذيّة). أبدت إعجابها الشديد بعمارة الكنيسة وزخارفها. سبق لنا المرور أمامها عشرات المرات دون أن تلفت انتباهها إطلاقاً، ركعت أمام الهيكل المقدس، كما ينبغى لأيّة رسولة حب أو نبيّة سلام أن تفعل.

عندما عدنا إلى المنزل، أشعلت عشرات الشموع فى كل مكان، فوق الموائد، وعلى الأرضيّات الخشبيّة، حتى أنّى خشيت من إحتراق كلّ شىء، فبدأت أطفىء الشموع، فاذا بها تنفجر فى قائلة (أنت لن ينصلح حالك أبدا، وستظل طول عمرك كافر). دخلت ريتا لتنام ساعة، ثم قفزت من الفراش قائلة (ريرى تنادينى)

ريرى تلك هى جارتنا العجوز، عمرها تسعة وتسعون عاماً، وتقيم فى شقّتها فى العمارة المجاورة لعمارتنا منذ حوالى سبعين عاماً، منذ جاءت إلى مصر مع زوجها الفرنسىّ فى الثلاثينيات، مات فى الخمسينيات وتركها تعيش وحدها فى مصر أربعين عاماً. كانت سفارة فرنسا فى مصر تنوى الاحتفال بعيد الميلاد المئوىّ لريرى، فى مبنى السفارة، وبحضور السفير، كأكبر معمّرة فرنسيّة فى مصر سنّاً، الاّ أنّ ريرى ماتت قبل الميعاد بشهر واحد. ذهبت معها إلى زيارة ريرى، الّتى استقبلتنا فى حجرة نومها بعد أن كانت الخادمة قد فتحت لنا الباب، وسألتنى عن الأولاد، رغم أنّها تعرف إننا لم ننجب، الا انها كانت قد فقدت الذاكرة.

في الساعة الثالثة بعد الظهر حدثت ظاهرة عجيبة، إذ أظلمت السماء تماماً، كأن الشمس قد انطفأت، هذا الأمر حدث فجأة، فى لحظة واحدة تحوّل النهار إلى ليل. انتفضت ريتا فى مكانها وقالت (هذه هى نهاية

العالم، كنت أقول لك ذلك منذ مدّة وأنت لا تصدّقنى)، جرت إلى باب الشقة، ثم إلى السلّم ومنه إلى الشارع، ولكن وحيث إنّ هذه الظاهرة الغريبة لم تستغرق الا أقلّ من خمس دقائق، لأنّها كانت بسبب عاصفة ترابيّة خماسينيّة كثيفة، فإننا بمجرد نزولنا إلى الشارع كانت الشمس قد عادت إلى الظهور، بعد أن كانت قد اختفت مؤقتاً خلف التراب.

نظرت إلى ريتا مؤنّبة وكأنّها تقول لى (أين الظلام الذى كان هنا منذ لحظات؟)، وكأنّى كنت المسؤول عن تأجيل نهاية العالم. عندما عدنا إلى شقتنا كانت فى حالة تهيّج تام للذاكرة، فأجلستنى أمامها وقالت (أنت شاهدى الوحيد، ويجب أن أقصّ عليك كلّ الأشياء الغريبة التى حدثت لى منذ ميلادى، فإنّه لم يعد فى العمر بقيّة، وبعد أن أموت يجب أن تسجّل كلّ ما سأقوله لك الآن كتابةً، وتطبعه فى كتب توزّعها مجّاناً على كلّ الناس، يجب أن تقسم أمامى الآن، على أنك ستنفذ وصيّتى تلك، ويجب أن تعرف إنّك إذا حنثت فى قسمك فإنّك ستموت رّ ميتة).

فى تلك الليلة جاءنى كابوس غريب، وهو أن ريتا قد استيقظت وهي تقول لى إن ثلجاً يغطّى يديها، وأنها فقدت الإحساس بهما، فأخذت كلا من يديها فى يدىّ لأدفئهما، ومع ذلك فإن طبقة الثلج كانت تمتدّ إلى بقيّة الجسم، جريت إلى خارج الغرفة لطلب العون، أو للبحث عن حلّ، فاذا بى أفاجأ بأنّى لست فى منزل الزوجيّة، وانّما فى منزل والدى، الذى كنت قد غادرته منذ عشرين عاما، واذا بوالدى يقف فى صالة المنزل فطلبت مساعدته، وهو طبيب، فأسرع إلى داخل الغرفة للكشف على ريتا، واذا بى أنتبه إلى أن هذا الشخص هو فعلاً والدى ولكنه أصغر منى سناً، وكانت

صورته الّتى أمامى هى صورته قبل زواجه من أمى. وعندما استيقظت فجأة كنت ألوم نفسى على أنى لم أنتظر فى الكابوس لأعرف كيف تمكّن والدى من إنقاذ زوجتى من التجمّد.

اختفت ريتا من المنزل صباحا، ذهبت مع ليزا وآديلا، إلى منطقة أهرامات دهشور، فزوج ليزا يمتلك استراحة على حافة الصحراء. كنت أخاف من هذه الزيارة، ولم أعرف ماذا أفعل عدا انتظار عودتها. وكنت محقّاً فى مخاوفى، إذ إنّها عادت منفعلة تماماً، ومتأثّرة إلى أقصى حد بالزيارة، واندفعت تحكى لى بهياج شديد عن الشحنة النفسيّة الهائلة الّتى حصلت عليها لحظة دخولها هرم سنفرو الأحمر، (كنت أشعر كأني أعود الى رحم أمي أثناء نزولنا في الممر المنحدر الى حجرة الدفن تحت الأرض).

(٥٨)

بعد عودتها مباشرة من تلك الزيارة، دخلت إلى حجرة نومها وأغلقت خشب النوافذ، وكنّا فى شهر مايو والشمس تضرب حجرتها بشدة طوال بعد الظهر، ثم بدأَتْ فى عمليّة إشعال الشموع، مرة أخرى عشرات الشموع، ثم أعواد البخور فى أركان الغرفة الأربعة، ثم وضعت قرصا مدمجا لموسيقى هنديّة، خلعت كلّ ملابسها، ووضعت كلّ حليّها على جسمها العارى، السلاسل والغوايش والأساور والعقود والحلقان والخواتم، وبدأت ترقص فى دوائر حول المكان الّذى كنت أجلس فيه

سألتها (ماذا تفعلين؟) قالت (أنا أحاول إغواءك، إنّ أيّ رجلٍ آخر كان سيفهم فوراً، دون أن يكون مضطرّاً إلى سؤال زوجته، يا خسارة على ذكائك، يا خسارة تعليمي فيك)

ومارسنا الحب، نجحت في ذلك رغم كل القلق الذى كان ينهشنى، وعندما انتهى ذلك اللقاء السريع المتعجّل، عادت إلى المناوشة من جديد، قائلة ان هذه المرة المتعجلة لا يمكن أن تحسب، وان هذا لا يسمى حبا، وانما (ده شغل أرانب)، فذكرت لها إنّى مرهق ولا أستطيع المزيد، فما كان منها الا أنّ بدأت تسخر من الفراعنة، ومن آلهة الفراعنة، خاصةً الاله مين رب الإخصاب، الدائم الانتصاب. كان الموقف كلّه بالنسبة إلىّ مضحكاً ومبكياً في نفس الوقت. لم يحدث أبداً خلال سبع سنوات من الزواج، أن إدّعيت أمامها إنتسابى إلى هذا الرب، ولاحتى ذكرت اسمه.

اتصّلت بدانيال الّتى حضرت فوراً وساعدت ريتا فى إرتداء ثيابها. أصرّت على أن تكون ثياب سهرة، كما أصرّت على استمرار وضع أغلب قطع الحلىّ، الا إنّها بعد ذلك مباشرة خلعت كل ملابسها من جديد، ودخلت إلى الحمام، فطلبتُ من دانيال أن تدخل وراءها، لتعود بعد دقيقة قائلة (ماذا أفعل؟ ريتا تريد أن تستعمل الماء فى أقصى درجات حرارته، وأخشى على جلدها أن يحترق)، دخلت وأخرجتها من تحت الماء بالقوّة، وألبسناها ثيابها من جديد أيضاً بالقوّة، أصرّت من جديد على الحلىّ وعلى ثياب السهرة. وقبل مغادرة حجرتها كانت قد سكبت على جسمها وعلى ثيابها زجاجة كولونيا كاملة.

خرجنا من باب الشقة، فعادت إلى الدخول قائلة (نسيت شيئاً مهماً جداً) وذهَبَت لإحضار آلة التصوير، وكأنّها ذاهبة إلى رحلة خلوية، وعندما أغلقت باب الشقّة خلفنا، استدارت من جديد لتلمس إسمها المكتوب بالفرنسيّة على لوحة زنكوغراف معلّقة على الباب، ثمّ لتقترب من الباب لتضع شفتيها عليه وتقبل إسمينا معاً، ثم تحرّك أصبعها مع الكتابة العربيّة التى تحمل إسمى وتقول لدانيال (أنا أشطر منّك فى العربى).

فى الطريق تحدّثت ريتا مع سائق التاكسى عن أطفاله، وامتلأت عيناها بالدموع عندما عرفت منه إنّ أحد أطفاله مريض، فأرادت أن تعطيه مساعدة، وفتحت حقيبتها وأخرجت خمسمائة جنيه، فمنعتها من ذلك، فغضبت بشدة، وتدخّل السائق قائلا (لا تمنعوها من فعل الخير)، شرحت له إنّها مريضة وإنّنا كما سيرى بنفسه بعد قليل ننقلها إلى المستشفى. سألَته ريتا بعد ذلك باللغة العربيّة إن كان يصلّى، وإن كان يذهب إلى الجامع، الا انها نطقت الكلمة بالعربيّة الفصحى المحوّرة على لسانها إلى (ماسجيد) مع تعطيش الجيم، على طريقة المغاربة، فلم يفهم السائق، فغضبَت منه قائلة (انه كاذب، حتى المسجد لايذهب اليه).

عند وصولنا إلى المستشفى قالت (مغامرة جميلة/ مغامرة جميلة)، ثم أخرجت آلة التصوير وبدأت فى التقاط الصور، مم أضحكنا أنا ودانيال. في إستقبال المستشفى بدأت فى تقبيل كلّ الموجودين، الحرّاس وموظفى الإستقبال والممرّضات، حتى المرضى الآخرين وأقاربهم، وتقبّل الجميع تصرفها هذا بالابتسام، ثم دعانا ممرّض الدكتور عاكف إلى الدخول دون انتظار الدور، فأخذت الممرّض بالحضن امتنانا وعرفانا بالجميل، مم

أشعره بالحرج، ثم أَخَذَته من يده أثناء دخولها إلى مكتب الدكتور، مما جعله يعلّق ساخراً (ما كل هذا الحب؟)، فقالت وهى فى منتهى الجديّة

(أنا رسولة الحب والسلام فى هذا العالم، كلّ الناس تعرف ذلك الا أنتم أقرب الناس الىّ، لقد انتهى الخوف وانتهت الكراهية، ونحن نبدأ الآن عصر الحب)

وافقها الدكتور عاكف وأجلسها أمامه، ثم بدأ فى ملء استمارة الدخول، وعندما كنّا نشرب فناجين القهوة التى قُدّمت لنا، قلبت ريتا فنجانها فى الطبق، كما أفعل أنا أحياناً عندما تكون القهوة ساخنة، ثم لحست بلسانها كلّ ما كان قد تبقّى فى الطبق! بعد ذلك انحنت على أرضية الغرفة المتربة وبدأت فى مسحها بيدها، ثم دعك وجهها به، كأنه نوع من أنواع الكريمات. عندما كنت فى التاكسى العائد بنا أنا ودانيال إلى الزمالك، كنت منشغلاً بالتفكير فى معنى بعض تصرّفاتها، مثل الحمّام الساخن جداً والكولونيا، وكيف إنّها بعد ذلك تدهن وجهها بالتراب! (هى تشعر بإنّ جسدها ملوّث إلى حد عدم جدوى أيّة محاولات لتنظيفه).

(٥٩)

أول ليلة قضيتها على المركب السياحي، كانت في واحدة من كبائن الستاف، التي تركت مضاءة طول الليل، واستمر الدخول فيها بحقائب، والخروج منها بحقائب، طول الليل، وبالتالي لم أتمكن اطلاقا من الاستغراق في النوم، رغم السدادات التي وضعتها في أذنيّ. عندما ذهبت

الى مطعم المركب لتناول الافطار، اعتذر الكابتن بعدم وجود أماكن، وأعطاني بريكفاست باسكت (صندوق افطار)، لم أجد به الا قطعة كرواسان واحدة بالجبن، بالاضافة الى قطعة كيك بالشوكولاتة، فكان عدم حصولي على القهوة الصباحية مؤلما. ولهذا فان تركيزي كان قليلا عند بداية زيارة معبد الكرنك، مع مجموعتي الجديدة التي وصلت متأخرة مساء أمس، وكان الارهاق باديا على وجوههم.

كالمعتاد كنت قد أعددت ملزمة من ثلاث صفحات، الأولى بها خريطة للمعبد، والثانية بها قائمة بأسماء أهم الأسرات الفرعونية، وأسماء أهم ملوك كل منها، مع التاريخ التقريبي قبل الميلاد، والثالثة بها قائمة بأسماء أهم آلهة مصر القديمة وأماكن عبادتهم، وزعتها على زبائني. كنت قد وجدت بعد سبعة عشر عاما من ممارسة مهنة الارشاد السياحي، أن هذه الصفحات القليلة، تكون مفيدة جدا للسائح في يومه الأول. المفاجأة الكبرى هي اقتراب ضابط شرطة سياحة مني، طالبا نسخة من الورق الذي أوزعه. سعدت جدا باهتماماته الأثرية، الا ان الحوار القصير الذي دار بيننا فهمت منه، أن الداعي الى طلبه نسخة هو اعتقاده، ان هذا الورق قد يكون منشورا سياسيا، ونصحني بعدم العودة فيما بعد الى توزيع أوراق على الأجانب!!

طبعا حيث ان زيارة الكرنك هي أول زيارة لمجموعتي الجديدة، فقد رغبت في ان تكون ممتعة وثرية الى أقصى حد ممكن، ولهذا فأنا لم أبخل على سيّاحي بأي معلومات، وتنقلت معهم في كل الأماكن الجديرة بالزيارة، وتوقفت معهم أمام الجدران والرسوم والنقوش والأعمدة

والتيجان والأسقف..... الى آخره. كنا في أوائل فبراير، موسم أجازات نصف العام، وكان الكرنك ممتلئا برحلات المصريين.

لاحظت وجود أسرة مصرية كبيرة العدد تتبعني من مكان لآخر، أطفال ونساء ورجال، لم يكن هذا يضايقني طالما انهم لا يتدخلون في عملي، قد يكون من بينهم من يعرف الفرنسية، وقد تكون الملاحقة هي للانضمام ولو مؤقتا الى نادي الشعوب السعيدة، الى بعض سعداء الحظ من البشر، وقد يكون السبب هو الاعجاب بالعيون الزرقاء والشعور الشقراء، اقترب مني أحدهم قائلا (كلمتين بالعربي علشان أهل بلدك حبايبك)، اعتذرت بضيق الوقت فقال (أهو كدة المصري ما لوش خير في أهل بلده). المصريون الموجودون بالصدفة في الأماكن الأثرية، يعتقدون ان الأجانب قد وجدوا هذا المرشد بالصدفة على باب المعبد. جاء آخر من نفس الأسرة وقال (همّه مش دول الفرنسويين اللي دخلوا الأزهر بخيولهم)، قلت في نفسي سأخرج من المعبد متهما بالخيانة العظمى، ولم أرد.

جاءت التور ليدر الأجنبية لتشكرني قائلة انها تأتي الى مصر عشر مرات في العام الواحد، منذ عشر سنوات، وأنها لأول مرة تبقى مع مرشد ثلاث ساعات في الكرنك، لأن شرحه واضح وممتع. كنت سعيدا جدا بهذه المجاملة، الا انه باقترابي من موقف الأوتوبيسات السياحية خارج معبد الكرنك، فوجئت بسائق الأوتوبيس، ومعه مندوب مكتب الشركة في الأقصر في حالة هياج تام، يحركان أيديهما بطريقة عصبية في كل اتجاه. قال السائق (همّه الزباين هيعملوا دكتوراه في الكرنك؟)، استعبطت ولم أرد، قال المندوب (حضرتك قديم في السياحة، ومع ذلك تقدر تقول لي

امتى الزباين حيعملوا محل الدهب؟).

يجب أن يعرف الجميع ان قطعة المصنوعات الذهبية، أو ورقة البردي، أو السجادة المصنوعة من وبر الجمال، أو زجاجة العطر، المباعة حاليا في بازار سياحي بمبلغ ١٠٠ جنيه، يحصل الجميع على نصيبه فيها، فالسائق ١٠، والمندوب ١٠، ومدير مكتب الأقصر ١٠، ومدير مكتب القاهرة ١٠، ومدير المركب ١٠، والمرشد ١٠، والمحل يكسب ٢٠، وذلك حيث ان القطعة لا تساوي أكثر من ٢٠ ومع هذا فان الوحيد الذي يتحدث في ميكروفون السيارة السياحية عن جودة بضاعة هذا المحل بالذات هو المرشد، وهو كذلك الوحيد الذي تقع عليه المسؤولية، ويفقد نصف ماء وجهه، أو ماء وجهه كله، في حالة ما اكتشف السائح، ان نفس القطعة تباع في محل آخر بنصف الثمن، أو حتى بربع الثمن، لو ذهب اليه السائح وحده. هل تعرفون الآن حجم الظلم الواقع على السائح، وحجم الظلم الواقع على المرشد. تدهورت تماما أوضاع المهنة، بالتدريج خلال التسعينات، ثم سريعا جدا مع بداية القرن الجديد.

(٦٠)

في محاولاتي الدؤوب للبحث عن بديل، قرأت اعلانا في الصحف عن عقد (الدورة القومية الثانية للعلاج بالوخز بالابر الصينية)، وكنت قد بدأت في الاهتمام بكل أشكال الطب البديل، منذ دلتني حماتي الفرنسية على مستحضر طبي هوميوباتي homeopathic، رحمني من عذاب آلام

النقرس. كنت أعاني من هذا المرض العضال الذي يسمونه ظلما (داء الملوك)، لاعتقاد كان راسخا، في أن كثرة أكل اللحوم هي المتسببة فيه، الا أنه قد تأكد كذلك أن كثرة أكل الفول تتسبب فيه هي الأخرى، فعن أي ملوك يتحدثون؟

المهم بدأت معاناتي من هذا المرض مع عملي المستمر على المراكب السياحية، حين كنت مضطرا الى تناول وجبتيّ الغذاء والعشاء مع سيّاحي، غالبا على نفس الموائد، فكان من الصعب جدا رفض أكل اللحم حتى لو ادعيت انني نباتي، فمثل هذا التصرف قد يكون مدعاة للشك في نظافة الطعام، والا (لماذا لا يأكل المرشد؟ أكيد هو يعرف شيئا لا نعرفه. قد يكون هذا لحم حمير)، كان جدّهم الأكبر ديكارت قد قال ذات يوم (أنا أشك اذن أنا موجود). ثم انني قد ورثت الاستعداد لهذا المرض من والدي، الذي كان خلال سنواته الأخيرة دائم المعاناة من تورم أصابع القدمين. وكان العلاج المألوف هو الكولشيسين والزيلوريك، وكل منهما يتسبب في أعراض جانبية كثيرة، أهمها آلام المعدة ومشاكل الهضم.

نعود الى (الدورة القومية للعلاج بالوخز بالابر الصينية)، لن أذكر أي أسماء أو تواريخ لبشاعة الواقعة. قدمت الطلب في ادارة الكلية، ودفعت ثمن الاشتراك ١٥٠٠ جنيها مصريا مقابل حضور خمسين ساعة، موزعة على خمس وعشرين محاضرة، أي ان الساعة تساوي ثلاثين جنيها، يا بلاش. ذهبت اليوم الأول في الموعد المحدد، وحضر الطبيب أستاذ الأمراض الباطنية في كلية الطب، والذي حصل على علمه من بلاد الصين وفيتنام وكوريا، أي انه لا شك على الاطلاق في مستواه، حضر الاستاذ

متأخرا بعض الشيء، ولم يبق الا ساعة واحدة، سكتنا ولم نقل أي شيء، على أمل تعويض الوقت الضائع في المرات القادمة.

الا ان الموقف تكرر بحذافيره في المرات التالية، بل ان تأخر الطبيب وقصر مدة بقائه معنا، أدّيا الى اختزال المحاضرة الى نصف ساعة. تململنا ثم حدثت همهمة تحولت الى أصوات مرتفعة، ولحق البعض بالاستاذ قبل أن يخرج من المبنى، وعادوا به الى قاعة المحاضرات. سألناه عن السبب في اهماله لنا، قال (ماخدتش حقي، هاتوا لي حقي)، سألناه عن التفاصيل قال (أنتم ٥٠ طبيبا × ١٥٠٠ جنيها = ٧٥٠٠٠ جنيها، أنا الثلث، وعميد الكلية الثلث، وتجديد قاعة المحاضرات الثلث، الا أن العميد يريد أن يحصل لنفسه على نصف مستحقاتي، انتو رجّالتي، هاتوا لي حقي، وأنا أديلكم حقكم)، ذكرني هذا الموقف بعصر المماليك، حين كان لكل مملوك خشداشيته، أي رجاله وألاضيشه.

ذهبنا كلنا وتجمهرنا أمام باب مكتب عميد كلية الطب، فأحضر لنا ضبّاطا من أمن الجامعة (خشداشية العميد)، الذين ترددوا في التدخل عندما علموا أننا كلنا أطباء، وأن متوسط أعمارنا يتعدى الأربعين عاما. لم يجد العميد أي مخرج من أزمته تلك، الا في دفع المبلغ المستحق للأستاذ المحاضر، الذي خرج من مكتب العميد وعلى وجهه ابتسامة عريضة، وحصلنا على الدورة بكل ساعاتها المستحقة لنا. لقد أصبحت مصر غابة كبيرة، أو خرابة كبيرة، اذا كان الحال قد وصل بنا الى هذا الدرك الأسفل في التعامل، مع أعلى الفئات ثقافة وحضارة في البلد.

على فكرة، حتى لو كانت بينك وبين الطبيب معرفة شخصية، وعلاقة قديمة تعود الى سنوات عديدة، وحتى لوكان الطبيب أستاذا في كلية الطب، ويحقق مكاسب ضخمة من عيادته أو من مستشفاه، فهو لن يتورع اطلاقا عن الحصول على عمولة من معمل التحاليل أو من عيادة الأشعة أو من المستشفى الذي يرسل اليه مرضاه، فلماذا نتحامل على المرشد الذي يحصل على عمولة من السائح المليونير، في حين اننا نغض الطرف عن الطبيب الذي يمتص دمّ مريض فقير؟

(٦١)

في أوائل القرن الجديد، كان الضيق من مهنة الارشاد، قد بلغ بي حدا لا يحتمل، وكنت أبحث بأي ثمن عن مهنة أخرى. ذات يوم جائتني مكالمة تلفونية، من احدى زميلاتي في مهنة الارشاد السياحي، تطلب مني أن أحلّ محلّها في عمل يوميّة زيارات القاهرة، لسائحة فرنسية، هي أخت ناظر المدرسة الفرنسية في المعادي، وأن عليّ اذا قبلت، أن أذهب للقائهما في مكتبه صباح الغد. قبلت وذهبت واتفقنا ونفذت اليومية، وكانت فقط زيارات للآثار الاسلامية والمسيحية. عند العودة مساء الى الناظر، قرظتني المرأة تقريظا لطيفا، بدا لي مبالغا فيه.

بعد أقل من شهر اتصلت صديقة فرنسية لتقول، ان موقع المدرسة الالكتروني، يطلب مدرسا للغة العربية، وانها تنصحني بالتقديم (لعل وعسى). هي تعرف انني أبحث عن عمل جديد. وتعرف كذلك انني

مارست تدريس العربية للفرنسيين، خلال الأعوام التي توقفت فيها السياحة، لسبب أو لآخر. قالت (ضع كل أوراقك، حتى ما قد يبدو لك منها مقطوع الصلة بتدريس العربية)، استمعت الى نصيحتها.

بعد أربعة أشهر، وكان العام الدراسي قد بدأ منذ أسبوعين، وكنت قد فقدت الأمل تماما في الحصول على وظيفة التدريس، خصوصا بعد أن كنت قد عرفت أن عدد المتقدمين لشغل هذه الوظيفة يصل الى حوالي أربعين مدرسا. عدت الى شركات السياحة، أحاول أن أملأ جدول العمل لهذا العام بقدر الامكان، رغم تدهور أوضاع المرشد. ثم جاءتني مكالمة من الناظر يسأل ان كنت أستطيع أن أبدأ العمل صباح الغد؟ فأجبت بالايجاب.

ذهبت اليه في مكتبه، قال (أنا أثق في أختي ثقة عمياء، وكانت منذ أربعة أشهر أو خمسة قد قالت لي انك جدير بالثقة، وهذا هو سبب حصولك على الوظيفة، بالاضافة الى عزف الجيتار ودراسة الآثار، فالاتجاه الآن في فرنسا هو الحكم على الشخص من خلال دوسيه حياته كلها). بقيت في هذه المدرسة ثلاثين شهرا، ويرجع الى تلك الفترة الفضل في أشياء كثيرة، منها شراء كومبيوتر لضرورة استعماله في تحضير الدروس، ومنها التفكير في تأليف كتاب عن الأدباء المصريين، لمساعدة التلاميذ في التعرف عليهم.

الا ان الصراعات النفسية والفعلية كانت عنيفة، أولا بين المدرسين بعضهم وبعض، لعدم وجود منهج، ولعدم وجود كتاب مدرسي. ثانيا بين المدرسين والادارة التي لم تكن تولي تدريس العربية اهتماما كبيرا،

فمدرسوها هم أكثر مدرسي المدرسة بحثا عن فصول خالية لتدريس حصصهم. ثالثا بين المدرسين والتلاميذ، واليكم هذه القصة. أدخل الى الفصل فأجد تلميذة في السابعة عشرة تجلس على حجر تلميذ، أدخل الى الفصل ولا يتحركان من مكانهما، (يا مسيو كل المدرسين بيسكتوا اشمعنى انت بتتضايق)، أذهب الى الناظر، يقول (بين الحصص لا دخل لك بهما، أما أثناء الحصة من حقك منعهما).

ثم يحدث أن أطلب من تلميذ أن يذهب الى السبورة ليكتب عليها، فيقوم من مكانه، ويتحرك في اتجاه السبورة، ويصل اليها ثم يرفع ذراعه ليكتب، فاذا ببنطلونه الواسع الحجر يسقط على الأرض، ونرى ملابسه الداخلية، يضحك زملاؤه، فيمد يده ليرفع البنطلون ويستأنف الكتابة. بعد الحصة أ ذهب الى الناظر، فيأخذني من ذراعي الى باب المدرسة وأنا لا أعرف نيته، هل ينوي التخلص مني؟

نصل الى الباب فيضع قدما خارجه، ويقول (هنا مصر)، ثم يعيد القدم الى داخل المدرسة ويقول (هنا فرنسا)، ثم يضيف (ليس لنا دخل بملابس التلاميذ، هذه هي حريتهم الشخصية). الا ان الملفت للانتباه، ان نفس هذا الناظر كان قد غير رأيه بعد أسابيع، عندما ظهرت لأول مرة في المدرسة فتاة محجبة، فاذا به يدعو الجميع الى اجتماع عاجل في مكتبه، لمعالجة هذه الأزمة الطارئة. أين هي الحرية التي تحدث عنها؟

في منتصف التسعينات، كنت قد أجرّت شقتي في الزمالك من الباطن، عندما كان ذلك ما يزال قانونيا مشروعا، الى فتاة كندية تعمل في مكتب منظمة حقوق الانسان بالقاهرة. كنت أزورها مرة واحدة أول كل شهر

لأحصل منها على الايجار. وجدت لديها ذات مرة قطة صغيرة ضعيفة، قالت انها التقطتها من سلم الخدم، من بين أربعين قطة، اذ انها كانت أضعفهم. عادت تلك القطة مع الكندية الى بلدها كندا، بتذكرة طائرة وشهادة صحية، في حين عاشت القطط الأخرى عمرها كله في سلم خدم عمارة الزمالك.

(٦٢)

كنا نجلس نحن الأربعة على رصيف أحد المقاهي، أمام فندق كارلتون، في شارع الحبيب بورقيبة بالعاصمة التونسية، نحتسي أكواب البيرة التونسية اللذيذة، بعد ظهر ذلك اليوم المشمس الدافىء، من أيام فصل الربيع. كل شيء كان يبدو على ما يرام للأشخاص الأربعة، الذين كانوا قد انتهوا من عملهم خلال أسبوع، بحضور دورة خاصة بمدرسي اللغة العربية، العاملين في مدارس الحكومة الفرنسية بالبلاد العربية. كنت قد حضرت بصفتي مدرسا في مدرسة القنصلية الفرنسية بالمعادي في القاهرة، وكان معي ثلاثة من الزملاء، الأول مغربي يقيم في تونس مع زوجته الفرنسية، والثاني سوري من حلب يقيم في باريس مع زوجته الفرنسية، وقد حضر الى تونس لمدة أسبوع بمناسبة هذه الدورة، والثالثة مغربية تقيم هي الأخرى في تونس مع زوجها التونسي.

كنا نتحدث ضاحكين مستبشرين خيرا كثيرا، فقد انتهت الدورة بسلام، وغالبا فان هذه المجموعة لن تلتقي مرة أخرى على الاطلاق،

وسيعود السوري الى باريس هذا المساء، وسأعود أنا الى القاهرة صباح الغد. فجأة رن جرس تلفون موبايل المغربي، ليقول له ابنه التلميذ في المرحلة الثانوية، ان أمه قد حاولت الانتحار بقطع شرايين يدها، وانه قد اتصل بالاسعاف الذي لم يحضر بعد، الا ان أحد الأطباء من الجيران كان موجودا. انتفض المغربي في مكانه، وجرى نحو سيارته التي كانت تقف على بعد مئة متر. لحقنا به وركبنا معه.

كان يسكن في ضاحية المرسى، وهي على بعد حوالي عشرين كيلومترا من قلب العاصمة التونسية حيث كنا. قال (زوجتي الفرنسية لم تعد تحتمل الاقامة في تونس للعام الرابع، تحنّ الى كل ما هو فرنسي، وساءها جدا امتداد العقد لعام خامس)، (وأنا مشغول جدا بالعمل، وأهملتها مؤخرا الى حد ما). حاولنا قدر الامكان مواساته، فذكر كل منا قصة معاناته.

قال الحلبي موجها الحديث الى المغربي (أنت تعرف ابني فرنسوا، الذي رأيته عندي العام الماضي في باريس)، ثم توجّه بالحديث الينا أنا والمغربية قائلا (عمره الزمني عشرون عاما، ولكن عمره العقلي خمسة أعوام فقط، وتوقف عن الذهاب الى المدرسة منذ أن كان في التاسعة، حتى الحرف اليدوية لم ينجح فيها، وهو الآن يجلس طول النهر أمام أفلام الكارتون في المحطات التلفزيونية، وكـأن معاناتنا أنا وأمه معه هكذا ليست كافية، فقد انفجر في رأسه سخان الماء الكهربائي، فتسلخ جلد وجهه كله).

قلت موجها الحديث الى المغربي (مأساتي أنا أيضا هي زوجتي، ولكن وضعها أخطر بكثير من وضع زوجتك) ثم موجها الحديث الى

الكل (فبعد ثلاث سنوات من الزواج ظهرت عليها أعراض مرض عقلي وراثي، اسمه الاضطراب الذهاني الوجداني ثنائي القطبية، فتصيبها فترات اكتئاب حاد، تنقطع خلالها تماما عن العالم، لا تريد مقابلة أي صديقة، ولا تريد حتى مغادرة المنزل، ويدوم ذلك الاكتئاب أحيانا عدة شهور).

أخذت نفسا عميقا لأستأنف قائلا (ولكن الاكتئاب أرحم من الحالات التي تدخل فيها بعد الاكتئاب، اذ تبدأ مرحلة الخيالات والضلالات والأوهام، فتقفز مرة من الطابق الرابع، لأنها اعتقدت انها عصفور، ورغم انها لم تمت، الا انها عولجت من الكسور المضاعفة لمدة عامين، باجراء عشر عمليات جراحية بين القاهرة وباريس، ليتشوه جسمها كله).

جاء الدور على المغربية فقالت (كل منكم يعتقد ان معاناته أكبر من معاناة غيره، اسمعوا أولا قصتي، كانت أمي الفرنسية قد التقت بأبي المغربي في واحدة من مدن الجنوب، في صحراء المغرب، هي مدرّسة وهو موظف حكومي، فهاما ببعضهما حبا لمدة أربعة أعوام، ثم انتهى الحب تماما من جهة أمي بين يوم وليلة لسبب مجهول، وغادرت أمي المغرب عائدة الى فرنسا تاركة اياي مع أبي، ولم أكن قد تعديت الثالثة، أما هو فكان ما زال يحبها فلحق بها في فرنسا بعد أقل من عام، الا انهما لم يتفاهما).

سكتت قليلا وتنهدت (ولم يعد أبي أبدا الى المغرب،.....تركني وأنا في الرابعة، في منزل في منطقة جنوبية صحراوية معزولة،.....لم يكن فيه الا جدة مشلولة ذاهبة العقل، وأربعة من الأعمام الذكور الذين كانوا يتناوبون اغتصابي كل يوم، دون أن أجرؤ على فتح فمي بكلمة واحدة، حتى بلغت سن العاشرة).

(٦٣)

كان صديقي الذي يعمل في مجال السياحة، قد أقنعني بضرورة الخروج من مرحلة الاكتئاب، التي تلت مرحلة الطلاق، بأن أفتح له أبواب شقتي، التي أصبحت الآن شقة عازب، لاستقبال فتيات من كل صنف ولون، شقراوات رائعات الجمال من أوكرانيا وأذربيجان، وسمراوات من أحياء القاهرة الشعبية. وكنت أستمتع بمشاهدته وهو يغازل مواطنات الاتحاد السوفييتي السابق، أو وهو يحاول أن يتعلم الروسية من أجلهن، الا انه كان أيضا يحاول مساعدتهن في الحصول على عمل، في مجال القرى السياحية في الغردقة وشرم الشيخ. أما المصريات فانهن كن يحصلن على دورات حجز تذاكر طيران، ولغة انجليزية، هن أيضا على أمل الحصول على عمل. وهكذا ترون أن صديقي لم يكن شريرا. صحيح انه كان أكبر منهن بحوالي ثلاثين عاما، الا أن مبدأه في الحياة هو live and let live أي (عِش ودع الآخرين يعيشون).

لم أكن مقتنعا بفكرة الاستفادة من هذا الوضع في استغلال الفتيات، هنّ يقدمن أنفسهن لصديقي مقابل الحصول على عمل، وأنا أقدم الشقة لصديقي لأنه صديقي، تربطني به ذكريات الصعلكة في الشوارع منذ أكثر من ربع قرن، للبحث عن أرخص مطعم سمك في منطقة السيدة زينب، لأنه لم يكن معنا الا ثلاثة جنيهات أنا وهو. الآن وقد أصبحت ثروته بالملايين، ما زلنا نتعامل كما كنا سابقا.

رغم ذلك فاني كنت قد أعجبت اعجابا شديدا بشقراء أوكرانية، كانت في الخامسة والعشرين من عمرها، وتجيد التحدث بالانجليزية، فكانت بيننا بعض الحوارات. عندما قالت لي انها من بلدة تسمى (بولتافا)، تذكرت للفور السيرة الذاتية للأديب اللبناني ميخائيل نعيمة، الذي قضى خمس سنوات من عمره في دراسة اللاهوت المسيحي في مدرسة كنيسة تلك المدينة، ثمّ قمت وأحضرت من مكتبتي، مجلدا ضخما عن أوكرانيا، مدنها ومتاحفها وفنانيها وكتابها، تصفحناه سويا فوجدنا صورا من (بولتافا). بكت الفتاة، وحكت أنها حاصلة على ليسانس قانون من الجامعة، وان مرتبها كمحامية هناك هو فقط خمسون دولارا، في حين انها تحصل هنا من عملها في العلاقات العامة، في استقبال أحد فنادق شرم الشيخ، على ٣٠٠ دولارا في الشهر، بالاضافة الى الاقامة الكاملة.

اتصل بي صديقي تلفونيا وقال (المرة دي شيء مختلف تماما، ملايات لف من رشيد) لم أرد، فقال (مش ممكن ترفض). جاء الى شقتي قبلهما، وبفضل هذا الاختراع العجيب الذي ظهر مؤخرا في الأسواق، وأصبح في يد كل انسان، كان يتصل بهما أولا بأول لمتابعة حركتهما، من الأوتوبيس القادم من رشيد، الى التاكسي في القاهرة، الى وصف العنوان للسائق، حتى وصلت الفتاتان بسلامة الله (؟؟) الى باب شقتي. ذهلت ذهولا تاما. الفتاتان في حدود سن الثامنة عشرة. اسمان حركيان لا شك. سوزي وسارة. طلب صديقي كيلو كباب وكفتة من حاتي الحيّ، وشربت معه كأسين ويسكي، الا ان المداعبات بينه وبين سوزي كانت قد قادتهما الى حجرة النوم الداخلية، وبقيت أنا وسارة في الصالة، كانت سمراء بلون

بشرة جميل، وجسمها الرشيق أقرب الى الحجم الصغير

قالت (جعانة)، قمت وأخذتها من يدها وفتحت باب الثلاجة، فاكتفت بأكل الجبن الأبيض والخبز كانت قد تركت الملاءة السوداء على المقعد في الصالة، فظهر الجلباب الذي ترتديه، وهو أسود اللون، وبه تطريز لزهور ملونة، قلت في نفسي (ذوقها حلو)، قالت (أنا سني ٢٢ سنة، اوعى تفتكر اني لسة قاصر)، غيرت الحديث قائلا (تعرفي ان بلدك هي واحدة من البلاد القليلة التي لم أزرها أبدا في حياتي)،(ماتشوفش وحش)، (ليه؟ أنا أسمع انها مدينة جميلة)، (جميلة لو معاك فلوس كفاية، وجيت تقضي فيها يوم أو اتنين، مش تعيش فيها).

خرج صديقي للبحث عن علبة سجائره، فوجدنا نتحدث، قال (ما تضيعوش الوقت) ثم أضاف (سوزي بتقول انكوا لازم تباتوا في رشيد)، وعاد الى حجرة النوم. قالت (ماتضيعش الوقت) قلت (بالنسبة لي الحوار معاكي هو المهم)، قالت (يعني ايه) قلت (قد يحدث بيننا شيء ما فيما بعد، في يوم آخر، أما النهاردة فهو للتعارف)، قالت (ما تخافش عليّ أنا مش جديدة في الكار)، قلت (المسألة لا تخصّك أنت انما تخصّني أنا،..... لا أستطيع أن أكون جاهزا في كل وقت، يجب أولا أن تشغلي خيالي لفترة)،(مش فاهمة حاجة خالص، صاحبك ما قالش كدة)،(صاحبي قال ايه؟)،(قال ان كل واحدة حتاخد ٢٠٠ جنيه)، قمت من مكاني وذهبت الى درج مكتبي وعدت اليها بمبلغ ٥٠٠ جنيه، أعطيته لها فبكت.

(أبويا مات وسابني أنا وأمي واخواتي من غير ولا مليم، وأخواتي خمسة أصغر مني، وأمي عيّانة لازمها دوا ب٢٠٠ جنيه كل شهر، أعمل

ايه؟ طاوعت عيشة- مش سوزي- وبقيت آجي معاها مصر، أنا معايا دبلوم تجارة، بس كل أصحاب الشغل بيمدّوا ايديهم، وبعدين يدوك ملاليم في آخر الشهر). بالذمة والديانة والمنطق والعقل والأخلاق والعرف والتقاليد والقانون وكل شيء له قيمة، كيف يستطيع انسان أن يعتدي على هذه الانسانة المعذبة؟ لقد صدّقتُ كل كلمة قالتها، وطلبت منها أن تأتي اليّ كلما احتاجت نقودا، ولكنها لم تعد أبدا اليّ بعد ذلك.

(٦٤)

كانت جارتنا المطلقة قد أصبحت، صديقة حميمة لزوجتي الفرنسية. تلك الجارة لم تكن مصرية صميمة مئة بالمئة، بل كانت أقرب بكثير الى الأوروبيات، لسبب كان يمكن ادراكه بسهول بعد أقل من خمس دقائق تقضيه معها، اذ انها كانت تتحدث الى ابنتها الطفلة ذات الخمسة أعوام باللغة الايطالية. كان أبوها ايطاليا، عمل في مصانع فيات للسيارات، أقصد مصانع نصر للسيارات ١٣٠٠ / ٢٣٠٠ في الستينات، في حلوان ووادي حوف، عندما تقابل مع أمها المصرية وتزوجها على سنة الله ورسوله، اذ كان قد تحوّل الى الاسلام.

لمدة عشر سنوات كانت هذه النصف ايطالية هي أقرب صديقات زوجتي الى قلبها، تخرجان سويا الى كل مكان، حفلات الموسيقى في الأوبرا، أسابيع الأفلام في المركز الثقافي الايطالي، لاحظت ان الصديقة تمارس حريتها الجنسية مع أصدقاء عديدين، منهم الهندي

والباكستاني والياباني والسويدي .....كنت أسألها (هل أنت مسلمة) فتقول (طبعا، أنا وأبي وأمي)، ثم تضيف (لكن أنا لا أريد الآخرة، أنا عايزة الدنيا)

هذه ليست مشكلتي، وانما مشكلتي هي الطفلة التي كانت تترك في منزلنا طول الوقت، منذ كانت في الخامسة من العمر، والى أن أصبحت في الثانية عشرة من العمر، ولكن هل هناك الآن مشاعر طفولية حتى سن الثانية عشرة؟ يقول العلماء ان وسائل الاتصال الحديثة، جعلت الطفل يدخل مبكرا جدا في مرحلة المراهقة، فبعد أن كان هذا السن في الماضي هو الثالثة عشرة، أصبح الآن في السابعة أو الثامنة.

كانت هذه المراهقة تترك أحيانا في منزلنا لمدة أسبوعين، أثناء غياب أمها في الصعيد أو في ايطاليا، لمتابعة بيزنس السياحة، أو حتى أحيانا والأم في القاهرة، كانت تتركها أياما متتالية لانشغالها بعشاقها. أنا لا أعرف ما الذي كان يحدث مع هذه الطفلة في منزل أبيها في العجمي، عندما تقضي لديه اجازات المدارس، أو ما الذي كان يحدث معها عندما كانت تقضي اجازات الصيف في منزل جدتها لأمها في ايطاليا.

منذ الخامسة كانت تأتي الى فراشي، وتبدأ في القفز فوقه لتسقط فوق أماكن معينة من جسمي. كنت أوبخها وأشتكي لزوجتي فتقول (براءة أطفال). ثم عندما كنت أبقى بالبيجاما في المنزل، كانت تجري خلفي لتجذب بنطلون البيجاما الى أسفل فأرفعه وأوبخها، أو أرفعه وأجذب بنطلون بيجامتها الى أسفل فلا ترفعه، وانما تستمرىء تركه متدليا هكذا بين قدميها على الأرض. ما زالت زوجتي مصرة على انها (براءة أطفال).

ثم تأتي لتفك زرايز جاكت البيجاما، (عايزة ايه) (اعمل زيّي) (ليه) (نلعب عريس وعروسة)!!

من الصعب الآن الاعتقاد في مسألة براءة الأطفال. الا ان التطور التالي أصبح خطيرا جدا. كانت السيدة الفرنسية (التي كانت زوجتي)، بعد اصابتها بأول أعراض المرض العقلي، تنتظر مغادرة الشغالة شقتنا، حوالي الثانية بعد الظهر، لتخلع ملابسها تماما وتتجول عارية في المنزل حتى صباح اليوم التالي. (هي حرّة). بدأت الطفلة في تقليدها منذ أن كانت في السابعة! لم أقل أي شيء، كنت مهموما بمرض زوجتي. استمر الوضع على ما هو عليه، بمجرد أن تحضر الطفلة الى شقتنا، صيفا وشتاء، تخلع ملابسها بالكامل وتبقى هكذا حولي طول الوقت، حلت لها زوجتي مشكلة البيجاما.

في السابعة، ثم في الثامنة، ثم في التاسعة، ثم في العاشرة، ظللت صامتا. هل كنت مستمتعا بهذا الوضع؟ نعم أحيانا، خصوصا بعد أن ساءت العلاقة الجنسية مع زوجتي! كان وجود هذه الفتاة، يؤدي الى حدوث اثارة جنسية دائمة! هل كانت أمها تعرف ولا تبالي؟ لست متأكدا. كانت الفتاة قد حصلت من زوجتي على مفتاح شقتنا، فأصبح بامكانها الحضور كيفما وحينما شاءت. ثمّ بدأت أعراض الأنوثة في الظهور بوضوح على جسم الفتاة، التي لم يعد من الممكن اعتبارها طفلة، في الزمن القديم كانت الفتاة تتزوج أحيانا في هذا السن، الثانية عشرة. ثديان مثل حبتيّ الليمون، وبعض شعيرات العانة أسفل البطن.

كنت خارج المنزل، وعند عودتي جلست أمام جهاز التلفزيون، كنت أعتقد انني وحدي في المنزل وكنا في الصيف، فبدأت في خلع قميص، وفجأة جاءت الفتاة من الداخل هكذا عارية، لتجلس على حجري، كانت أمها في مكتبها بالمهندسين، وكانت زوجتي في الصعيد، انتصبت انتصابا فظيعا ومؤلما داخل بنطلوني الجينز الضيق، ولم تكن الفتاة بريئة إذ إن نظرها كان موجها الى هذا الجزء من جسمي. خشيت جدا من العواقب، لا لا لا أنا لا يمكن أن أتحمّل ذنب هذه الفتاة، لو انها كانت ما تزال عذراء، ولا أستطيع تقبل فكرة ألا تكون عذراء وهي في هذا السن.

بعد ثانيتين من جلوسها على حجري نفضتها على الأرض، فسقطت متألمة، وعادت الى الوقوف، فوقفت أنا أيضا وصفعتها صفعة عنيفة على وجهها، فسقطت على الأرض من جديد، حتى اني خشيت أن تكون قد أصيبت بارتجاج في المخ. جذبتها من يدها الى الحجرة لترتدي ملابسها، وطردتها من الشقة، واتصلت بأمها على الموبايل، أطلب منها أن تمنع ابنتها من الحضور نهائيا الى شقتنا. وقد كان.

فيما بعد قالت لي زوجتي ان الجدة المصرية الأصل، التي تعيش في ايطاليا منذ حوالي عشرين عاما، تسكن فيللا صغيرة داخل أحد أحياء العراة، المنتشرة على السواحل في جنوب ايطاليا، حيث يظل الكل عراة تماما طوال العام، طالما سمحت بذلك الظروف الجوية. هل يمكن اعتبار هذا العذر كافيا لتبرير تصرف الفتاة، أم ان المسألة كانت أكبر من ذلك، ولم يكن أهلها على علم بما يجوز انه قد حدث لها هناك في جنوب ايطاليا، أو حتى في الفيللا التي يسكنها الوالد في العجمي طول العام.

(٦٥)

استيقظ عادة في السابعة صباحا على أصوات عراك تلاميذ مدرسة الزمالك النموذجية الخاصة، لاختلافهم حول الاجابة على هذا السؤال الفلسفي (الكورة جول وللا مش جول؟). للأسف ان شرفة حجرة النوم تطل على فناء المدرسة. عندما أخذت هذه الشقة منذ عشرين عاما، كانت المدرسة مخصصة للحصول على دبلوم المعلمات بنظام الخمس سنوات، وكانت الفتيات هادئات لطيفات، الا ان هذا النظام قد تغير، فتحولت المدرسة الى بؤرة جحيم.

قررت بعد الطلاق، أن أنام في الصالة حيث جهاز التلفزيون، وحيث توجد كنبة تتحول الى سرير ولكني هنا في هذا الموقع الجديد، أكون قريبا من مرمى نيران الموبايلات التي ترن على سلالم العمارة، نهارا وليلا، مع ملاحظة ان العمارة تتكون من أربعين شقة، وأن بكل شقة على الأقل أربعة موبايلات، وانني أسكن طابقا متوسطا بحيث تكثر الحركة أمام بابي. فاذا لم تكن الموبايلات هي السبب في الازعاج، فان الجيران لا يعدمون الأسباب، لأن في رزع وصفق الأبواب ما يكفي من الضوضاء. وقد ألفت قطعة من الشعر الحلمنتيشي أسميتها (نشيد السكان في رزع البيبان)، أقول فيها (رزع البيبان/ خلاّني غلبان/ مسكين كحيان/ رزع البيبان/ ياجيران يا جيران/ والله تعبان)، وطبعتها فوتوكوبي من أربعين

نسخة، طبعا بدون توقيع خوفا من التنكيل، ووضعتها في صناديق البوستة. ولم يسفر هذا الاجراء عن أي نتيجة.

يا جماعة بدون أي ادعاء، ابحثوا عن كتاب السيرة الذاتية للمؤلف السويسري الناطق بالألمانية، والحاصل على جائزة نوبل في الآداب، هرمان هيسه Hesse، الذي يخصص فيه عشر صفحات للحديث عن ضوضاء الجيران. أنا لست بدعة في هذا المجال، لست وحيد عصري وزماني، الا ان المسائل طبعا نسبية، فلو شدّ أحد ذراع المرحاض في أي مدينة أوروبية، بعد الساعة العاشرة مساء، لأبلغ جيرانه البوليس، خاصة لو كان هذا الشادد أحد المتخلفين القادمين من منطقتنا العربية.

سأذكر لكم هنا قصة طريفة ومؤلمة في نفس الوقت، كنت مع مجموعتي السياحية الفرنسية، نشغل نفس الطابق من فندق كاتاراكت في أسوان، عندما أيقظني حوالي الساعة الثانية صباحا، صوت تلفزيون عالي جدا، مفتوح على احدى القنوات المصرية، فذهبت الى الحجرة وطرقت الباب، ففتح لي رجل مصري قميء، استكثر جدا تطاولي على حريته الشخصية! لم أفهم عن أي حرية شخصية يتحدث؟ واستمر صوت التلفزيون مرتفعا، فجاءتني مكالمة تلفونية من أحد سياحي الفرنسيين، يطلب مني أن أفعل أي شيء لاسكات الضوضاء، فطلبت منه أن يخرج من حجرته المجاورة لحجرتي، وأن نتقابل في ممر الحجرات.

طلبت من الفرنسي أن يقول للمصري بالانجليزية، انه لا يستطيع النوم بسبب الضوضاء، ثم طرقت له باب حجرة المصري، وتواريت خلف باب حجرتي، فاعتذر المصري للفرنسي عشرين مرة وأطفأ الجهاز.

كيف يمكنك أيها القارىء تفسير هذا السلوك المزدوج، الا على ضوء مركبات الدونيّة التي يتحدث عنها علم النفس، ثم ان هذه الدونيّة يشعر بها شخص يستطيع أن يدفع مئات الجنيهات، ليقيم ليلة واحدة في فندق خمس نجوم!!

(٦٦)

أعتقد الآن جازما ان الضوضاء كانت أهم أسباب فشلي في حياتي الزوجية. والقصة باختصار هي ان زوجتي كانت تصرخ كل ليلة من شرفة حجرة نومنا، المطلّة على المركز التجاري الذي كان تحت الانشاء (وهي نفس الحجرة المطلة على فناء المدرسة/ شوفوا النعيم اللي احنا فيه)، كانت تخرج الى الشرفة عدة مرات كل ليلة، في الثانية صباحا والثالثة صباحا والرابعة صباحا، قائلة بالعربي والانجليزي والفرنساوي (عايزين ننام)، فكنا نسمع اثر ذلك ضحكات ساخرة، فأنزل للذهاب الى قسم شرطة الجزيرة لعمل محضر ازعاج.

تكررت هذه المسألة عشرين مرة، حتى قال لي ضابط عظيم ذات مرة (ما تحاولش، الناس صحاب السنتر واصلين، وكمان معاهم أمير سعودي). سافرت زوجتي لقضاء أربعة أشهر في فرنسا، وكانت في كل مرة أتصل بها أو تتصل بي يكون أهم سؤال هو عن الضوضاء وهل خفت حدّتها قليلا؟ ثم سافرت الى الهند مرورا بالقاهرة لمدة بضعة أيام، وفي الهند حدث لها ما دمّر حياتنا بالكامل.

ثمّ ظهر عنصر جديد في مسلسل الضوضاء والازعاج. كنا (سكان الحيّ الذي كان راقيا) نستمتع بالهدوء يوم الجمعة لعدم وجود مدارس، والحمدلله، ثم أصبحنا نستمتع بالهدوء يوميّ الجمعة والسبت برضة لعدم وجود مدارس، والحمدلله، الى أن اكتشف أحد عباقرة الادارة المصرية هذه الحقيقة المؤلمة، حقيقة ان هناك مصريين يستمتعون بالهدوء يومين في الأسبوع، فاخترع لنا هذا العبقري سببا لا يمكن أن يخطر الا على ذهن أحد العباقرة، فأعطى ترخيصا بفتح فرع لمحلات الموتوسيكلات الأمريكية الشهيرة هارلي دافيدسون، والمشهورة بشكمانتها المخرومة، التي يمكنك أن تسمع صوتها على بعد كيلومترات عديدة. ولا يتجمّع هذا الشباب الجميل، أمام المحلات المذكورة، بالمتوسيكلات التي تترك محركاتها دائرة، الا في اليومين المذكورين.

قررت أن أهرب من ضوضاء القاهرة، بالذهاب لقضاء اجازة في رأس البر، التي تكون ممتعة جدا خلال شهور الشتاء. ذهبت الى موقف القللي، حيث استمتعت ساعة بضوضاء السيارات بأنواعها المختلفة، ثم تحملت سخافة الفيلم الكوميدي الاجباري، الذي شاهدته من قبل عشر مرات في نفس الأوتوبيس، لكني بعد كل هذا العناء وصلت الى رأس البر. ثم كنت عند اللسان ساعة الغروب، في يوم شتوي جميل، ولكن هيهات، لا مفر، لا مفر، لا مفر. ثلاثية الأبعاد. سباق موتوسيكلات بين شباب دمياط الرِوِش (لا أعرف معنى الكلمة ولكنها من مخترعات الجيل الحالي).

ثم كانت القمة الدرامية للملهاة (المأساة؟)، ما حدث في الثالثة صباحا. كنت قد استأجرت شقة في الطابق الأرضي بعمارة قريبة من

البحر، وكنت في سابع نومة، عندما أيقظني صوت غناء مرتفع قادم من الشارع، فتحت باب شقتي المؤدّي الى الشارع، فوجدت سيارة مرسيدس آخر موديل، تقف في وسط الشارع وكشافاتها الأمامية مضاءة، والصوت قادم من جهاز الكاسيت بداخلها، يذيع بأقصى طاقة للجهاز، التحفة الفنية الغنائية (العنب/ العنب/ العنب)،

انتظرت داخل شقتي بضع دقائق لعل السيارة تغادر المكان وحدها دون تدخل مني، ولكن هيهات، خرجت الى الشارع وصفقت بيديّ، فأطل وجه من نافذة بالطابق الثاني في عمارة مواجهة، قلت (الصوت عالي مش عارف أنام)، قال (نازل حالا). بعد عشر دقائق لم يكن قد نزل، فعدت الى الشارع ومددت يدي من نافذة سيارته، وخفّضت الصوت. فخرج الرأس من جديد، قائلا (كيف تجرؤ؟ من انت؟ استناني نازل لك)، عندما اقترب مني قال (لولا انك راجل كبير في السن واللي فاضل من شعرك كله شايب، كان بقالي كلام تاني معاك).

(٦٧)

ان احساسي باني انسان ملعون، يتأكد عاما بعد عام، فأولا هناك مرض زوجتي العقلي (١ في الألف)، ثم ثانيا هناك اصابتها بالتصاقات في قناتيّ المبيضين، أدّت الى أن الحمل الوحيد، الذي تكرّم به الله عليها، كان حملا خارج الرحم (٣ في الألف)، (يا سلام، شوفوا البخت)، وذلك حتى يقودها هذان السببان الى طريق اليوجا الملعون هو الآخر، الذي سيقودها

الى المزيد من المآسي. قلت لكم اني انسان ملعون. يرد عليك بعض الناس قائلين (المؤمن مصاب) يقولونها (منصاب) (طب ليه؟) أليس من المفروض أن يكرّم الله المؤمنين به؟ أما المسيحيون فيقولون أحيانا (صليبك ثقيل).

ليس هذا فقط بل ان السيدة زوجتي، منذ العام الثالث من الزواج، كانت قد زهدت في الجنس! معها حق فهي قد بدأت الممارسة الجنسية في سن الثالثة عشرة، أما أنا فقد بدأتها في سن الثالثة والثلاثين، مثل أغلب الرجال المصريين. كان لي صديق موسيقى عملنا سويا في فرقة موسيقية واحدة، جاءنا ذات يوم، وكان في الثالثة والثلاثين، قائلا (النهاردة قبضت جمعية عاملها من تلاتة وتلاتين سنة، اتجوّزت). أما أنا فمنذ العام الثالث من الزواج، والمدعوّة زوجتي ترفض اعطائي حقوقي الزوجية، باستثناء الفترات التي كانت تعاني فيها من الاكتئاب الحاد، فكنت أستغلها في تلك الأوقات أسوأ استغلال. لكنني باقي الوقت كنت مضطرا الى العودة الى الاستمناء، ناهيك عن التفكير في مسألة البحث عن عشيقات (أو حتى عشاق آخرين).

تجزم كل الدراسات الغربية على انتشار الجنسية المثلية في كل المجتمعات العربية، والسبب الرئيسي في ذلك هو الصعوبة التي يعاني منها الرجال في أغلب تلك المجتمعات، في الحصول على أنثى، أو في مجرد الوصول اليها، مجرد وقوع أنثى داخل دائرة البصر، يعتبر أحيانا من المستحيلات. كنت مؤخرا في رأس البر، ووجدت العشرات من الشباب يدورون بسياراتهم وبدراجاتهم وعلى الأقدام، يلفون ويدورون

عائدين الى نفس المكان، وقد ذهلت تماما عندما أدركت ان سبب هذا الهياج التام والهوس والهستيريا الجماعية، هو وجود انثى واحدة تسير في الممشى الرئيسي في المدينة، وهي كاشفة شعرها، يا للعذاب. ماذا فعلنا بعقول شبابنا؟ كنا في زمن مراهقتي لا نلتفت للميني جوب، ولا حتى للميكروجيب الذي كان يصل الى ٢٠ سم أعلى الركبة، شيء مؤلم.

وقد كان لي في القاهرة بعض المعارف من المثليين الفرنسيين، الذين كان لدى كلٍ منهم عشرات الأصدقاء من الشباب المصري، من كل الفئات السنيّة والمستويات الثقافية والاجتماعية، وكنت أعتقد ان هذا الشباب يبحث عن النقود، الا ان الأغلبية المطلقة من الغربيين أكدوا لي ان الشباب كان يبحث عن المتعة فقط لا غير، المتعة المجانية بدون أي مقابل مادي. أثناء دراستي في العام الثاني بكلية الطب، درسنا علم النفس على يد الدكتور عكاشة، وأتذكر ان أغلب الرجال يمرون في بداية المراهقة بفترة من الجنسية المثلية، ثم يمرون بعد ذلك الى الجنسية الغيرية. الا ان التثبيت عند مرحلة الجنسية المثلية حتى نهاية المراهقة، يحدث في المجتمعات المغلقة، وقد يحدث بعد ذلك عند التقدم قليلا في السن، ويكون بملء ارادة الشخص.

أنا شخصيا أتذكر اعجابي بأحد زملائي في الصف الثاني الاعدادي، كنت أفكر فيه كثيرا، وطلبت منه صورته فأعطاني اياها، واحتفظت بها دائما في جيبي، وكنت أودّ لو جلست الى جواره وأخذت يده في يدي. وقد استمرت هذه المشاعر لمدة عامين على الأقل. ثم في اجازة أولى ثانوي في الاسكندرية، أتذكر ذهابي مرة وحدي لحضور حفل لفرقة الموسيقى

العربية، في مسرح محمد عبد الوهاب، فجاء رجل أربعيني وجلس الى جواري، واستمر يتحدّث الى بطريقة لطيفة طوال العرض، ومدّ يده وأمسك بيدي، وحيث اني في ذلك السن كنت أميل الى الاستسلام التام، ولا أعرف على الاطلاق كيفية صدّ الاعتداءات المحتملة، فقد رضخت. الا ان انتظار أبي وأمي لي في السيارة خارج قاعة المسرح، كان قد أجهض مشروع هذا الأربعيني.

(٦٨)

جاء اكتشافي لهذه الأماكن بالصدفة. لم أستطع أن أصدق ما حدث، ولم أتوقف طوال النهار عن ترديد كلمة: مش معقول. والقصة هي اني كنت في زيارة لحماتي في مدينة نيم بجنوب فرنسا، وقرأت في جريدة محلية خبر افتتاح موسم الاستعرائيين (الطبيعيين) في آجد Agde.

أولاً لم أكن أعرف أن هناك قطار مباشر بين نيم وآجد، وأن المسافة لا تتعدى مائة كيلو متر، وأن التذكرة ذهاب وعودة تساوي ١٦٠ فرنكا.

ثانياً كنت أعتقد أننى حتى لو تمكنت من الوصول إلى آجد، واستطعت أن أجد مكان معسكر العراة، فإنى لن أتمكن من الدخول لسبب أو لآخر، إما لإنى مصرى أو لأنى بدون مرافقة نسائية.

ثالثاً كنت أعتقد أن وجود الناس عراة على البلاج شئ متوقع فى معسكر للعراة، أما وجودهم عراة فى الشوارع وعلى الأرصفة وفى المقاهى وفى السوبر ماركت، فهذا شئ من الخيال!

من محطة قطار آجد أخذت الأتوبيس إلى محطة نادى العراة، واقتربت من باب النادى الذى تقف أمامه فتاة، لأجد ان الذين يدخلون يملكون كارنيهات! فقلت فى نفسى. لا شك أنه ناد خاص وغير مسموح بالدخول فيه للزوار!! إلا أننى اقتربت من الفتاة وسألتها: هل ينبغى أن أكون عضواً؟ قالت: لا ولكن اشتر تذكرة دخول من المكتب، وأشارت إلى مكان داخل مبنى بمدخل زجاجى مكتوب عليه (الاستقبال)، وقرأت كذلك عبارة (دخول نهارى). وقفت أمام نافذة موظف التذاكر وقلت: دخول نهارى، قال. سيارة أم مرتجل؟ قلت: مرتجل، قال: وحدك؟ قلت: نعم وحدى - وأنا أقول فى نفسى أنه سيمنعنى من الدخول وحدى - ولكنه قال: ١٢ فرنك! قلت فى نفسى: (يابلاش)، دفعت واستلمت كارنيه دخول نهارى، ودخلت نادى العراة!

مشيت من مدخل نادي العراة إلى مجموعة مبان تبدو على البعد، مساحة المدخل كبيرة جداً، نافورات وحدائق وساحات لانتظار السيارات، ثم بدأت المفاجآت تتوالى، صبية وأطفال من الجنسين يجرون فى اتجاه البحر قادمين من شاليهات خلفية (لم أكن قد لاحظت وجودها) وكانوا بدون أى ملابس، اقتربت من المبانى فإذا بها فندق يخرج منه رجل وامرأة متقدمان فى السن، يتجهان ناحية سيارة يركبانها، كانت السيارة مرسيدس آخر موديل، وهذا لايمنع أن يكون هذان الزوجان كذلك بدون أى ملابس!! دخلت بحب استطلاع إلى بهو الفندق ٥ نجوم ولم يمنعنى أحد، فاذا بأغلب الموجودين فى اللوبى هم كذلك بدون أى ملابس!! الا أنى بدأت فى ملاحظة، ان العراة تماماً هم اما الأطفال حتى سن العاشرة،

أو كبار السن فوق الخمسين، أما من العاشرة إلى الخمسين فانه ليست هناك قاعدة، وان كان الشخص فى تلك المرحلة من السن يفضل الاحتفاظ بجزء من ملابسه، مثل الحذاء أو الكاب (غطاء الرأس) أو حتى الساعة!!!

اقتربت أكثر من الشاطىء فوجدت المقاهى والبارات والكافيتريات والمطاعم تنطبق عليها كلها نفس الحال، ولاحظت كذلك وجود جنسيات مختلفة فهناك زنوج وبيض وصفر (نعم صينيون أو يابانيون رغم ما يعرف عنهم من تحفظ)، مشيت لمدة ساعات طويلة، فقد بقيت من العاشرة صباحا، الى العاشرة مساء (موعد غروب الشمس في فرنسا في شهريونيو)، ولم أصل إلى أى أسوار، ولكن هناك حدائق تؤدّي بعد ذلك إلى غابات مفتوحة، وشواطئ صخرية بلا أي حواجز بينها وبين الشواطىء الأخرى التي لا يمارس فيها الاستعراء، يحدث فيها اختلاط غريب بين أولئك المرتدين ثيابهم، وهؤلاء الذين لا يرتدون أى شىء، وطوال النهار لم ألاحظ وجود أى مظاهر عدائية، أو أى احتكاك بين الفئتين، صحيح أن هناك رجال شرطة يجوبون المنطقة سواء على أرجلهم أو على خيول، إلا أنهم لا يتدخلون مطلقاً طالما لم يطلب أحد منهم ذلك. هل صحيح أن هؤلاء البشر قد تخلصوا فعلاً من كل العقد (أو القيود الأخلاقية) المتعلقة بالعرى؟؟

أصبحت عضوا في .F.N.N، ولن تجد مصريين كثيرين يعرفون معنى هذا، حتى في فرنسا، فان البعض كان يعتقد انها .F.L.N، أي جبهة التحرير الوطني للجزائر!! ماذا كانوا يعتقدون؟ هل أنا أبدو في الثمانين من عمري، حتى أشارك في حرب تحرير الجزائر التي بدأت في ١٩٥٤؟ بدون تطويل

في الكلام، واستفاضة لا داع لها، فان العبارة الأولى تعني الاتحاد القومي للطبيعيين. واللغز كله يظل في كلمة طبيعيين Naturistes. بالبحث في القواميس (أو بالدخول على الانترنت) يمكن أن نعرف ان المقصود بها هو الذين يتحدون مع الطبيعة، أو الذين يتقابلون في اجتماعات سنوية في أماكن مفتوحة على الطبيعة، مثل السواحل البحرية أو المناطق الجبلية، عراة تماما مثلما ولدتهم أمهاتهم، لممارسة الاتحاد مع الطبيعة.

وكان الفيلسوف الفرنسي روسو في القرن ١٨، هو أول الدعاة الى هذا المذهب، في أحد مؤلفاته (العودة الى الطبيعة)، الا ان ازدهار هذا المذهب كان بعد الحرب العالمية الثانية، بفضل الرخاء الاقتصادي الكبير الذي شهده العالم الغربي، من ١٩٤٥ حتى ١٩٧٣، ثم بفضل موجة الحرية غير المسبوقة في السينما أو المسرح، بعد حركة الشباب في فرنسا (مايو ١٩٦٨)، والحركات الشبيهة في أمريكا (وود ستك). بالمناسبة فقد أدرك المترددون على سينما المركز الثقافي الفرنسي، هذا الفرق (الثقافي)، بين أفلام ماقبل وما بعد ١٩٦٨، فكنت أراهم على باب المركز، قبل الدخول الى قاعة العرض، يسألون عن تاريخ انتاج الفيلم.

حصلت على العضوية سنة ١٩٩٩، مقابل مبلغ ١٢٠ فرنكا فرنسيا (حوالي ٢٠ يورو حاليا)، الا ان الادارة بعد أن عرفت اني المصري الوحيد، بين حوالي ثلاثين ألف عضو، أصبحت أحصل سنويا على عضوية شرفية مجانية، بشرط عمل الدعاية اللازمة في بلدي وهأنذا أقوم بها (حتى لا يعتقدوا اني باضحك عليهم).

ولكن حتى لو لم تكن عضوا في هذا الاتحاد القومي، يمكنك زيارة كل أندية العراة، في أي مكان في فرنسا، لمدة يوم واحد، سواء أكنت ممارسا للاستعراء أو لم تكن، وذلك بعد دفع رسم دخول متواضع (٢ يورو)، وبشرط عدم التصوير، وعدم السخرية من الأعضاء، والا تدخل الأمن فورا وطردك من المكان. وللمزيد من المعلومات، ادخل على الانترنت واكتب احدى الكلمتين naturism/Agde، ستجد عشر صفحات من المعلومات عن آجد، والمئات من الصفحات بعناوين اللآلاف من الأندية، تقريبا في كل بلاد العالم الغربي، وحتى في بعض بلاد آسيا وأمريكا اللاتينية.

(٦٩)

كنت أعتقد أنني بمجرد دخولي الى شاطىء العراة، سأخلع ملابسي بالكامل، ولكني مشيت حتى وصلت الى الشاطىء الرملي، وأنا بكامل ملابسي. عندما جلست على الرمال كان كل من حولي عراة تماما. صبيّ في العاشرة يحفر في الرمال، فيميل بجسمه كله الى الأمام، فتبدو من الخلف فتحة الشرج، والعضو الصغير والخصيتان داخل كيسهما. سيدة في الثلاثين تتمدد فاتحة ما بين فخذيها، ولا أحد على الاطلاق يعير المنظر أي اهتمام!

العضو الذكري في كل الحالات هو عضو لم يمارس عليه طقس الختان، فهو مغطى حتى طرفه بالغشاء الخارجي، وهو ما لفت الأنظار تماما الى عضوي عندما خلعت ملابسي، اذ ان الأعضاء المختونة لم تكن

تزيد عن ١ في المئة من الاجمالي. هل اعتقدوا أنني يهودي، خاصة مع أنفي المعقوف؟ نعم، هذا كان ظنهم. اذ انهم لا يعرفون ان مسيحيي مصر هم كذلك يمارسون الختان مثل مسلميها. ملحوظة: لخلع الملابس هناك خزانات صغيرة تؤجّر باليوم، يمكنك أن تضع فيها ملابسك وتستردها في أي وقت تشاء خلال ٢٤ ساعة، أما أنا فقد خلعت ملابسي واحتفظت بها في حقيبة كتف خفيفة كانت معي، فملابس الصيف كانت خفيفة ولم تشغل مكانا كبيرا.

بدأت أستوقف النسوة اللائي يسرن وحدهن في الشوارع، طالبا منهن تصويري، بالكاميرا التي أحملها على كتفي، بين السيارات، وجالسا على المقهى، وفي السوبر ماركت، وكن يستجبن لي في كل الحالات. بل ان منهن من أعطتني كارت صغير برقم تلفون لو أحببت قضاء الليلة في منزلها. أما اذا طلبت تصويري من شاب صغير فهو لا يستجيب، معتقدا انني أحاول استمالته لممارسة الجنس معه، رجل عجوز قبيح dirty old man.

بقيت عاريا تماما حتى غروب الشمس عندما بدأ الآخرون يرتدون ثيابهم. الغروب هنا الآن على التاسعة والنصف مساء. كنت على شاطىء البحر، أراقب أسرة فرنسية تطلق بعض الصواريخ في الهواء، ثم قررت أن أذهب الى أبعد مدى ممكن. ذهبت هكذا كما أنا، مرورا أمام مجموعة المقاهي والمطاعم، التي جلس اليها الفرنسيون يحتفلون بالسهرة. سكتت الجموع ثانية واحدة لمشاهدة هذا الغريب الأسمر، ثم استأنفوا اللغو.

سكوتهم جعلني أتجرّأ وأدخل أحد المطاعم، لم يقل الجرسون أي شيء، بل قادني الى مائدة، لأكتشف أنني لم أكن الوحيد العاري تماما، بل ان هناك انثى رائعة الجمال، قوام رشيق جدا، وحافية القدمين، لا ترتدي الا بعض الحليّ، سوارين وعقد، أما الرجل الذي يصاحبها، فكان مرتديا كامل ثيابه، بذلة وقميص وكرافات. أكيد أن كلا منهما يشعر بالتهيج الجنسي من هذه الممارسة. أما الآخرون، كل الباقين، فيتجاهلونهما كما كانوا يتجاهلونني تماما.

لم أعد الى مدينتي هذا المساء بل قررت البقاء على الشاطىء، أمطرت السماء فارتديت ثيابي، وأخرجت المظلة من حقيبتي، واشتريت بعض المأكولات والمشروبات، وعدت الى الشاطىء. كانت الاضاءة القوية الآتية من أعمدة الانارة القادمة من جهة الممشى la promenade كافية جدا، لرؤية كل الأحداث الواقعة أثناء الليل على شاطىء البحر، كانت الساعة قد أصبحت حوالي الثانية عشرة مساء، منتصف الليل، عندما هبط فجأة على الشاطىء، مئة شاب وفتاة، كانوا يتحدثون فيما بينهم غالبا بالانجليزية، الا انني استطعت كذلك تمييز اللغة الألمانية، ويجوز كذلك الهولندية، وبدأوا في ممارسة الجنس علنا في الهواء الطلق، فبعد توقف المطر كان الجو يميل الى الدفء، من بينهم من مارس الجنس الطبيعي، أي ولد مع بنت، ومنهم من مارس الجنس المثلي، أي ولد مع ولد، أو بنت مع بنت.

جاءتني صيحاتهم من بعيد (العجوز يراقبنا) (سحقا له) (يجوز انه يبحث عن رفيق أو رفيقة) (اذا كان هناك من يهتم به). نمت في مكاني، رغم

اغراء الاستعراض. واستيقظت مع الفجر لأجد عشرات الفتيان والفتيات، العراة تماما، في أوضاع احتضان في الأغلب الأعم، لم يهتم أحد منهم بارتداء ثيابه، بعد انتهاء الممارسة الجنسية، الا في القليل من الحالات، فليس هناك أحد يهتم بالنظر، الا شخص واحد، هو ذلك العجوز، الذي لا نعرف من أين هو قادم، هل هو يهودي؟ أو برتغالي؟ لم ينطق أحد بكلمة مصري، أو عربي، أو شرقي. ذكرني ذلك المنظر الصباحي بفيلم الايطالي بازوليني (١٢٠ يوما في سادوم وعمورة)، أو بلوحات الهولندي جيروم بوش Bosh، عن الجنة والنار.

(٧٠)

في ليلة شتوية عاصفة، كنت أقف وحدي تماما في منطقة لسان رأس البر، حوالي منتصف الليل، أسعد تماما بتأمل البحر، وبالانصات الى صوت الأمواج المتلاطمة. جلست على الأحجار المرصوصة بعناية الى جوار اللسان ليصلني بعض رذاذ الموج، فلمحت طيفا أو خيالا يخرج من بين الصخور، اعتقدت انه كان مختبئا هناك يمارس الاستمناء. اقترب منى

قال (ماعدتش أقدر أصدق أي شيخ)

قلت (مسمعتش علّي صوتك أواقترب)

قال (الشيوخ الذين لهم لحى تصل الى صدورهم، لم أعد أصدقهم)

قلت (لماذا؟)

قال (واحد شيخ جاء من شوية الى هنا ومعه سيدة منقبة واختفيا خلف الصخور، وعندما اقتربت منهما وجدته يعبث بجسدها من تحت الجلباب، وعندما هددت بفضحهما انصرفا)

قلت (قد لا يكون شيخا وما اللحية والنقاب الا ستارا يختبآن خلفه)

كانت اضاءة اللسان قوية، فلم أشك في صدق كلامه.

قال (قد يكونان من العفاريت، وضعهما الشيطان هنا أمامي ليعثراني)

كدت ان أضحك،

قلت (هل أنت متديّن؟)

قال (الحمدلله، ولكن حدثت في كفرنا، كفر الكاشف مركز فارسكور، حادثة غريبة منذ أيام، عندما خرج جنّي فجأة من تحت الأرض، في المنطقة الأثرية على أطراف الكفر، واعترض طريق ثلاثة رجال، وأمسك بأحدهم وطلب منه أن يختار بين أن يأخذ حياته، أو يأخذ حياة بناته الثلاث، فسأله الرجل كيف عرف ان له ثلاث بنات، فقال انه يعرف كل شيء، وقد شهد الرجلان الآخران بصحة هذا الحوار، فقال خذ حياتي أنا، فانفصلت في الحال رأسه عن جسده، والبوليس يحقق الآن مع الرجلين المتهمين بقتل زميلهما)

قلت (ان كنت خائفا لماذا تجلس وحدك في هذا المكان المنعزل؟)

قال (حتى أنسى همومي)

قلت (أي هموم؟)

قال (هموم الشباب، عندي ٢٦ سنة، أعمل في ورشة نجارة، نشتغل يومين ثم نتوقف عن العمل عشرة أيام، خاصة في مرحلة الكساد الحالية، امتى حاتجوز، وامتى حاجيب عيال)

قلت (تبدو مثقفا)

قال (ثانوية صناعية لكني أحاول أن أقرأ لأفهم)

لم أعد أعرف ماذا يريد، كان نحيفا وبذقن خفيفة، وفي مثل طولي تقريبا،ويرتدي ملابس غالية، وجاكيت جلد.

فجأة قال (ما تاخدني معاك)

قلت (فين؟)

قال (مطرح ما انت قاعد)

قلت (ليه؟)

قالل (أنا باحب الرجالة الكبار، أبويا مات وأنا صغير)

قلت (وماذا أفعل بك؟)

قال (اللي انت عاوزه، كل اللي ييجي على بالك اعمله، أو أي حاجة عايزني أنا أعملها معاك)

قلت (آسف فأنا متزوج، وهذه الأشياء لا تخطر على بالي)

قال (خسارة أنا حبيتك)

بدأ يتحرك من مكانه،

قلت (مع السلامة)

قال (الله يسلمك)

بقيت أنظر الى البحر، ومشى هو على اللسان، وفجأة اختفى.

ارتعشت قليلا، وعزوت ذلك الى برودة الجو، ومررت أمام حارس اللسان الذي لاحظ ارتعاشي.

قال (هوّه طلع لك؟)

قلت (نعم؟)

قال (الشاب اللي مات غريق من كام سنة طلع لك؟ مات قدام أصحابه، كان واقف على صخرة يتصوّر، اتزحلق وجت موجة خدته، وما حدّش لحقه)

(٧١)

(ان شعرة واحدة من رؤوسنا لاتسقط الا باذن الله)، فاذا كان هذا حقيقيا، فلماذا يترك الملايين منذ آلاف السنين، يتعذبون في كل مكان على هذه الأرض، من الجهل والفقر والمرض، والظلم والقهر والطغيان؟ فاذا كان الجهل والفقر غالبا بسبب كسل الانسان، فما الحل في مسألة المرض، الذي تتسبب فيه أنواع لانهاية لها من الفيروسات والميكروبات، أليس هو خالقها؟

ثم حتى لو تجاهلنا مسألة الأمراض والأورام والأوبئة، فلماذا تتعذب زوجتي طول حياتها بمرض وراثي، لا ذنب لها فيه على الاطلاق، اذ

استيقظتْ ذات صباح لتبدأ في المعاناة التي لا نهاية لها، من موجات الاكتئاب الحاد، التي تعقبها موجات من الضلالات والخزعبلات، وكل هذا بسبب تافه جدا، وهو ان مادة الليثيوم تقل ملليمترات تافهة في الدم؟ لماذا يحطم القدر حياتي الزوجية التي انتظرتها طويلا بكل هذه البساطة، بسبب ملليمترات قليلة من مادة نادرة في الدم؟ ما هذا الظلم؟ وما هذا العذاب؟

ثم ان كلمة ابن مجازية تماما، أي غير مقصود بها المعنى الحالي للكلمة، وكان هذا من تأثير معتقدات مصر القديمة، على المعتقدات المسيحية، فكلمة مسس mss، الموجودة في أسماء الفراعنة رع مسس وتحوت مسس، تعني ابن رع وابن تحوت، وهكذا فان مسس / مسي تعني ببساطة الابن.

أما الصلب فهو تقليد روماني، مورس خلال عدة قرون على مئات الآلاف من البشر، الذين لم يكونوا يتمتعون بالمواطنة الرومانية، وهي التي كانت شيء قريب الشبه بالجرين كارت الأمريكي حاليا. تقول المعتقدات ان الصلب كان لتخليصي من خطيئة سيدنا آدم، التي ارتكبها عندما أكل من شجرة معرفة الخير من الشر، وقد سألت نفسي عندما استمعت الى تلك القصة لأول مرة وأنا طفل صغير، لماذا أكون مسؤولا عن خطأ شخص آخر عاش منذ آلاف السنين؟ (العلم الحديث يقول ان أول انسان عاش منذ مليون سنة). وهكذا فقد قلت الآن هنا ما أريد قوله منذ خمسين عاما.

ثم مسألة الموت والقيامة من الأموات، هي الأخرى من تأثير مصر القديمة، فقد مات أوزوريس وقام من الأموات، ليعطي لكل المصريين

الأمل في التغلب على الموت، وعبور النيل من الضفة الشرقية (حيث يعيش الأحياء)، الى الضفة الغربية (حيث يعيش الأموات) في المساء، ثم عبوره من جديد، منتصرا على الموت، صباح اليوم التالي من الغرب الى الشرق.

لاحظوا معي ان العبور هو الذي أعطى العبرانيين، اسمهم، والكلمة (عبرو) مصرية قديمة، والعبور على الماء هو (البصخة) لدى المسيحيين، ومنها الكلمة الحالية (الفصح)، ومنها كذلك الكلمة اللاتينية (باسكوا) pasqua ، التي تنقسم في الواقع الى كلمتين (باس = عبور) في كل اللغات اللاتينية والجرمانية، وكلمة آكوا وتعني ماء في اللاتينية، وقد تكون كلمة بصخة هي كذلك الأصل في كلمة برزخ العربية، فيكفي للمقارنة بين الكلمات تشابه ثلاثة سواكن، الباء والصاد (الزاي) والخاء. يمكن مراجعة مؤلفات الليبي الدكتور/ علي فهمي خشيم.

أردت أن أعرف المزيد عن الاسلام، فسجلت اسمي في المعهد العالي للدراسات الاسلامية في ميت عقبة، وبقيت فيه أعيد التسجيل سبعة أعوام، كنت أشعر خلالها، في كل مرة أدخل فيها المعهد، كما لو كنت عميلا مزدوجا. نجحت في عشر مواد دراسية من اجمالي تسع عشرة مادة، ولديّ الدليل وهو كارنيه المعهد لسنة ثانية دبلوم، والذي لا يحصل عليه الطالب الا إذا كان قد نجح في سبع مواد من مواد سنة أولى التسع.

نجحت في مواد السيرة النبوية، وعلوم الحديث النبوي الشريف (د. أحمد عمر هاشم)، وتاريخ التشريع (د. صوفي أبو طالب)، ونظم الحكم، والتاريخ السياسي للدولة الاسلامية، والمشكلات السياسية في العالم

الاسلامي، والاقتصاد الاسلامي، والآثار الاسلامية، والأديان المقارنة، ومادة أحكام الأسرة / زواج وطلاق (د. محمد محجوب)، ولكن رسوبي ثلاث مرات متتالية، في مادتيّ فقه العبادات والفقه الجنائي، أدى الى شعوري باليأس. ثمّ ان حضوري ذات مرة مناقشة مع المحاضر، أدّى الى شعوري بالعبث.

ظلّ المحاضر ساعة كاملة، في موضوع بعنوان (أحوال المستحاضة)، وهو في صفحة رقم ٢٣٩ من كتاب (فقه العبادات)، الذي يدرسه طلبة معهد ميتٌ عقبة، يشرح كيف تتعامل المرأة مع مرضها، في حالة اصابتها بنزيف حاد في الجهاز التناسلي، ويذكر ضرورة التلجّم وكيفيته، فرفع أحد الطلبة يده طالبا الكلمة وسمح له بها، ذكر انه طبيب لأمراض النساء والولادة، وان الموضوع لا يستدعي التلجّم بقدر ما يستدعي العلاج لدى طبيب أمراض للنساء والولادة، فهي حالة نزيف مهبلي/ رحمي حاد acute vaginal/uterine bleeding فقال له المحاضر (اننا في محاضرة دينية، ولسنا في كلية الطب، ولك أن تختار بين الاعتذار أو مغادرة القاعة)، فاعتذر الرجل.

أنا الآن ليست لدي زوجة، وليس لدي أطفال، وتقريبا ليست لدي أملاك، باستثناء مكتبة من عشرة آلاف كتاب (قد تكون هي أُس البلاء كما قال لي صديق مؤخرا)، واقترب من الستين، وبالتالي فليس هناك تقريبا ما أخاف عليه. كنت أريد أن أنتظر رحيل أمّي قبل أن أذكر هذا الكلام، ولكني بتُّ أعتقد انه لم يعد هناك الوقت الكافي الذي يسمح بالانتظار، فأنا أصبحت أفكر جديا في الانتحار.

سهل جدا أن أحتسي بضعة كؤوس من الويسكي أو النبيذ أو البراندي، وأذهب بتاكسي الى برج القاهرة القريب من منزلي، فاذا وجدت الأسلاك لا تسمح بالقفز، رغم انني ما زلت أحتفظ بلياقة بدنية عالية بالنسبة لمن هم في مثل سني، يمكنني الذهاب الى مبنى المجمّع، وأصعد الى الطابق الخامس عشر، مثل علاء وليّ الدين في فيلم (الارهاب والكباب)، وألقي بالجثة، وذلك بعد أن أكون قد أشعلت النار في مكتبتي، ذات العشرة آلاف كتاب، أُس البلاء كما قال صديقي، تاركا انبوبة الغاز مفتوحة، حتى يحدث انفجار يحطّم شقتي، انتقاما من سكان العمارة بسبب عذاب الضوضاء الذي تسببوا لي فيه، خلال ما يقرب من عشرين عاما. كنت قد فكرت جديا ذات يوم في صبّ رصاص سائل في فتحتيّ الأذنين، حتى أتخلّص تماما من الضوضاء التي لم تعد سدّادات الأذنين مجدية معها، ولكن صَعُب علي الحرمان من الموسيقى.

سيرة روائية لستيني قبطي تقلب بين المهن والأماكن والدول والثقافات، من طنطا الستينات، إلى لندن السبعينات، إلى شارع الهرم أواخر السبعينات كعازف جيتار في الملاهي: طبيب، مرشد سياحي، مدرس لغة عربية، بلا أي خبرة في الحياة، بل بكل خبرة من لم يختبر الحياة أصلا. مشكلته الأساسية هي أدبه الجم وتربيته المسيحية السيكوباتية في شقها الأمومي التي عطلت إستمتاعه بالحياة، لكن توفرت له الفرصة أن يواجه كل هذا التأخر في إكتساب الخبرات مجموعة عوامل أولية، كونه قبطياً متحللاً نسبياً من القيم المحافظة للمجتمع من حوله، كونه تعلم تعليما عاليا في زمن كانت دراسة الطب تتوافق مع السفر الحر للندن للعمل في مخبز، كونه أبن أسرة متوسطة بالمعني السبعيني الذي يعني رفاهية التمرد. وكأن كل حياته سارت هكذا نتيجة للمناخ العام الذي كان يسمح حتى للمضطهدين عائليا ودينيا بأن يتنسموا بعضاً من الحرية إذا ما أختاروا ذلك في لحظة

هاني درويش

يكشف السارد عن عين مولعة بمراقبة التغيير الاجتماعي وتهمس همسا بالاسباب التي تخلق الفتن الطائفية، وتشير من دون موارية الي مسئولية مجتمعية وخراب شارك فيه الجميع. وعلي الرغم من تنوع تجاربه وخبراته المعرفية الغنية فإن تجارب الراوي مع المرأة تأخرت الي سن متأخرة نتيجة تربية خاطئة مارستها الأم، غير ان اللافت للنظر أن الخبرات التي مر بها انعكست علي نصه ومنحته ثراء انسانيا بالغا، فضلا عن لغة تعرف الطريق الي القلب، فهي ساخرة في المواضع التي تستحق ذلك، وجارحة مثل شفرة سكين في مواضع اخري، لكنها في كل الاحوال لغة فياضة لا تثقلها معارف الراوي الواسعة، والتي تجمع بين سلامة موسي وهيرمان هيسه وجان جاك روسو، في قماشة واحدة أقرب الي قطعة حرير منها الي أي شئ اخر

سيّد محمود

تصميم الغلاف كريم آدم

ISBN 978-977-765-010-6
9789777650106

AFAQ BOOKS